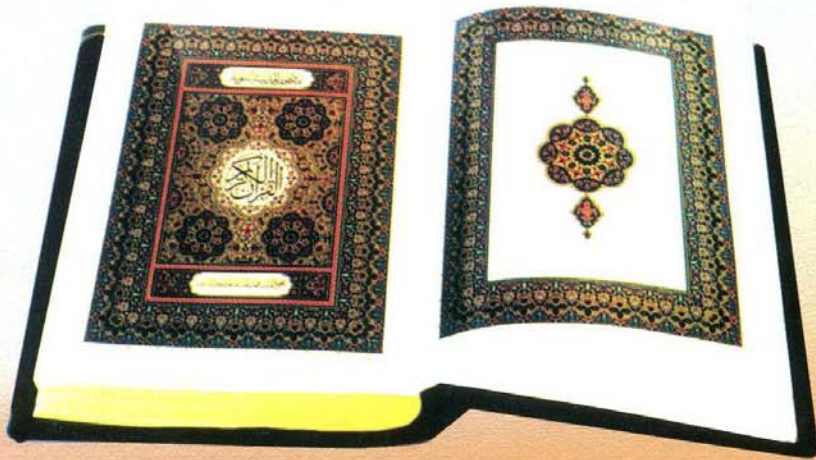


معجم الأمكنة الواردة ذكرها في القرآن الكريم



تأليف

سعد بن عبد الله بن جنيد

2010-12-22
www.tafsir.net
www.almosahm.blogspot.com

معجم الامكنة الواردة ذكرها في القرآن الكريم

تأليف
سعد بن عبد الله بن جنيد

ح) سعد بن عبدالله بن جنيدل ، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن جنيدل ، سعد بن عبدالله

معجم الامكنة الوارد ذكرها في القرآن الكريم . / سعد بن عبدالله

ابن جنيدل . - الرياض ، ١٤٢٣هـ

٤٣٦ ص ؛ ١٧ x ٢٤ سم

ردمك : ٩ - ١٦٤ - ٤٣ - ٩٩٦٠

أ- العنوان

١- القرآن - معاجم

١٤٢٣/٤٧٤٦

ديوي ٢٢١,٣

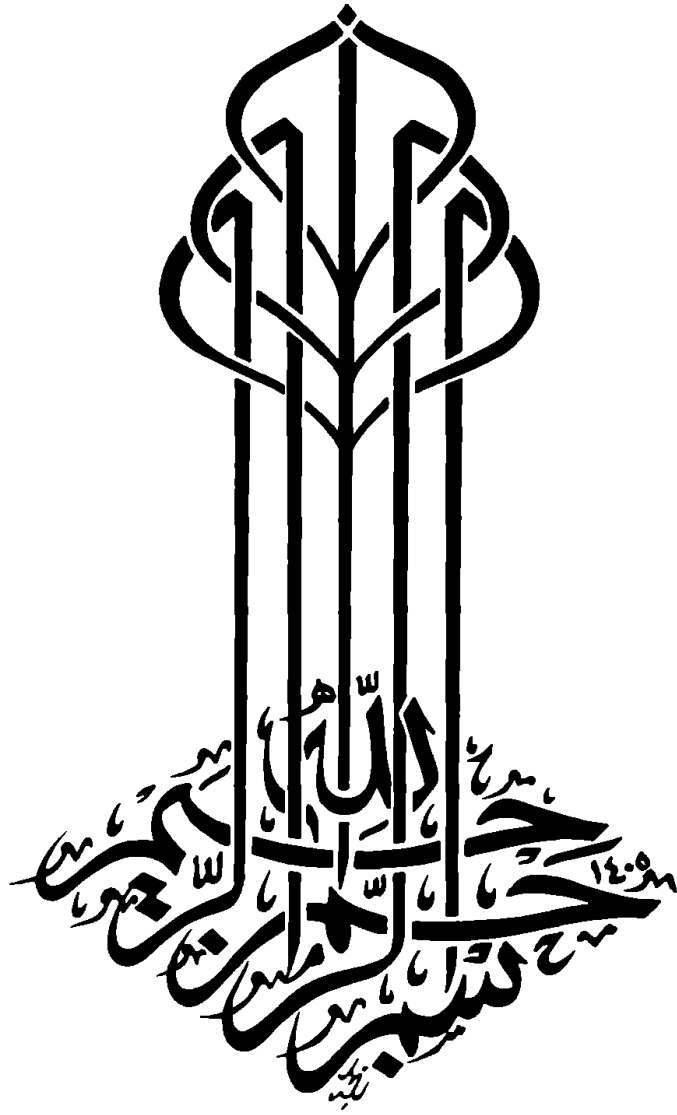
رقم الإيداع : ١٤٢٣/٤٧٤٦

ردمك : ٩ - ١٦٤ - ٤٣ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م





معجم الأماكن الوارد ذكرها في القرآن الكريم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين .
أحمد الله وأستعينه ، وأصلى وأسلم على عبده ورسوله محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

أن هذا الكتاب الذي أقدم له ، وقد منّ الله عليّ بأن هداني
لتأليفه . ووفقني وأمدني بعونه لانجازه ، هو ثمرة جهد متواصل
وحصيلة عدة سنوات قضيتها في البحث والأعداد والتأليف .

ومن أهم الدوافع التي دفعتني إلى تأليف هذا الكتاب :

أولاً : شرف موضوعه ، لا سيما وأنه يمثل جانباً من جوانب تفسير
كتاب الله الكريم- ولا أبالغ- إذا قلت أنني شعرت بلذة
وارتياح في تأليف هذا الكتاب وتمتعت فيه بعون الله وتيسيره ،
رغم ما بذلت فيه من الجهد المتواصل خلال سنوات متتالية ،
وما يعترضني من صعوبات .

ثانياً : أن هذا الكتاب فريد من نوعه لأنه لم يسبق أن ألف له نظير
على غرار ، خاصاً بالأمكنة الواردة في القرآن الكريم ، تحديداً
ووصفاً موجزاً مفيداً لما جرى في هذا الأمكنة من أحداث ، في
داخل الجزيرة وفي خارجها ، حسب علمي .

ثالثاً : منذ سنوات ، في الفترة التي كنت فيها أعمل في (مركز البحث العلمي) التابع لجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية ، في الرياض مرّت علىّ قضايا مختلفة تبين لي من خلالها الحاجة الملحة لتأليف هذا الكتاب ليكون مرجعاً للباحثين ، يجدون فيه ما يحتاجون إليه في هذا الباب سهلاً ميسراً ، يصلون فيه الى أهدافهم دون عناء ، وذلك أن هذا الكتاب قد رتبت أسماء الأمكنة فيه ترتيباً هجائياً على طريقة المعاجم الجغرافية القديمة مثل :

معجم البلدان تأليف ياقوت الحموي ، ومعجم ما استعجم تأليف البكري - رحمهما الله - .

قد اخترت المراجع لهذا البحث من الكتب الموثوقة القديمة والحديثة في مختلف الفنون التي لها صلة بهذا البحث ، من كتب التفسير والحديث والسير والجغرافيا واللغة والأدب والأطالس الجغرافية والخرائط وتحريّت الدقة في اختيار النصوص وتحريّ الشمول فيما أدوّنه من موجز الأحداث التاريخية ، معتمداً على أشهر المصادر الإسلامية ، فجاء الكتاب شاملاً لكل المواضيع مستوفياً بصورة موجزة لأحداثها .

وأسأل الله تعالى أن يمنحني فسحة بالأجل وأن يمدّني بعونه لاتمام ما عزمته عليه ، وأن يجعله جهداً خالصاً لوجهه الكريم ونافعاً موصلاً للغاية المنشودة .

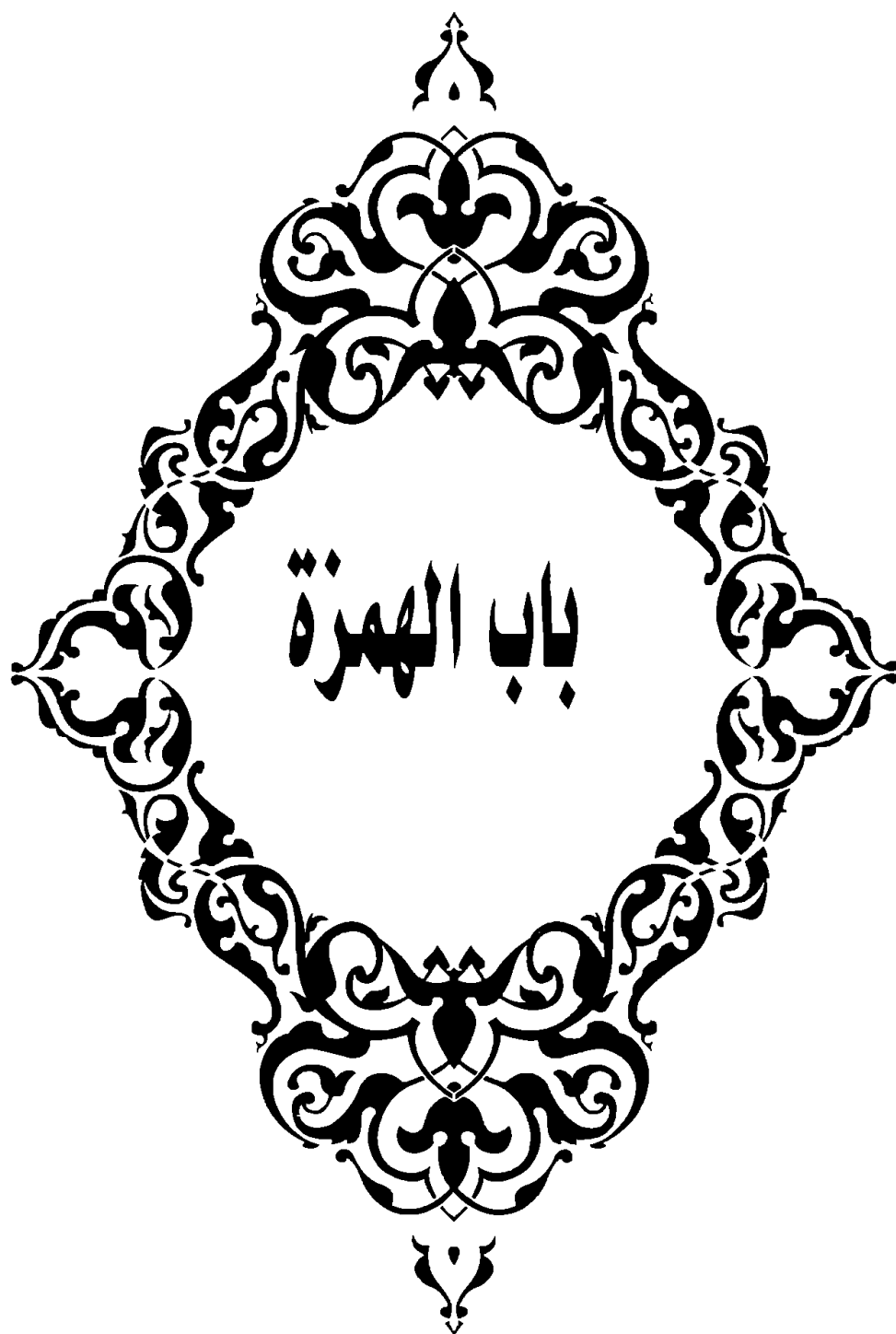
ومع ما أنجزته من هذا المشروع - حسب قدرتي وجهدي الضعيف لم أكن اشعر شعوراً كافياً أنني حققت كل ما أطمح اليه في هذا الباب ، ولا بلغت المرتبة التي كنت أصبوا إليها ، وذلك لما

يعتري حالي من الضعف في مرحلة بلغت فيها من الكبر عتياً ، غير
أنه يؤنسني ويشدّ أزرى تعلّقى بثواب الله ، ورجائي أن يمدني بعونه ،
وأن يكون هذا الكتاب فاتحة خير ودليل رشد إلى التأليف في هذا ،
الموضوع ، من قبل علماء لهم قدرة كافية وباع أطول في هذا الباب في
مستقبل الأمة الإسلامية- ان شاء الله تعالى- وبالله التوفيق وهو
حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

المؤلف

الفقير إلى مولاه العزيز القدير

سعد بن عبد الله بن جنيدل



الأحقاف : أوله همزة مفتوحة بعدها حاء مهملة ساكنة ثم قاف مثناه بعدها ألف ، وآخره فاء موحدة : جمع حقف من الرمل .

ورد في القرآن الكريم : قال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾^(١) .

قال ابن جرير: الأحقاف : جمع حقف وهو من الرمل ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلا ، وإياه عنى الأعشى :

فبات إلى أرطاة حقف تلفه حريق شمال يترك الوجه أقتما
واختلف أهل التأويل في الموضع الذي به هذه الأحقاف فقال بعضهم هي جبل بالشام .

وروى بسنده عن ابن عباس (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف قال الأحقاف جبل بالشام .

وبسنده عن الضحّاك : جبل يسمى الأحقاف ، وقال آخرون : بل هي واد بين عمان ومهرة .

وقال بسنده عن ابن عباس : الأحقاف الذي أنذر هود فيه قومة واد بين عمان ومهرة .

وقال بسنده عن ابن اسحاق : كانت منازل عاد وجماعتهم حيث بعث الله اليهم هودا ، الأحقاف : الرمل فيما بين عمان الى حضرموت فاليمن كله وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها ، وقال آخرون : هي رمال مشرفة على البحر بالشحر .

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢١ .

وقال بسنده عن قتادة : ذكر لنا أن عادا كانوا حيًا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر .

وقال القرطبي : الأحقاف جمع حقف ، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبل ، والجمع حقاف وأحقاف ، وأحقوقف الرمل والهلال أي اعوج .

قال الأعشى : " باب الى أرطات حقف أحقف " .

أي رمل مستطيل مشرف ، وقال عن قتادة هي جبال مشرفة بالشحر والشحر قريب من عدن ، يقال : شحر عمان وشحر عمان ، وهو ساحل البحر بين عمان وعدن .

وقال عن ابن عباس : هي واد بين عمان ومهرة ، وعن مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت ، واد يقال له مهرة ، واليه تنسب الأبل المهرية ، فيقال أبل مهريّة ومهاري وكانوا من قبيلة ارم .

وقال ياقوت : الأحقاف : جمع حقف من الرمل ، والعرب تسمي الرمل المعوج حقافا وأحقافا ، وأحقوقف الهلال والرمل إذا أعوج ، فهذا هو الظاهر في لغتهم ، وقد تعسف غيره ، والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز : واد بين عمان وأرض مهرة ، عن ابن عباس ، قال ابن اسحاق : الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت ، وقال قتادة : الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن ، وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى .

وقال الضحّاك : الأحقاف جبل بالشام ، وفي كتاب العين : الأحقاف جبل محيط بالدنيا ، من زبرجدة خضراء تلهب يوم القيامة ، فيحشر الناس عليه من كل أفق ، وهذا وصف جبل قاف .

والصحيح ما روينا عن ابن عباس وابن اسحاق وقتادة : أنها رمال بأرض اليمن ، كانت عاد تنزلها .

قلت : وهذا التحديد لمنازل عاد التي أُنذِرهم فيها النبي هود عليه السلام ينطبق على الرمال الكثيفة التي تغطي بلادا واسعة من جنوب شرق جزيرة العرب ، وتسمى في هذا العهد (الربع الخالي) وقد قص الله في كتابه العزيز خبر ما وقع عليهم من العذاب ، قال تعالى في وصف العذاب الذي حلّ بهم (فلمّا رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كلّ شيء بأمر ربّها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

وقد تحدثت عن شيء من أخبارهم في رسم (ارم ذات العماد) في هذا الكتاب :

وقال البغوى : الأحقاف : جمع حقف ، وهي المستطيل المعوج من الرمال .

قال ابن زيد : هي ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون ، جبلا ، قال الكسائي : هي ما استدار من الرمل .

وقال عن مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له : (مهرة) واليها تنسب الابل المهرية ، وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع فاذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا من قبيلة ارم .

وعن قتادة : ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن وكانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : (الشحر) .

الأخدود : أوله همزة مضمومة بعدها خاء معجمة ساكنة ثم
دال مهملة مضمومة بعدها واو ساكنة وآخره دال
مهملة : كان في قرية من قرى نجران .

قال الله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ .^(١)

قال القرطبي : الأخدود : الشق العظيم المستطيل في الأرض
كالخندق ، وجمعه أخاديد .

وقال البكري : الأخدود : الذي ذكر الله تعالى ، كان في قرية
من قرى نجران وهي اليوم خراب ليس فيها الا المسجد الذي أمر عمر
بن الخطاب ببنائه .

وقال ابن جرير الطبري : عن ابن عباس : (قتل أصحاب
الأخدود) قال هم : ناس من بني إسرائيل خدّوا في الأرض ثم أوقدوا
فيه نارا أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء ، فعرضوا عليها .
وزعموا أنه دانيال وأصحابه .

وقال بسنده عن مجاهد ، قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾
قال : كان شقوق في الأرض بنجران ، كانوا يعذبون فيها الناس .

وقال بسنده عن الربيع بن أنس قال : كان أصحاب الأخدود
قوما مؤمنين ، اعتزلوا الناس في الفترة وإن جباراً من عبدة الأوثان
أرسل اليهم ، فعرض عليهم الدخول في دينه ، فأبوا ، فخذ الأخدودا
وأوقد فيه نارا ، ثم خيرهم بين الدخول في دينه ، وبين القائهم في النار

(١) سورة البروج الآية : ٤ .

فاختاروا القاءهم في النار على الرجوع عن دينهم ، فألقوا في النار ، فنجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار من الحريق ، بأن قبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار ، وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقهم فذلك قول الله ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْحَرِيقُ ﴾ في الدنيا .

وقال القرطبي : عن الضحّاك هم قوم من النصاري كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة أخذهم يوسف بن شراحيل بن تبّع الحميري وكانوا نيفا وثمانين رجلا وحضر لهم أخدودا وأحرقهم فيه ، حكاه الماوردي .

وحكى الثعلبي عنه أن أصحاب الأخدود من بنى إسرائيل أخذوا رجالاً ونساء فخذّوا لهم الأخاديد ثم أوقدوا فيها النار ، ثم أقيم المؤمنون عليها وقيل لهم : تكفرون أو تقذفون في النار .

ويزعمون أنه دانيال وأصحابه ، وقاله عطية العوفى وروى نحو هذا عن ابن عباس .

قال القرطبي : كان أصل النصرانية بنجران فسار اليهم ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل فأختاروا القتل فخذّ لهم الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف ، ومثّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفا ، وقال وهب بن منبه : اثني عشر ألفا .

قال ابن اسحاق : وذو نواس اسمة زرعة بن تبان أسعد الحميري ، وكان أيضا يسمى يوسف ، وكان له غدائر من شعر تنوس ، أي تضطرب ، فسمى ذا نواس ، وكان فعل هذا بأهل نجران

□ باب الهمزة □

فأفلت منهم رجل اسمه ذو ثعلبان فساق الحبشة لينصر بهم فملكوا
اليمن وهلك ذو نواس في البحر ألقى نفسه فيه ، وفيه يقول عمرو
بن معدى كرب :

أتوعدنى كأنك ذورعين	بأنعم عيشة أو ذو نواس
وكائن كان قبلك من نعيم	وملك ثابت في الناس داس
قد يم عهده من عهد عاد	عظيم قاهر الجبروت قاس
أزال الدهر ملكهم فأضحى	ينقل من أناس في أناس

قلت : هذا خلاصة مما ذكره المفسرون في الحديث عن الأخدود
وقد تحدثت عن أخباره في رسم (نجران) ، في (معجم الأمكنة الواردة
في كتب السنة) فأنظره .

وقد اتفقت الأقوال على أن الأخدود الذي ورد ذكره في الآية
الكريمة كان في نجران ، وهناك في مدينة نجران ناحية تسمى (مدينة
الأخدود) باقية آثار مساكنها وبقايا من أسس بيوتها مبنية بالحجارة
الضخمة وقد أقامت عليها إدارة الآثار والمتاحف لحماية للمحافظة على
ما بقي من معالمها ويرى الكثيرون من سكان منطقة نجران ومن
الباحثين أن هذه الآثار هي آثار البلدة التي وقعت فيها حادثة الأخدود .

أدنى الأرض: المقصود به أقرب الأرض إلى أرض العرب ، قيل: هي أرض
الجزيرة وقيل : الأردن ، وقيل : فلسطين، وهذه المواضع
هي أقرب إلى بلاد العرب من غيرها .

قال الله تعالى : ﴿ ١ ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۚ ۞ ٢ ۞ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ
وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۚ ۞ ٣ ۞ ﴾ ^(١)

(١) سورة الروم الآية رقم : ١ - ٣ .

قال الشوكاني : ومعنى ﴿ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ في أقرب أرضهم من أرض العرب ، أو في أقرب العرب منهم ، قيل : هي أرض الجزيرة ، وقيل : أذرعات وقيل : كسكر ، وقيل : الأردن ، وقيل : فلسطين ، وهذه المواضع هي أقرب إلى بلاد العرب من غيرها ، وإنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهود في ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب وقيل أن الالف واللام عوض عن المضاف إليه ، والتقدير : في أدنى أرضهم فيعود الضمير إلى الروم ويكون المعنى : في أقرب أرض الروم من العرب . قال ابن عطية : أن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وأن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وأن كانت بالأردن فهي إلى أرض الروم .

وقال ابن كثير : نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاص بلاد الروم .

وروى الامام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴾ ﴿ فِى اَدْنَى الْاَرْضِ ﴾ قال غلبت وغلبت ، قال ، كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل الكتاب : فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ (أما أنهم سيغلبون) فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وان ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال (ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر -) قال سعيد بن جبیر : البضع ما دون العشر ، ثم ظهرت الروم بعد قال : فذلك قوله ﴿ اَلَمْ غَلِبَتِ

الرُّومُ ﴿١٧﴾ فَيَ أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ - إلى قوله - وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

وقال ابن جرير : ﴿ فَيَ أَذْنَى الْأَرْضِ ﴾ من أرض الشام أرض فارس ، ﴿ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ فيقول : والروم - من بعد غلبة فارس أيهم ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ فارس ﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ﴾ غلبتهم فارس ﴿ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ غلبتهم أيها ، يقضى في خلقه ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ويظهر من شاء منهم على من أحب اظهار عليه ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ يقول : ويوم يغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بالله ورسوله بنصر الله أيهم على المشركين ، ونصرة الروم على فارس ﴿ يَنْصُرُ ﴾ الله تعالى ذكره ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ من خلقه ، على من يشاء وهو نصره المؤمنين على المشركين ببدر ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ يقول : والله الشديد في انتقامه من أعدائه ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا يحول بينه وبينه حائل ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بمن تاب من خلقه ، وراجع طاعته أن يعذبه .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَيَ أَذْنَى الْأَرْضِ ﴾ يعني أرض الشام ، عكرمة : بأذرعات ، وهي ما بين بلاد العرب والشام : أن قيصر كان بعث رجلاً يدعى يحنس وبعث كسرى شهر بزان فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم . مجاهد : بالجزيرة ، وهو موضع بين العراق والشام ، مقاتل : بالأردن وفلسطين . و ﴿ أَذْنَى ﴾ معناه أقرب . قال ابن عطية : فان كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهي التي ذكرها عمرو القيس في قوله :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

وأن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وأن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم . فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سر الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم في الحرب .

قلت : فيما تقدم نرى أن علماء التفسير إتفقت أقوالهم في تفسير هذه الآية الكريمة وتحديد مكان أدنى الأرض الذي ورد ذكره في هذه الآية الكريمة .

الأرض : بهمرة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وضاد معجمة ، المراد به : أرض مصر . قال الله تعالى في خبر أخوة يوسف : ﴿ فَلَنْ أْبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾^(١) .

قال ابن جرير : قوله ﴿ فَلَنْ أْبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ ، التي أنا بها وهي أرض مصر ، فأفارقها ، ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ بالخروج منها .

وقال ابن كثير : ﴿ فَلَنْ أْبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ لن أفارق هذه البلدة ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ قيل : بالسيف ، وقيل : بأن يمكنني من أخي .

وقال القرطبي ، قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قتادة : هو روبين هو أكبرهم في السن ، وقال مجاهد : هو شمعون كان

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٨٠ .

أكبرهم في الرأي . وقال الكلبي : يهوذا وكان أعقلهم . وقال محمد بن كعب وابن اسحاق : هو لاوى وهو أبو الأنبياء . ﴿ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أي الزمها ، ولا أبرح مقيما فيها .

وقال الشوكاني : ﴿ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ ، يقال برح براحا وبروحا : أي زال ، فاذا دخله النفي صار مثبتا : أي لن أبرح من الأرض ، بل لزمها ولا أزال مقيما فيها ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي ﴾ في مفارقتها والخروج منها ، وانما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي اليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الميثاق بارجاعه اليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بمفارقتها والخروج منها ، وقيل : المعنى : أو يحكم الله لى بخلاص أي من الأسر حتى يعود الى أبي وأعود معه ، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ ﴾ لأن أحكامه لا تجرى الا على ما يوافق الحق .

قلت : بهذا يتبين أن الأرض التي ورد ذكرها في هذه الآية هي أرض مصر ولم يختلف في ذلك المفسرون .

الأرض : كالذي قبله : المقصود به أرض مصر ، وقيل : أرض مصر والشام .

قال الله تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ ١٣ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿ ١٤ ﴾ .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وبني اسرائيل من أرض مصر بالقتل أو

الابعاد ، فأهلكه الله عز وجل . ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد اغراقه ﴿ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أي أرض الشام ومصر ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ . أي القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعاً من جهات شتى . والمعنى واحد قال الجوهري : واللصيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى .

وقال ابن كثير : وقوله ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ، ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع فان أهل مكة هموا باخراج الرسول منها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ الأيتين ، ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرما ، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني اسرائيل مشارق الأرض ومغاريها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم ، كما قال كذلك وأورثناها بني اسرائيل ، وقال ههنا ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : لفيفا أي جميعاً .

وقال ابن جرير : يقول تعالى فأراد فرعون أن يستفز موسى وبني اسرائيل من الأرض ، ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ ﴿ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ ،

من جنده ﴿ جَمِيعًا ﴾ ، ونجيننا موسى وبني اسرائيل ، وقلنا لهم ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ هلاك فرعون ﴿ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أرض الشام ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ يقول : فاذا جاءت الساعة ، وهي وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا . يقول : حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفا : أي مختلطين قد التفت بعضهم على بعض . تتعارفون ، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج بني اسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض ، يعنى أرض مصر بابعادهم عنها ، وقيل أراد أن يقتلهم وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ، ولم يبق منهم أحد ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أي من بعد اغراقه ومن معه ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر التي أراد أن يستفزهم منها ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي الدار الآخرة وهو القيامة ، أو الكرة الآخرة ، أو الساعة الآخرة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ قال الجوهري : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى .

قلت : فيما تقدم اتفق علماء التفسير على تعريف الأرض التي ذكرت في الآيتين الكريمتين وقالوا : أن المقصود بها أرض مصر والشام ، غير أن بعضهم ذكر مصر ولم يذكر الشام وبعضهم ذكر الشام ولم يذكر مصر ، وذكر القرطبي البلدين ، وقول من قال مصر والشام أعم وأشمل لأن بني اسرائيل بعد هلاك فرعون سكنوا مصر والشام .

أرضاً لم تطئوها : قيل : هي الروم ، وقيل : فارس ، وقيل : البلاد التي فتحها الله بعد ذلك على المسلمين .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْئُوهَا ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل فيها أي أرض هي ؟ فقال بعضهم : هي الروم وفارس ونحوها من البلاد التي فتحها الله بعد ذلك على المسلمين .

وروى بسنده عن قتادة قال : قال الحسن : هي الروم وفارس ، وما فتح الله عليهم ، وقال آخرون : هي مكة . وقال آخرون : بل هي خيبر .

وروى بسنده عن يزيد بن رومان قال : خيبر .

وروى بسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَرَهُمْ ﴾ قال : قريظة والنضير أهل الكتاب ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْئُوهَا ﴾ قال : خيبر .

قال والصواب من القول في ذلك أن يقال : أن الله تعالى ذكره أخبر أنه أورث المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم يطئوها يؤمنذ ولم تكن مكة ولا خيبر ولا أرض فارس والروم ولا اليمن ، مما كان وطئوه يؤمنذ ، ثم وطئوا ذلك بعد ، وأورثهموه الله ، وذلك كله داخل في قوله لأنه تعالى ذكره لم يخصص من ذلك بعضاً دون بعض . يقول تعالى ذكره : وكان الله على أن أورث المؤمنين ذلك ، وعلى نصره إياهم ، وغير

(١) سورة الأحزاب الآية رقم : ٢٧ .

ذلك من الأمور ذا قدرة ، لا يتعذر عليه شيء أرادته ، ولا يمتنع عليه فعل شيء حاول فعله .

وقال ابن كثير : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْئُوهَا ﴾ قيل : مكة ، رواه مالك عن زيد بن أسلم ، وقيل : فارس والروم .

وقال الشوكاني : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْئُوهَا ﴾ أي وأورثكم أرضا لم تطئوها .

واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة فقال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل : أنها خيبر ولم يكونوا اذ ذاك قد نالوها ، فوعدهم الله بها . وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة . وقال الحسن : فارس والروم . وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة .

وقال القرطبي : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْئُوهَا ﴾ بعد . قال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل : يعنى حنين ، ولم يكونوا نالوها ، فوعدهم الله اياها . وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة . وقال الحسن : هي فارس والروم . وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة .

قلت : مما تقدم من أقوال المفسرين يتبين أن هذه الأرض التي ذكرها الله في هذه الآية الكريمة لم يكن لها تحديد خاص بها ، غير أنهم رجحوا أن يكون المقصود بها خيبر ، أو أي أرض يفتحها المسلمون فيما بعد ذلك .

أرض التيه : بهمزة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وضاد معجمه ، والتيه بتاء مثناة مكسورة وياء مثناة ساكنة وآخره هاء : تقع هذه الأرض في شبه جزيرة سيناء .

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ^١ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ^٢ ﴾ .

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في الناصب لـ ﴿ أَرْبَعِينَ ﴾ . قال بعضهم : الناصب له قوله : ﴿ مُحَرَّمَةٌ ﴾ ، وإنما حرم الله جل وعز على القوم الذين عصوه وخالفوا أمره من قوم موسى وأبوا حرب الجبارين ، دخول مدينتهم أربعين سنة ، ثم فتحها عليهم وأسكنهموها ، وأهلك الجبارين بعد حرب منهم لهم ، بعد أن انقضت الأربعون سنة وخرجوا من التيه .

وقال آخرون : بل الناصب لـ ﴿ أَرْبَعِينَ ﴾ ، ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . قالوا : ومعنى الكلام : قال فانها محرمة عليهم أبدا ، يتيهون في الأرض أربعين سنة . قالوا : ولم يدخل مدينة الجبارين أحد ممن قال : ﴿ إِنَّا لَنَنذِرُهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرِثُكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، وذلك أن الله عز ذكره حرّمها عليهم ، قالوا : وإنما دخلها من أولئك القوم يوشع وكلاب ، اللذان قالوا لهم : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ ، وأولاد الذين حرم الله عليهم دخولها فتيههم الله فلم يدخلها منهم أحد .

ومعنى : ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يحارون فيها ويضلون ، ولذلك قيل للرجل الضال عن سبيل الحق : (تائه) وكان تيههم ذلك : أنهم كانوا يصبحون أربعين سنة كل يوم جادين في قدر ستة فراسخ للخروج منه ، فيمسون في الموضع الذي ابتدأوا السير منه .

(١) سورة المائدة الآية رقم : ٢٦ .

وبسندده عن مجاهد : قال : تاهت بنوا اسرائيل أربعين سنة ،
يصبحون حيث أمسوا ، ويمسون حيث أصبحوا في تيههم .

قال ابن كثير : والمقصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل
من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوما من الجبارين ،
من الحيثانيين والفضاريين والكنعانيين وغيرهم .

فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ،
واجلائهم اياهم عن بيت المقدس ، فان الله كتبه لهم ، ووعدهم اياه
على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل فأبوا ونكلوا عن
الجهاد ، فسلط الله عليهم الخوف . وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون
ويرتحلون ويذهبون ويجيئون . في مدة من السنين طويلة هي من
العدد أربعون .

وقال ياقوت : التيه هو الموضع الذي ظل فيه موسى بن عمران ،
عليه السلام ، وقومة وهي أرض أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراه
من أرض الشام ، ويقال انها أربعون فرسخا في مثلها ، وقيل : اثني
عشر فرسخا في ثمانية فراسخ ، وياه أراد المتنبي بقوله :

ضربت التيه ضرب القما ، أما لهذا وأما لهذا

والغالب على أرض التيه الرمال ، وفيها مواضع صلبة ، وبها نخيل
وعيون مفترشة قليلة ، يتصل حد من حدودها بالجفار وحد بجبل طور
سيناء وحد بأرض بيت المقدس وما اتصل به من فلسطين وحد ينتهي
إلى مفازة في ظهري ريف مصر الى حد القلزم ، ويقال ان بنى اسرائيل
دخلوا التيه وليس منهم أحد فوق الستين الى دون العشرين سنة فماتوا
كلهم في أربعين سنة ، ولم يخرج منه ممن دخله مع موسى بن عمران
عليه السلام ، الا يوشع بن نون وكالب بن يوفن ، وانما خرج عقبهم .

وفي القاموس الإسلامي: التيه اسم تاريخي يطلق على الصحراء الجرداء التي توسط شبة جزيرة سيناء ، وتمتد بين شرق دلتا النيل إلى جنوب فلسطين ، وتمتد شمالا من الساحل الرملي المنبسط المطل على البحر الأبيض إلى جبال سيناء الوسطى كما يطلق على هذه الصحراء اسم (فحص التيه) أو (صحراء بنى اسرائيل) أي الصحراء التي تاه فيها بنو اسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وكانت القوافل العسكرية وقوافل الحجاج تخترق هذه الصحراء من مصر إلى الكرك والعقبة وأيلة بالاضافة إلى الطريق الساحلي الذي كان يمر بالفرمات ، وهو الطريق الذي سلكه عمرو بن العاص في فتح مصر .

وقال ابن الأثير : ان الله تعالى أمر موسى ، عليه السلام ، أن يسير ببني اسرائيل إلى أريحا بلد الجبارين ، وهي أرض بيت المقدس ، فساروا حتى كانوا قريبا منهم ، فبعث موسى اثني عشر نقيبا من سائر أسباط بني إسرائيل ، فساروا ليأتوا بخبر الجبارين ، فلقبهم رجل من الجبارين يقال له عوج بن عنق فأخذ الاثنى عشر فحملهم وانطلق بهم إلى امرأته فقال : انظري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا ، وأراد أن يطأهم برجله ، فمنعته امرأته فقالت : أطلقهم ليرجعوا فيخبروا قومهم بما رأوا ، ففعل ذلك ، فلما خرجوا قال بعضهم لبعض : انكم أن أخبرتم بني اسرائيل بخبر هؤلاء لا يقدموا عليهم ، فأكتموا الأمر عنهم ، وتعاهدوا على ذلك ورجعوا ، فنكت عشرة منهم العهد وأخبروا بما رأوا ، وكنتم رجلا من منهم ، وهما : يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ختن موسى ، ولم يخبروا الا موسى وهارون ، فلما سمع بنو اسرائيل الخبر عن الجبارين امتنعوا عن السير اليهم ، فقال لهم موسى : ﴿ يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ . قالوا :

ياموسى أن فيها قوما جبارين وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجون منها فانا داخلون . قال رجلان- وهما يوشع وكالب- من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكُمُ غَلِبُونَ ﴾ ، ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

فغضب موسى فدعا عليهم فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ . وكانت عجلة من موسى فقال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

فندم موسى حينئذ فقالوا له : فكيف لنا بالطعام ؟ فأنزل الله المن والسلوى فأما المن فقليل هو كالصمغ كالشهد ويقع على الأشجار ، وقيل هو الترنجيين ، وقيل : هو الخبز الرقاق ، وقيل : هو عسل كان ينزل لكل انسان صاع .

وأما السلوى فهو طائر يشبه السمانى فقالوا : أين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ﴿ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ . لكل سبط عين . فقالوا : أين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام . فقالوا : أين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم ولا يتمزق لهم ثوب . ثم قالوا : ﴿ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ .

(١) سورة المائدة من الآية ٢١ إلى ٢٦ .

فلما خرجوا من التيه رفع عنهم المن والسلوى .
ثم أن موسى التقى هو وعوج بن عنق فوثب موسى عشرة أذرع ،
وكانت عصاه عشر أذرع وكان طوله عشرة أذرع فأصاب كعب عوج
فقتله . وقيل عاش عوج ثلاثة آلاف سنة .

الأرض المباركة : أوله همزة مفتوحة بعدها راء مهملة ساكنة وآخره
ضاد يقصد به في أشهر الأقوال : بلاد الشام .

قال الله تعالى مخبرا عن خليفة إبراهيم : ﴿ وَجَبَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى
الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

قال ابن كثير : لما هجر قومة في الله ، وهاجر من بين أظهرهم ،
وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، بل معه ابن
أخيه لوط بن هاران بن آزر ، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين ،
وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل
كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء بعده ، فعلى أحد نسله
وعقبة ، خلعة من الله وكرامة له ، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه ، وهاجر
إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه .

والأرض التي قصدتها بالهجرة أرض الشام ، وهي التي قال الله عز
وجل : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، قاله أبي بن
كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم .

وروى العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا
فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ مكة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ
لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ وزعم كعب الأحبار
أنها (حران) .

(١) سورة الأنبياء الآية ٧١ .

ونقل عن أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط ، وأخوه ناحور ، وأمراة إبراهيم سارة ، وامراة أخيه (ملكا) فنزلوا حران فمات (تارخ) أبو إبراهيم بها .

وقال ابن جرير : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى ذكره : ونجينا ابراهيم ولوطا من أعدائهما ، نمرود وقومه من أرض العراق ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ وهي أرض الشام ، فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشام .

وقد اختلف أهل التأويل في الأرض التي ذكر الله أنه نجى إبراهيم ولوطا اليها ، ووصفه أنه بارك فيها للعالمين .

وروى بسنده عن أبي بن كعب ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ قال : الشام ، وما من ماء عذب إلا خرج من تلك الصخرة التي ببيت المقدس .

وروى بسنده عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : الشام .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ كانا بأرض العراق ، فأنجيا إلى أرض الشام ، وكان يقال للشام عماد دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها مجمع الناس ، وبها ينزل عيسى بن مريم ، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال .

وروى بسنده ، عن ابن اسحاق ، قال : خرج إبراهيم مهاجرا إلى أرض ربه ، وخرج معه لوط مهاجرا ، وتزوج ساره ابنة عمه ، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه ، والأمان على عبادة ربه ، حتى نزل حران ، فمكث فيها ما شاء الله أن يمكث ، ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ، ثم خرج من مصر إلى الشام ، فنزل السبع من أرض فلسطين ، وهي بركة الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة ، وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة ، أو أقرب من ذلك ، فبعثه الله نبيا ﷺ .

وروى بسنده عن ابن جريح وابن زيد قولهما : نجاه من أرض العراق إلى أرض الشام .

وقال : لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام ، فيها كان مقامة أيام حياته ، وأن كان قد قدم مكة وبنى بها البيت وأسكنها أسماعيل ابنه مع أمة هاجر ، غير أنه لم يقيم بها ، ولم يتخذها وطنًا لنفسه ، ولا لوط ، والله انما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين .

وقال ابن الأثير : أن إبراهيم والذين اتبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم فخرج مهاجرا حتى قدم مصر وبها فرعون من الضراعة الأولى ، وكان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عولج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وقيل : كان أخا الضحاك استعمله على مصر : وكانت سارة من أحسن النساء وجها ، وكانت لا تعصى إبراهيم شيئا ، فلما وصفت لفرعون أرسل إلى إبراهيم فقال : من هذه التي معك ؟ قال : أختي ، يعني في الاسلام وتخوف أن قال امرأتي أن يقتله . فقال له : زينها وأرسلها إلى ، فأمر بذلك إبراهيم ، فتزينت وأرسلها إليه ، فلما دخلت عليه أهوى بيده إليها ، وكان إبراهيم حين أرسلها قام يصلي ، فلما أهوى إليها أخذ أخذًا شديدا ، فقال : ادعى الله ولا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، فأهوى إليها ، فأخذ أخذًا شديدا ، فقال : ادعى الله ولا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، ثم فعل ذلك الثالثة ، فذكر مثل المرتين ، فدعا أدنى حجابة

فقال : انك لم تأتني بانسان وانك أتيتني بشيطان ! أخرجها وأعطها هاجر ، ففعل ، فأقبلت بهاجر ، فلما أحس إبراهيم بها انفتل من صلاته فقال : مهيم ! فقالت : كفى الله كيد الكافرين وأخدم هاجر .

وكان أبو هريرة يقول : تلك أمكم يابنى ماء السماء . وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث مرات ، اثنتين في ذات الله ، قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ . وقوله في سارة : (هي أختي) .

قلت : وأكتفى بهذا القدر مما ذكره العلماء عن خبر هجرة إبراهيم من العراق إلى بلاد الشام .

وقال البغوي : قوله عز وجل : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، يعنى الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار ، ومنها بعث أكثر الأنبياء . وقال أبي بن كعب : سماها مباركة لأنه ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التي هي بيت المقدس .

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي ، أخبرنا أبو الحسين بن بشران ، أخبرنا اسماعيل بن محمد الصفار ، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، أن عمر بن الخطاب قال لكعب : ألا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله ﷺ وقبرة ، فقال لكعب : انى وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين أن الشام كنز الله من أرضه ، وبها كنزه من عبادة .

الأرض المقدسة : بهمزة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وآخره ضاد معجمة : المقدسة : صفة للأرض وصفت بها تمييزا لها . وأختلف في تحديدها فقيل : الطور ، وقيل : أريحاء ، وقيل : الشام ، وقيل : فلسطين ودمشق وما حولها .

قال الله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ يَخْلُقْ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾^(١) .

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أرسل ملك الموت الى موسى عليهما السلام فلما جاءه صكه فرجع الى ربه فقال أرسلتني الى عبد لا يريد الموت قال أرجع اليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال أي رب ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن قال فسأل الله أن يدني من الأرض المقدسة رمية حجر .

قال ابن حجر : المطلوب القرب من الأنبياء الذين دفنوا ببيت المقدس ، وهو الذي رجحه عياض . هذا ما أراده موسى عليه السلام حين طلب ربه أن يدني من الأرض المقدسة رمية حجر .

وقال ابن كثير : الأرض المقدسة : أي المطهره ، وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ قال : هي الطور وما حوله ، كذا قال مجاهد وغير واحد .

وروى سفيان الثوري عن أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال : هي أريحاء ، وكذا ذكره عن غير واحد من المفسرين ، وفي هذا نظر لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس وقد قدموا من بلاد مصر ، حين أهلك الله عدوهم فرعون ، اللهم الا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس ، كما قال السدي فيما رواه ابن جرير عنه ، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطور شرقي بيت المقدس .

قال ابن جرير : في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْأَرْضُ الْمَقْدَسَةُ ﴾ هذا خبر من الله عز ذكره عن قول موسى عليه السلام لقومه بني اسرائيل ، وأمره اياهم عن أمر الله اياه بأمرهم بدخول الأرض المقدسة .

ثم اختلف أهل التأويل في الأرض التي عنها ب ﴿ الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةِ ﴾ . قال بعضهم : عنى بذلك الطور وما حوله وهو رواية بسنده عن مجاهد .

وروى بسنده عن ابن عباس : ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ ﴾ قال : الطور وما حوله .

وقال آخرون : هو الشام روى ذلك بسنده عن قتادة .

وقال آخرون : هي أرض أريحاء .

وروى بسنده عن ابن زيد في قوله : ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ قال : أريحاء .

وروى بسنده عن السدي قال : هي أريحاء .

وروى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال : هي أريحاء .

وقيل : أن ﴿ الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ ﴾ دمشق وفلسطين وبعض الأردن .

وعنى بقوله : ﴿ الْمَقْدَسَةَ ﴾ ، المطهرة المباركة .

وروى بسنده عن مجاهد : ﴿ الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ ﴾ قال المباركة .

وقال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : هي الأرض

المقدسة كما قال نبي الله موسى ﷺ لأن القول في ذلك بأنها أرض دون أرض لا تدرك حقيقة صحته الا بالخبر ولا خبر بذلك يجوز قطع الشهادة به .

غير أنها لن تخرج من أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر لا جماع جميع أهل التأويل والسير والعلماء بالأخبار على ذلك .

وقال القرطبي : ﴿ الْمُقَدَّسَة ﴾ معناه المطهرة . مجاهد :
المباركة والبركة التطهير من القحوط والجوع وغيره .

قتادة : هي الشام . مجاهد : الطور وما حوله . ابن عباس
والسدي وابن زيد : هي أريحاء .

الزجاج : دمشق وفلسطين وبعض الأردن .

وقول قتادة يجمع هذا كله .

قال ياقوت : ﴿ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَة ﴾ : هي المباركة المنزهة ، قيل :

هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن وبيت المقدس منه .

قلت : هذا ما قاله المفسرون في تحديد الأرض المقدسة على

اختلاف بينهم ، وقد رجح القرطبي ما قاله قتادة : هي أرض الشام ، لا
شمالها على ما قاله غيره ولا سيما بيت المقدس .

وقال البغوي : اختلفوا في الأرض المقدسة ، قال مجاهد : هي

الطور وما حوله وقال الضحاك : ايليا وبيت المقدس ، وقال عكرمة

والسدي : هي أريحاء ، وقال الكلبي : هي دمشق وفلسطين وبعض

الأردن ، وقال قتادة : هي الشام كلها ، قال كعب : وجدت في كتاب

الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه (وبها أكثر) عبادة .

أرض فرعون وقومة : المقصود بهذه الأرض مصر .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿ ٣٥ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : يريد أن يخرج بنى اسرائيل من أرضكم إلى الشام بقهره اياكم بالسحر . وانما قال : يريد أن يخرجكم فجعل الخطاب للملأ حوله من القبط ، والمعنى به بنو اسرائيل ، لأن القبط كانوا قد استعبدوا بنى اسرائيل ، واتخذوهم خد ما لأنفسهم ومهانا ، فلذلك قال لهم ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ ﴾ وهو يريد أن يخرج خدمكم وعبيدكم من أرض مصر إلى الشام .

وانما قلت معنى ذلك كذلك ، لأن الله انما أرسل موسى إلى فرعون يأمره بارسال بنى اسرائيل معه ، فقال له ولأخيه ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أن أرسل معنا بنى اسرائيل .

قال ابن كثير : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ الآية ، أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿ أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتكم كل سحار عليم يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت ، وتكون لك النصره والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

قلت : يتضح من سياق الآيات ، ومن أقوال المفسرين أن المقصود بهذه الأرض التي أضيفت إلى ملأ فرعون هي أرض مصر التي كان يسكنها هو وقومه .

إرم ذات العماد : أوله همزة مكسورة بعدها راء مهملة مفتوحة بعدها ميم ، والعماد بكسر العين المهملة : مدينة شداد بن عاد في اليمن على قول بعض العلماء .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ ﴾^(١) .

قال البخاري : قال مجاهد : أرم ذات العماد القديمة والعماد أهل عمود لا يقيمون .

قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل في تأويل قوله ﴿ إِرَمَ ﴾ فقال بعضهم : هي اسم بلدة ، ثم اختلف الذين قالوا ذلك في البلدة التي عنيت بذلك ، فقال بعضهم : عنيت الأسكندرية .

وروى بسنده عن القرظي أنه يقول : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ الاسكندرية . قال : وقال آخرون : هي دمشق .

وروى بسنده عن مجاهد ، قوله ﴿ إِرَمَ ﴾ قال : القديمة .

وقال آخرون : تلك قبيلة من عاد .

وقال آخرون : أرم الهالك .

قال : والصواب من القول في ذلك أن يقال : أن أرم اما بلدة كانت عاد تسكنها ، فلذلك ردت على عاد لالتباع لها ، واما اسم قبيلة .

وأما ما ذكر عن مجاهد ، أنه قال : عنى بذلك القديمة ، فقول لا معنى له .

وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندي : أنها اسم قبيلة من عاد ، ولذلك جاءت القراءة بترك اضافة عاد اليها ، وترك اجرائها .

وقوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى قوله ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ في هذا الموضع ، فقال بعضهم : معناه : ذات الطول ، وذهبوا في ذلك إلى قول العرب للرجل الطويل : رجل معمد ، وقالوا : كانوا طوال الأجسام .

وقال بعضهم : بل قيل لهم ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لأنهم كانوا أهل عمد ، ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلا حيث كان ، ثم يرجعون إلى منازلهم .

وقال آخرون : بل قيل ذلك لهم لبناء بناه بعضهم فشيده عمده ورفع بناءه .

وأشبه الأقوال في ذلك بما دل عليه ظاهر التنزيل ، قول من قال : عنى بذلك أنهم كانوا أهل عمود سيارة ، لأن المعروف في كلام العرب من العماد ما عمد به الخيام من الخشب ، والسوارى التي يحمل عليها البناء ، ولا يعلم بناء كان لهم بالعماد بخبر صحيح .

وقال ابن كثير في تفسير : قوله تعالى : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم .

قال مجاهد : أرم أمة قديمة يعنى عادا الأولى ، قال قتادة بن دعامة السدّي : أن أرم بيت مملكة عاد وهذا قول حسن جيد قوى ، وقال مجاهد وقتادة والكلبي في قوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ كانوا أهل عمد لا يقيمون ، وقال العوفي عن ابن عباس : إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم ، واختار الأول ابن جرير ورد الثاني فأصابه .

قال ابن كثير : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحا يقاتلون به أو طول الواحد منهم فهم قبيلة وأمة من الأمم فهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع المقرونون بثمود والله أعلم .

ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ مدينة أما دمشق كما روى عن سعيد بن المسيب وعكرمة أو اسكندرية كما روى عن القرطبي أو غيرهما ففيه نظر ، فانه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ؟ أن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان ؟ فانه لا يتسق الكلام حينئذ ، ثم المراد انما الاخبار عن اهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لا أن المراد الأخبار عن مدينة أو اقليم . وانما نبهت على ذلك لئلا يغتر لكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، عن ذكر مدينة يقال لها ارم ذات العماد مبنية بلبن الذهب والفضة ، قصورها ودورها وبساتينها وأن حصباءها لآلىء وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها ، وسورها وأبوابها تصفر ، ليس بها داع ولا مجيب ، وانها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد ، فان هذا كله من خرافات الاسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك القول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

- وذكر الثعالبي وغيره أن رجلا من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة ، في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت فبينما هو يتيه في ابتغائها اذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها فوجد فيها قريبا مما ذكرناه ، من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها ، وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئا ... فهذه الحكاية ليس يصح اسنادها ولو صح إلى ذلك الأعرابي ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو

أنه أصابه نوع من الهوس والخيال فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك ، وهذا مما يقطع بعدم صحته .

- وقال ابن اسحاق : كانوا عربيا وكان منزلهم بواد القرى .
- قال ياقوت : ﴿ اِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : وهي ارم عاد ، يضاف ، أعنى قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ اِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ .
- فمن أضاف لم يصرف ارم ، لأنه يجعله اسم امهم ، أو اسم بلدة ، ومن لم يضيف جعل ارم اسمه ولم يصرفه ، لأنه جعل عادا اسم أبيهم ، وارم اسم القبيلة ، وجعله بدلا منه .
- وقال بعضهم : ارم لا ينصرف للتعريف والتأنيث لأنه اسم قبيلة ، فعلى هذا يكون التقدير : - ارم صاحب ذات العماد ، لأن ذات العماد مدينة .
- وقيل : ذات العماد وصف ، كما تقول المدينة ذات الملك .
- وقيل : ارم مدينة ، فعلى هذا يكون التقدير بعاد صاحب ارم .

ويقرأ بعاد ارم ذات العماد ، الجرّ على الاضافة فهذا اعرابها ، ثم اختلف فيها من جعلها مدينة ، فمنهم من قال : هي أرض كانت واندurst ، فهي لا تعرف . ومنهم من قال : الاسكندرية ، وأكثرهم يقولون : هي دمشق ، وكذلك قال شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشير :

لولا التي علقتني من علائقها لم تمس لى ارم دارا ولا وطننا

قالوا : أراد دمشق ، واياها أراد البحري بقوله :

اليك رحلنا العيس من أرض بابل	نجوز بها سمت الدبور ونهتدي
فكم جزعت من وهدة بعد وهدة	وكم قطعت من فدغد بعد فدغد
طلبنك من ام العراق نوازعا	بنا ، وقصور الشام منك بمرصد
إلى ارم ذات العماد وانها	لموضع قصدى موجفا وتعمدى

وحكى الزمخشري أن ارم بلد منه الاسكندرية . وروى آخرون أن ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، باليمن بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شداد بن عاد ، ورووا أن شداد بن عاد كان جبارا ، ولما سمع بالجنة وما أعد الله فيها لأولياؤه من قصور الذهب والفضة والمساكن التي تجرى من تحتها الأنهار ، والغرف التي من فوقها غرف، قال لكبرائه : انى متخذ في الأرض مدينة على صفة الجنة فوكل بذلك مائة رجل من وكلائه وقهاريماته تحت يد كل رجل منهم ألف من الأعوان وأمرهم أن يطلبوا فضاء فلات من أرض اليمن ويختاروا أطيبها تربة ، ومكنهم من الأموال ومثل لهم كيف يعملون ، وكتب إلى عماله الثلاثة : غانم بن علوان والضحاك بن علوان والواليد بن الريان يأمرهم أن يكتبوا الى عمالهم في آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران ، فيوجهوا به اليه .

ثم وجه إلى جميع المعادن فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة. ثم وجه عماله الثلاثة إلى الغواصين إلى البحار فاستخرجوا الجواهر ، فجمعوا منها أمثال الجبال ، وحمل جميع ذلك الى شداد ثم وجهوا الحفارين إلى معادن الياقوت والزبرجد ، وسائر الجواهر فاستخرجوا منها أمرا عظيماً . فأمر بالذهب فضرب أمثال اللبن ثم بنى بذلك تلك المدينة ، وأمر بالدر والياقوت والجزع والزبرجد والعقيق ففصص به حيطانها ، وجعل لها غرفا من فوقها غرف ، معمد جميع ذلك بأساطين الزبرجد والجزع والياقوت ثم أجرى تحت المدينة واديا ساقية اليها من تحت الأرض أربعين فرسخا ، كهيئة القناة العظيمة . ثم أمر فأجرى من ذلك الوادى سواق في تلك السكك والشوارع والأزقة تجرى بالماء الصافي . وأمر بحافتي ذلك النهر وجميع السواق فطلبت بالذهب الأحمر ، ... ثم بنى لنفسه في وسط المدينة ، على شاطئ ذلك النهر قصرا منيفا عاليا يشرف على

تلك القصور كلها ، وجعل بابها يشرع إلى الوادي بمكان رحب واسع ، ونصب عليه مصراعين من ذهب مفصصين بأنواع اليواقيت ... ومكث في بنائها خمسمائة عام .

وأن الله تعالى أحب أن يتخذ الحجة عليه وعلى جنوده بالرسالة والدعاء إلى التوبة والآنابة فانتجت لرسالته اليه هودا عليه السلام ، وكان من صميم قومة وأشرفهم ... ثم أن هودا عليه السلام . اذاه فدعاء إلى الله تعالى وأمره بالايامن والاقرار بربوبية الله عز وجل ، ووحد انيته ، فتمادى في الكفر والطغيان وذلك حين تم للملكة سبعمائة سنة . فأنذره هود بالعذاب وحذره وخوفة زوال ملكة فلم يرتدع عما كان عليه ، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ، وأخبروه بالفراغ منها فعزم على الخروج اليها في جنوده فخرج في ثلاثمائة ألف من حرسه وشاكريته ومواليه وسار نحوها وخلف على ملكة بحضرموت وسائر أرض العرب ابنه مرثد بن شداد . وكان مرثد فيما يقال مؤمنا بهود عليه السلام ، ، فلما قرب شداد من المدينة وانتهى الى مرحلة منها جاءت صيحة من السماء فمات هو وأصحابه أجمعون ...

وختم ياقوت هذه القصة التي أوردنا ملخصا مما جاء فيها بقولة : قلت : هذه القصة مما قد منا البراءة من صحتها وظننا أنها من أخبار القصص المنمقة وأوضاعها المزوقة .

قلت : هذا بعض ما ذكره ابن كثير وغيره من العلماء عن ارم ذات العمداد ، ويتضح فيما ذكرناه من أقوال العلماء الاختلاف في حقيقة ارم ذات العمداد ، وصفها وموقعها ، وهل هي مدينة أو قبيلة ؟ غير أن ابن كثير استحسن قول قتادة والسدي : أن ارم ذات العمداد بيت مملكة عاد ، والله أعلم .

وقال البغوي : واختلفوا في أرم ذات العمداد ، فقال سعيد بن المسيب (ارم ذات العمداد) دمشق ، وبه قال عكرمة .

وقال القرظي : هي الاسكندرية ، وقال مجاهد : هي أمة .
وقيل : معناها : القديمة .

وقال قتادة ، ومقاتل : هم قبيلة من عاد قال مقاتل : كان فيهم الملك ، وكانوا (بمهرة) ، وكان عاد أباهم ، فنسبهم اليه ، وهو ارم بن عاد بن ارم بن سام بن نوح .

وقال محمد بن أسحاق : هو جد عاد ، وهو عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح .

وقال الكلبي : ﴿ إِرَمَ ﴾ هو الذي يجتمع اليه نسب عاد وثمود وأهل الجزيرة كان يقال : عاد ارم ، وثمود ارم ، فأهلك الله عاداً ثم ثمود ، وبقي أهل السواد والجزيرة ، وكانوا أهل عمد وخيام وماشية سيارة في الربيع ، فاذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا أهل جنان وزروع ، ومنازلهم بوادي القرى ، وهي التي يقول الله فيها ﴿ أَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴾ : وسموا ذات العماد (لهذا) لأنهم كانوا أهل عمد سيارة ، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي ، ورواية عطاء عن ابن عباس ، وقال بعضهم : سمو ذات العماد لطول قامتهم .

قال ابن عباس : يعني طولهم مثل العماد . وقال مقاتل : كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً .

وقوله : ﴿ أَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴾ ، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة ، وهم الذين قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِتَاقُوءَةً ﴾ .

أم القرى : بهمزة مضمومة بعدها ميم مشددة : والقرى جمع قرية ، يقصد به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ^(٣) .

قال ابن جرير : وأما قوله : فإنه يقول : أنزلنا اليك يا محمد هذا الكتاب مصداقاً ما قبله من الكتب ، ولتنذره عذاب الله وبأسه من في أم القرى ، وهي مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ شرقاً وغرباً من العادلين بريهم غيره من الآلهة والأنداد والجاحدين برسلة وغيرهم من أصناف الكفار .

وروى بسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني بـ ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ مكة ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من القرى إلى المشرق والمغرب .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ ، قال : هي مكة وبه عن معمر ، عن قتادة قال : بلغني أن الأرض دحيت من مكة .

وروى بسنده عن السدي : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، أما ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ فهي مكة ، وإنما سميت ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ لأنها أول بيت وضع بها .

(١) سورة القصص الآية رقم : ٥٩ .

(٢) سورة الشورى الآية رقم : ٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية رقم : ٩٢ .

وقال القرطبي : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يريد مكة ، والمراد أهلها فحذف المضاف ، أي أنزلناه للبركة والانداز ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى جميع الآفاق .

قال ابن كثير : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى مكة ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، وقال ﴿ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ .

قلت : هذا ما ذكره هؤلاء المفسرون في التعريف بأُم القرى ، واتفقوا أن ذلك يعنى مكة البلد المقدس حرسها الله ، فهو اسم من أسماء مكة ، ولزيد من الايضاح أنظر رسم (مكة) في هذا الكتاب .

الأيكة : بهمزة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وكاف مفتوحة وآخره هاء : هي بلاد مدين قوم شعيب .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ ^(١) .
وقال الله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٢) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ^(٣) .
وقال الله تعالى : ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الحجر الآية رقم : ٧٨ .

(٢) سورة الشعراء الآية رقم ١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) سورة ص الآية رقم : ١٣ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلُّ كَذَّابٍ
الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾^(١) .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى ذكره : وقد كان أصحاب
الغيضة ظالمين ، يقول : كانوا بالله كافرين ، والأيكة : الشجر الملتف
المجتمع ، كما قال أمية :

كبك الحمام على فروع الأيك في الغصن الجوانح

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ
لَظَالِمِينَ ﴾ ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة . وكان عامة شجرهم
هذا الدوم وكان رسولهم فيما بلغنا شعيب عليه السلام ، أرسل اليهم وإلى أهل
مدين ، أرسل إلى أمتين من الناس وعذبنا بعذابين شتى .

أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة ، وأما أصحاب الأيكة فكانوا
أهل شجر متكأوس ، ذكر لنا أنه سلط عليهم الحر سبعة أيام ، لا
يظلمهم منه ظل ولا يمنعهم منه شيء ، فبعث الله عليهم سحابة
فحلوا تحتها يلتمسون الروح فيها فجعلها الله عليهم عذابا ، بعث
عليهم نارا فاضطربت عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة أنه
كان عذاب يوم عظيم .

وروى بسنده عن ابن جريح ، قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ
لَظَالِمِينَ ﴾ قال : قوم شعيب . قال ابن عباس : الأيكة ذات آجام وشجر
كانوا فيها .

(١) سورة ق الآية رقم : ١٤ .

قال ابن كثير : ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره : أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقلوه ضعيف ، وإنما عمدتهم شيئان : أحدهما أنه قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ اذ قال لهم شعيبٌ ﴿ ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ۝ ١٧١ ﴾ .

والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول : أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا .

ولما نسبهم الى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم .
وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة .

وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فان كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى ، فليكن تعدد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئا من هذا الشأن .

فأما الحديث الذي أورده الحافظ بن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام بسنده عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : (ان قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيبا النبي عليه السلام) . فإنه حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه .

والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو ، مما أصابه يوم
اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني اسرائيل .. والله أعلم .

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان ، فدل على أنهم أمة واحدة ، وأهلكوا بأنواع من العذاب . وذكر في كل موضع ما يناسبه من الخطاب .

وقال القرطبي : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ يريد قوم شعيب كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر متمر ، والأيكة : الغيضة ، وهي جماعة الشجر ، والجمع الأيك ، ويروى أن شجرهم كان دوما وهو المقل ، قل النابغة :

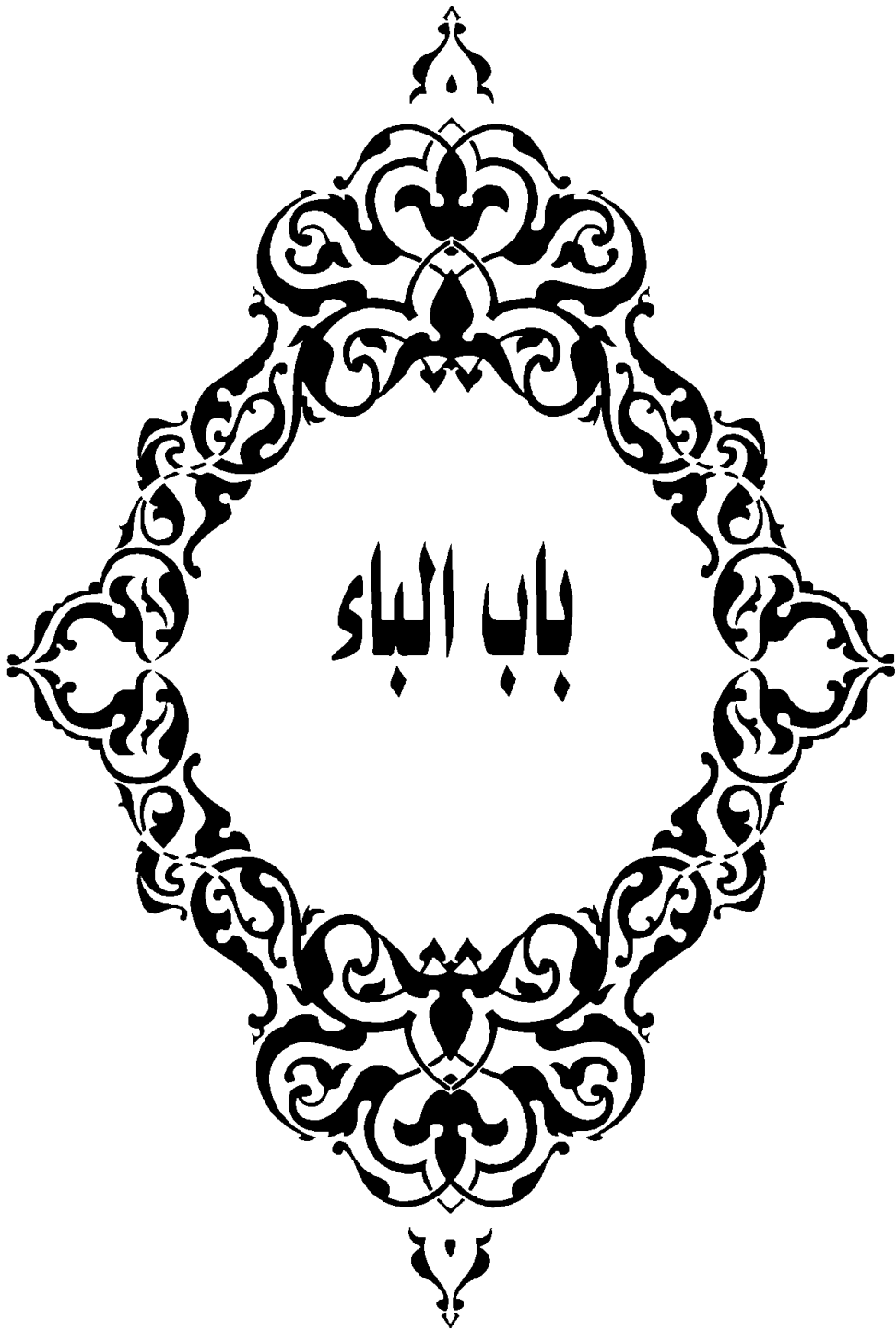
تجلوا بقاد متى حمامة أيكة بردا أسف لثاته بالأثمد
وقيل : الأيكة اسم القرية ، وقيل اسم البلدة ، وقال أبو عبيدة :
الأيكة وليكة مدينتهم .

وقال البكري : الأيكة المذكورة في كتاب الله تعالى ، الى كانت منازل قوم شعيب : روى عن ابن عباس فيها روايتان : أحدهما أن الأيكة مدين الى شغب وبدأ ، والثانية أنها من ساحل البحر الى مدين . قال : وكان شجرهم المقل ، والأيكة عند أهل اللغة الشجر الملتف وكانوا أصحاب شجر ملتف .

وقال قوم : الأيكة : الغيضة ، وليكة : اسم البلد حولها ، كما قيل في مكة وبكة ، قال أبو جعفر بن النحاس : لا يعلم (ليكة) اسم بلد .

قال ياقوت : الأيكة التي جاء ذكرها في كتاب الله عز وجل ، ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، قيل : هي تبوك التي غزاها النبي ﷺ آخر غزواته ، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه ويقولون : أن شعيبا عليه السلام أرسل الى أهل تبوك ، ولم أجد هذا في كتب التفسير ، بل يقولون : الأيكة الغيضة الملتفة الأشجار ، والجمع أيك ، وأن المراد بأصحاب الأيكة أهل مدين ، قال ياقوت : ومدين وتبوك متجاورتان .

قلت : هذا خلاصة ما ذكره المفسرون والمؤرخون في التعريف بالأيكة التي ورد ذكرها في كتاب الله عز وجل ومما تقدم نرى اختلافا بين المفسرين في التعريف بأصحاب الأيكة ، فبعضهم يرى أن أصحاب الأيكة ومدين أمة واحدة ، وبعضهم يرى أنهما أمتان أرسل اليهما شعيب ، غير أن ابن كثير يرجح أنهما أمة واحدة وأنكر على من قال أنهما أمتان مختلفتان والله أعلم وفي رسم (مدين) مزيد من الإيضاح .



الباب : بباء موحدته بعدها ألف وبعد الألف بباء موحدة : المراد به باب (الحطة) من بيت المقدس .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ^(٣) .

قال ابن جرير في تفسيره : أما الباب الذي أمروا أن يدخلوه ، فإنه قيل : هو باب (الحطة) من بيت المقدس .

وروى بسنده عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قال : باب الحطة ، من باب ايلياء من بيت المقدس .

وروى بسنده عن السدي : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ، أما الباب فباب من أبواب بيت المقدس .

ويسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أنه أحد أبواب بيت المقدس ، وهو يدعى باب حطة . وأما قوله ﴿ سُجَّدًا ﴾ ، فإن ابن عباس كان يتأوله يعنى الركع .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .

(٢) سورة النساء الآية رقم : ١٥٤ .

(٣) سورة النساء الآية رقم : ١٦١ .

ويسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَادْخُلُوا ﴾
الْبَابَ سُجَّدًا ، قال : ركعا من باب صغير .

قال ابن جرير : وأصل السجود الانحناء لمن سجد له
معظماً بذلك ، فكل منحن لشيء تعظيماً له فهو ساجد . وهو :
قول الشاعر :

بجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم منه سجداً للحوافر

يعنى بقوله : ﴿ سُجَّدًا ﴾ خاشعة خاضعة . ومن ذلك قول
أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

يرواح من صلوات المليك طورا سجودا وطورا جوارا

فذلك تأويل ابن عباس قوله ﴿ سُجَّدًا ﴾ ركعا . لأن الراكع
منحن وان كان الساجد أشد أنحناء منه .

وقال القرطبي : والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت
المقدس يعرف اليوم بـ (باب حطة) عن مجاهد وغيره . وقيل : باب
القبة التي كان يصلى إليها موسى وبنوا إسرائيل . و ﴿ سُجَّدًا ﴾
قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعاً لا على
هيئة متعينة .

وقال الشوكاني : قال جمهور المفسرين : القرية هي بيت
المقدس ، وقيل : انها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس ، وقيل : من
قرى الشام .

والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم
باب حطة وقيل : هو باب القبة التي كان يصلى اليها موسى وبنو
اسرائيل .

وقال النسفي : ﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ ﴾ ، باب القرية أو باب القبة
التي كانوا يصلون اليها ، وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى
عليه السلام وإنما دخلوا الباب في حياته ، ودخلوا بيت المقدس بعده .

قلت : هذا خلاصة ما قاله المفسرون في تحديد الباب الذي ورد
ذكره في هذه الآيات الكريمة ، وفي رسم (القرية) مزيد من الايضاح .

الباب : كالذي قبله .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غُلِبُونَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير في تفسيره فيما رواه بسنده عن ابن عباس ، قوله :
﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ ، والرجلان اللذان
أنعم الله عليهما من بنى اسرائيل : يوشع بن نون ، وكالوب بن يوفنة .

وروى بسنده عن قتادة قال : ذكر لنا أن الرجلين يوشع بن نون
وكالب . فقال : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ هي مدينة الجبارين .

ويسنده عن ابن ابي نجيح ، عن مجاهد في قول الله : ﴿ عَلَيْهِمُ
الْبَابَ ﴾ ، قرية الجبارين .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾
قال ابن عباس وغيره : هما يوشع وكالب يوقنا ويقال ابن قانيا .
﴿ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي بالاسلام أو باليقين والصلاح . ﴿ أَدْخُلُوا
عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ .

قال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ أي باب
بلد الجبارين .

قلت : وفي رسم (التيه) ورسم (القرية) مزيد من الايضاح فيه
كفاية أن شاء الله .

الباب : كالذي قبله : وهذا يقصد به الباب الذي استبق
يوسف عليه السلام وامرأة العزيز اليه وهو باب البيت
الذي كانا فيه .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ
وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول جل ثناؤه : واستبق يوسف وامرأة
العزيز باب البيت ، أما يوسف ففراره من ركوب الفاحشة لما رأى
برهان ربه فزجر عنها .

وأما المرأة فطلبها ليوسف لتقضى حاجتها منه التي راودته
عليها ، فأدركته فتعلقت بقميصه فجذبتة اليها ، مانعة له من
الخروج من الباب ، فقدته من دبر ، يعنى شقته من خلف لا من قدام ،
لأن يوسف كان هو الهارب ، وكانت هي الطالبة .

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٢٥ .

وروى بسنده عن مجاهد : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ ، قال : سيدها زوجها ﴿ لَدَا أَلْبَابٍ ﴾ ، قال : عند الباب .

ويسنده عن زيد بن ثابت قال (السيد) ، الزوج .
ويسنده عن السدي : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ ﴾ ، قال :
جالسا عند الباب ، وابن عمها معه ، فلما رآته قالت : ما جزاء من أراد
بأهلك سوء ؟ .

أنه روادني عن نفسي ، فدفعته عن نفسي فشقت قميصه . قال
يوسف : بل هي راودتني عن نفسي وفررت منها فأدركتني فشقت قميصي .

فقال ابن عمها : تبيان هذا في القميص ، فان كان القميص قد
قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ
دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فاتى بالقميص ، فوجده قد من دبر
قال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ يوسف أعرض عن
هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ ﴾ أي
وجد العزيز عند الباب ، وعنى بالسيد الزوج ، والقبط يسمون الزوج
سيدا ، فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة وكادت ، فقالت : ﴿ مَا جَزَاءُ
مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أي زنى . ﴿ إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ،
قال : ﴿ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا أَلْبَابَ ﴾ أي
تسابقا اليه ، يوسف يريد الفرار والخروج من البيت ، وامرأة

العزیز تريد أن تسبقه اليه لئلا تمنعه لأن تسابقهما كان الى الباب الذي يخلص منه الى خارج الدار ، ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ أي وجدا العزیز هنالك ، وعنى بالسيد الزوج ، لأن القبط يسمون الزوج سيذا ، وانما لم يقل سيدهما ، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحا فلم يكن سيذا له .

قال ابن كثير : ﴿ وَرَأَوْدَتُهُ أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزیز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحالة ومقامة ، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت وهى مع هذا كله امرأة الوزير ، وبنت أخت الملك الريان ابن الوليد صاحب مصر ،

والمقصود أنها دعته اليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ يعنى زوجها صاحب المنزل سيدي ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي أحسن الى وأكرم مقامى .

﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أي هرب منها طالبا الى الباب ليخرج منه فرارا منها فاتبعته في أثره ﴿ وَأَلْفَيَا ﴾ أي وجدا ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أي زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرصته عليه ، ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقال الصابوني : أقام يوسف الصديق في بيت عزيز مصر ، منعما مكرما ، وكان فائق الحسن والجمال فلما شب وكبر ، عشقته

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٢٥ .

امراة العزيز وشغفت به حبا ودعته الى نفسها ، ولقد كان يوسف
ظاهر النفس عفيف الخلق مستقيم السيرة ، استعصى على تلك
الفتنة العارمة ووقف في وجه الشهوة والأغراء موقف المؤمن الحازم ..
وقالت ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، قال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ أى سيدي
﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وقال عفيف طيارة : كانت منة الله تعالى على يوسف
بالجمال الرائع سببا لمحنته وذلك أن زليخا امرأة العزيز (وزير
الملك) رأت بعين الأنثى جمال يوسف فخفق قلبها واضطربت
مشاعرها ، ولبثت وقتا تتردد في اظهار شعورها نحو يوسف الى أن غلب
الحب عواطفها واستحوذ الضعف الطبيعي على مشاعرها ، فانتهزت
فرصة وجوده في بيتها يوما ، وأخذت تغريه بنفسها ليبادلها الحب ،
فعرضت عليه محاسنها ومفاتنها بعد أن أوصدت الأبواب وقالت له:
أقبل على فقد هيات نفسي لك ، ففر منها يوسف نفرة الغضوب
واستنكر منها ذلك الأمر قائلاً : انى ألجأ الى الله ليحميني من الاثم،
وكيف ارتكب وزوجك العزيز سيدي أكرمنى وأحسن وفادتى ، أنه لا
يفوز من يقابل الاحسان بالغدر والخيانة .

أسرع يوسف إلى الباب يريد الافلات منها وأسرعت وراءه
لتحول دون خروجه ، وجذبت قميصه من الخلف ل تمنعه من
الخروج فتمزق ، لكنه تمكن من الخروج ، وفي هذه الحال وجدا عند
الباب زوجها فبادرته باتهام يوسف بمحاولة اغتصابها وحرضته
على سجنه .

قلت : فلما تقدم نرى أن علماء المفسرين يتفقون على تفاصيل
أحداث محنة يوسف عليه السلام التي وقعت له بسبب مراودة امرأة
العزيز له عن نفسه ، وأن هذا الحدث وقع في بيت العزيز وعلى

يد امرأته وأن الباب الذي استبقا اليه هو باب بيت العزيز الذي يفضى بهما إلى خارج البيت ، غير أن الله سبحانه وتعالى بلطفه وكرمة أنجا يوسف عليه السلام من هذه المحنة .

وكان مسكن العزيز الذي وقع فيه الابتلاء ليوسف في مصر .

الباب : كالذي قبله : المقصود به أحد أبواب مدينة مصر .

قال الله تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب عليه السلام : ﴿ وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره قال يعقوب لبنيه لما أرادوا الخروج من عنده إلى مصر ليمتاروا الطعام : يا بني لا تدخلوا مصر من طريق واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة . وذكر أنه قال ذلك لهم ، لأنهم كانوا رجالا لهم جمال من طريق واحد ، وهم ولد رجل واحد ، فأمرهم أن يتفرقوا في الدخول إليها .

وروى بسنده عن الضحاك ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ قال : خاف عليهم العين .

ويسنده عن قتادة قوله : ﴿ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ خشى نبي الله ﷺ العين على بنيه كانوا ذوى صورة وجمال .

ويسنده عن محمد بن كعب ، ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ قال : خشى عليهم العين .

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٦٧ .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ لما عزموا على الخروج خشى عليهم العين ، فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ، وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرجل واحد ، وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة ، قاله ابن عباس والضحك وقتادة وغيرهم .

بابل : بباء موحدة بعدها ألف وباء أخرى موحدة مكسورة وآخره لام : مدينة شهيرة في العراق .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابٍ هَرُوتَ وَمَرُوتَ ﴾^(١)

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ بِبَابٍ ﴾ بابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعجمة ، وهي قطر من الأرض ، قيل : العراق وما والاها ، قال ابن مسعود لأهل الكوفة : أنتم بين الحيرة وبابل ، وقال قتادة : هي من نصيبين إلى رأس العين . وقال قوم : هي بالمغرب . قال ابن عطية : وهذا ضعيف . وقال قوم : هو جبل نهاوند ، فالله تعالى أعلم .

واختلف في تسميته ببابل ، ف قيل : سمى بذلك لتبليل الألسن بها حين سقط صرح نمرود . وقيل : سمى به لأن الله تعالى لما أراد أن يخالف بين السنة بنى آدم بعث ريحا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل ، فببلبل الله ألسنتهم بها ، ثم فرقهم تلك الرياح في البلاد . والببللة : التفريق ، قال معناه الخليل .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ١٠٢ .

قال أبو عمرو بن عبد البر من أخصر ما قيل في البلبلة وأحسنه ما رواه داود ابن أبي هند عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لما هبط إلى أسفل الجودي إبتنى قرية وسمّاها ثمانين ، فأصبح ذات يوم وقد تبلّبت ألسنتهم على ثمانين لغة ، أحداها اللسان العربي ، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

قال البكري : بابل ، بالعراق مدينة السحر ، معروفة .. وقال أصحاب الأخبار : بنى نمرود الخاطيء المجدل ببابل ، طوله في السماء خمسة آلاف زراع وهو البنيان الذي ذكره الله في كتابه ، فقال : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قالوا : وبات الناس ولسانهم سرياني ، فأصبحوا وقد تفرقت لغاتهم على اثنتين وسبعين لسانا ، وأصبح كل يببل بلسانه ، فسمى الموضع بابل .

وقال الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني : وكان اسمة خيتارت ، وربما سموا العراق بابل ، قال عمر بن أبي ربيعة وأتى البصرة ، فضافه فيها ابن هلال المعروف بصديق الجن :

يا أهل بابل ما نفست عليكم من عيشكم الا ثلاث خصال
ماء الفرات وظل عيش بارد وسماع سمعتين لابن هلال

وقال ياقوت : بابل : بكسر الباء : اسم ناحية منها الكوفة ، والحلة ينسب اليها السحر والخمر ، قال الأخفش : لا ينصرف

لتأنيته ، وذلك أن اسم كل شيء مؤنث إذا كان علما وكان على أكثر من ثلاثة أحرف فانه لا ينصرف .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ ﴾ ، قيل بابل العراق ، وقيل بابل ديمباوند ، وقال أبو الحسن : بابل الكوفة ، وقال أبو معشر : الكلدانيون هم الذين كانوا ينزلون بابل في الزمن الأول ، ويقال : ان أول من سكنها نوح عليه السلام ، وهو أول من عمرها ، وكان قد نزلها بعقب الطوفان ، فسار هو ومن خرج معه من السفينة اليها لطلب الدفء فأقاموا بها وتناسلوا فيها وكثروا من بعد نوح وملكوا عليهم ملوكا ، وابتنوا بها المدائن ، واتصلت مساكنهم بدجلة والضرات الى أن بلغوا من دجله الى أسفل كسكر ، ومن الضرات الى ما وراء الكوفة وموضعهم هو الذي يقال له السواد ، وكانت ملوكهم تنزل بابل وكان الكلدانيون جنودهم فلم تزل مملكتهم قائمة الى أن قتل منهم خلق كثير فذلوا وانقطع ملكهم .

وقد أطال ياقوت في حديثه عن بابل ، في وصفها وغرائب ما فيها وذكر أشياء كثيرة ليست من شأننا .

وقال الحميري : بابل : بالعراق ، كانت بابل من عظمها واستبشاع أمرها لا تكاد تجعل من عمل الأدميين وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ .

ويقال إن الضحاك أول من بناها ، وسكنها العمالقة ، ودخلها إبراهيم عليه السلام ، ويقال : إن بها مولده ، وقيل : بل ولد بالسوس من أرض الأهواز ، وقيل : بكوثى من أرض السواد ، وينسب إليها

السحر والخمر ويقال : إن بها هاروت وماروت يعذبان إذ اختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة وإنهما معلقان في سرب تحت الأرض كالحبلين ، وأن بعض الناس رآهما كذلك ، فجادلهم يهودى بها لرغبته في ذلك فلما رأى منظرهما رأى منظرا عظيما وأمرأ هائلا أفزعته ، هذا سمعته من الضقيه ابن البراء يحكى عن مجاهد صاحب التفسير ، ولا أدري أهو الرائي لهما أو غيره فالله أعلم .

ويقال : إن نمرد أسسها وهي مدينة ضاحكة المنظر جميلة المنصب زاهرة البناء واسعة الفضاء قد جمعت إلى حسن المنظر من كل جانب رصانة البنيان وبها المنصب ، وكانت سهلة بطحاء ديمومة فيحاء مربعة لها في كل قريع حصنان عظيمان ، وسائر ذلك من سورها لا يكاد من يبلغه خبره يصدق بصفته لكثرة ارتفاعه وفرط اتقانه .

.. قالوا : وبابل أقدم بنا بنى بعد الطوفات وأن منها تفرق ولد نوح عليه السلام ، وأن الذي هدمها كسرى الأول ملك الفرس لما تغلب على أرض بابل ، وملوك بابل هم النبط ، وزعموا أنهم أول ملوك العالم وأن الفرس أخذت الملك منهم كما أخذته الروم من اليونانيين وأول ملوكهم نمروود ، وهم الذين شيدوا البنيان ومدنوا المدن وكوروا الكور وشقوا الأنهار ورتبوا الجيوش وجعلوا الألوية والاعلام .

وقد تحدث المسعودي عن إقليم بابل فقال : وأوسط الأقاليم إقليم الذي ولدنا به ، وإن كانت الأيام أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولدت في قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو إقليم بابل ، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلا وقدره عظيما ، وكانت عنايته إليهم ، وكانوا يشتون بالعراق ،

وأكثرهم يصيفون بالجبال ويتنقلون في الفصول إلى الصرود من الأرض والحرور ، وقد كان أهل المروءات في الإسلام كأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وغيره يشتون في الحرور ، وهو العراق ، ويصيفون في الصرود ، وهي الجبال وفي ذلك يقول أبو دلف :

وانى امرؤ كسروى الفعال أصيف الجبال وأشتو العراقا

وذلك بما خص به هذا الإقليم من كثرة مرافقة ، واعتدال أرضه ، وغضار عيشة ، ومادة الوافدين اليه ، وهما دجلة والفرات^(١) .

قلت : وقد إتفق المؤرخون على تحديد إقليم بابل في العراق ، وذكر بعضهم عن مدينة بابل أشياء لا تتفق مع طبيعة الإنسان وتحضره ونشاطه في العمران ، لذلك لم نذكرها لأنه ليست من شأننا في كتابنا هذا .

وقد حدد الدكتور السامرائي إقليم بابل بقوله : إقليم بابل يشمل منطقة أكد الكائنه في الوسط- يعنى وسط العراق- وهي شمال بلاد سومر الجنوبية التي استولى عليها البابليون بعد ذهاب دولتهم الجنوبية ، والسومريون أمة لم يتفق المؤرخون في عصرنا على أصلهم ومن أين جاءوا ، ولكنهم إتفقوا على أنهم ليسوا ساميين ولغتهم ليست سامية .

وبابل الحديثة ، وهي إسم لإحدى المحافظات في العراق ومركزها مدينة الحلة^(٢) .

(١) مروج الذهب ٢ - ٣٨ - ٣٩ .

(٢) نظرات في المعجم الكبير رقم ١٢٧ .

البحر: بيا موحدة مفتوحة وحاء مهملة ساكنة وآخره راء مهملة: واحد البحار، والمقصود هنا هو بحر القلزم (البحر الأحمر).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾^(٦).

- (١) سورة البقرة الآية - ٥٠ .
- (٢) سورة يونس الآية - ٩٠ .
- (٣) سورة طه الآية - ٧٧ .
- (٤) سورة الشعراء الآية - ٦٣ .
- (٥) سورة الدخان الآية - ٢٤ .
- (٦) سورة الأعراف الآية - ١٣٨ .

روى القرطبي بسنده عن عبدالله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببني اسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبح، ثم قال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لي ستمائة ألف من القبط ، قال: فانطلق موسى حتى انتهى الى البحر، فقال له: افرق، فقال له البحر، لقد استكبرت يا موسى، وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك، قال ومع موسى رجل على حصان له قال: فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت الا بهذا الوجه، قال فأقحم فرسه فسبح فخرج. فقال اين أمرت يا نبي الله؟ قال ما أمرت الا بهذا الوجه ، قال: والله ما كذبت ولا كذبت، ثم اقتحم الثانية فسبح به حتى خرج، فقال أين أمرت يا نبي الله؟ فقال: ما أمرت الا بهذا الوجه ، قال: والله ما كذبت ولا كذبت، قال: فأوحى الله اليه: ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فضربه موسى بعصاه ، ﴿ فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ، فكان فيه اثناء عشر فرقا لاثنى عشر سبطا، لكل سبط طريق يتراؤن، وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا، فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم.

ويذكر أن البحر هو بحر القلزم، وأن الرجل الذي كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن اسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبدالله بن شداد بن الهادي قال: لقد ذكر لي أنه خرج فرعون في طلب موسى على سبعين ألف من دهم الخيل، سوى ما في جنده من شهب الخيل، وخرج موسى حتى اذا قابله البحر ولم يكن له عنه منصرف، طلع فرعون في جنده من خلفهم ، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا

لَمُدْرَكُونَ ﴿ قَالَ مُوسَى ، ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أَيْ لِلنَّجَاةِ ، وَقَدْ وَعَدَنِي ذَلِكَ وَلَا خَلْفَ لَوَعْدِهِ .

حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثني ابن اسحاق قال: أوحى الله الى البحر- فيما ذكر لي -: اذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له، قال: فبات البحر يضرب بعضه بعضا فرقا بين الله وانتظار امره، فأوحى الله الى موسى ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فضربه بها، وفيها سلطان الله الذي أعطاه ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، أى كالجبل على نشز من الأرض، يقول الله لموسى : ﴿ فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ فلما استقر له البحر على طريق قائمة يبس، سلك فيه موسى ببني اسرائيل واتبعه فرعون بجنوده.

حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثني محمد بن اسحاق، عن محمد بن كعب القرظي ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي قال: حدثت أنه لما دخلت بنو اسرائيل البحر فلم يبق منهم أحد، أقبل فرعون و هو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن ينفذ، فعرض له جبريل على فرس أنثى وديق، فقربها منه، فشمها الضحل، فلما شمها قدمها، فتقدم معها الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون فرعون قد دخل، دخلوا معه وجبريل أمامه، وهم يتبعون فرعون، وميكائيل على فرس من خلف القوم يسوقهم، يقول: "الحقوا بصاحبكم" حتى اذا فصل جبريل من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى، وليس خلفه أحد، طبق عليهم البحر ونادى فرعون- حين رأى من سلطان الله عز وجل وقدرته ما رأى،

وعرف ذلّه، وخذلته نفسه - : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِم بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، قال : حدثنا حجاج، قال حدثنا حمّاد عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: لما أغرق الله فرعون قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِم بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ فقال جبريل: يا محمد لورأيتني وأنا آخذ من رمال البحر وأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة.

حدثنا ابن وكيع قال حدثنا الحسين بن علي عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال: خطب الضحّاك بن قيس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ان فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِم بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، قال الله : ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

وفي تأويل قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ .

قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نجوى من الأرض ببदनك، ينظر اليك هالكا من كذب بهلاكك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً﴾ ، يقول : لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك فينزعرون عن معصية الله والكفر به والسعى في أرضه بالفساد.

حدثنا محمد بن الأعلى قال: حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي السليل عن قيس بن عباد وغيره قال: قالت بنو اسرائيل لموسى: انه لم يمت فرعون، قال: فأخرجه الله اليهم ينظرون اليه مثل الثور الأحمر.

قلت : وقد روى ابن جرير هذه الأخبار من طرق متعددة يكثر بعضها بعضا ويوضح بعضها بعضا .

وقال ياقوت : بحر القلزم وهو شعبة من بحر الهند أوله عند بلاد البربر والسودان وعدن ثم يمتد مغربا، وفي أقصاه مدينة القلزم قرب مصر، وبذلك سمى بحر القلزم ويسمى في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضوع، فعلى ساحله الجنوبي بلاد البربر والحبش، وعلى ساحله الشرقى بلاد العرب فهو يمر بساحله الشرقى على بلاد اليمن وجدة والجار وينبع ومدين، مدينة شعيب النبي، عليه السلام و أيلة الى القلزم في منتهاه، وهو الموضوع الذي غرق فيه قوم فرعون وفرعون أيضا، وبين هذا الموضوع وفسطاط مصر سبعة أيام.

والقلزم: بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة، وميم، القلزمة: ابتلاع الشيء، يقال: تقلزمه اذا ابتلعه، وسمى بحر القلزم قلزما لا لتهامه من ركبته: وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله.

وقال: وبين مدينة القلزم ومصر ثلاثة أيام، وهى مدين مبنية على شفير البحر ينتهى هذا البحر اليها. وليس بها زرع ولا شجر ولا ماء وانما يحمل اليها من ماء آبار بعيدة منها، ومنها تحمل حمولات مصر والشام الى الحجاز واليمن.

قلت : هذا موجز لما اطلعت عليه من خبر نجات موسى وقومه وهلاك فرعون وقومه ، وما قيل في البحر الذي أهلك الله فيه فرعون وقومه، وهو بحر القلزم المعروف في هذا العهد (بالبحر الأحمر).

وفيه من النصوص المتقدمة أن البحر الذي أنجى الله فيه موسى عليه السلام وقومه، وأهلك فيه فرعون وقومه، هو خليج السويس، الذي هو شعبة ممتدة من البحر الأحمر، معترضة بين مصر وبين سيناء وبلاد الشام، وهو أقرب البحار إلى مصر، وكانت مدينة القلزم التي ينسب إليها هذا البحر عند نهايته، وقد حلت محلها في هذا العد مدينة الويس، ومن ثم أصبح يسمى خليج السويس وقد صرح ياقوت بقوله: في وصف هذا البحر: القلزم في منتهاه، وهو الموضع الذي غرق فيه قوم فرعون وفرعون أيضاً، وبين هذا الموضع وفسطاط مصر سبعة أيام، بأن خليج السويس هو الذي غرق فيه فرعون وقومه.

ويؤيده ما قاله ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَبَطِلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ المقصود أن موسى عليه السلام، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين ولفزاريين والكنعانيين وغيرهم، وبلاد هؤلاء هي التي تقابل هذا الخليج من الجانب الآخر الذي نجا فيه موسى وقومه.

البحر: بباء موحدة وحا مهملة وآخره راء، كالذي قبله: ويترجح من أقوال المفسرين أن البحر المقصود هو بحر القلزم، (البحر الأحمر).

قال الله تعالى: ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا ﴾^(١).

(١) سورة الأعراف الآية - ١٦٣ .

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: واسأل يا محمد هؤلاء اليهود وهم مجاوروك، عن أمر ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ يقول: كانت بحضرة البحر، أي: بقرب البحر وعلى شاطئه.

واختلف أهل التأويل فيها، فقال بعضهم: هي أيلة. وروى بسنده عن ابن عباس: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال هي قرية يقال لها: (أيلة) بين مدين والطور.

ويسنده عن عبدالله بن كثير في قوله: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: سمعنا أنها أيلة.

ويسنده عن مجاهد في قوله: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: أيلة.

وقال آخرون: معناه: ساحل مدين. ويسنده عن قتادة: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية ذكرنا أنها كانت قرية على ساحل البحر يقال لها أيلة. وقال آخرون: هي مقنا .

وروى بسنده عن ابن زيد في قوله: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هي قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينوني.

وقال آخرون: هي مدين. وروى بسنده عن ابن عباس قال: هي قرية بين أيلة والطور يقال لها: مدين.

قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر وجائز أن تكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقنا، لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأي ذلك من أي، والاختلاف فيه على ما وصفت.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: هي قرية يقال لها: أيلة، بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي، وقال عبدالله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أيلة وقيل هي مدين وهو رواية عن ابن عباس، وقال ابن زيد، هي قرية يقال لها: مقنا بين مدين وعينوني.

قلت : وسيأتي الحديث مستوفى عن هذا البحر في الحديث عن القرية، في رسم (القرية) ان شاء الله بما فيه كفاية.

بدر : بباء موحدة مفتوحة ودال مهملة ساكنة وآخره راء مهملة: ماء مشهور بين مكة والمدينة.

قال الله تعالى في كتابة العزيز : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(١).

قال ابن جرير: يعنى بذلك جل ثناؤه: وان تصبروا وتقتوا لا يضركم كيدهم شيئا وينصركم ربكم، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ ﴾ على أعدائكم وأنتم يؤمنون ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ يعنى: قليلون، في غير منعة من الناس، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرة عددهم وقلة

(١) سورة آل عمران الآية - ١٢٣ .

عددكم، وأنتم اليوم أكثر عددا منكم حينئذ، فان تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم ذلك اليوم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ، يقول تعالى ذكره: فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: لتشكروه على ما من به عليكم من النصر على أعدائكم واظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه فخالفوكم.

قال: واختلف في المعنى الذي من أجله سمى بدر ﴿بِدْرٍ﴾ فقال بعضهم: سمى بذلك لأنه كان ماء لرجل يسمى بدرا، فسمى باسم صاحبه، عن الشعبي.

وأنكر ذلك آخرون وقالوا: ذلك اسم سميت به البقعة كما سمى البلدان بأسمائها.

ويسنده عن الضحاك: بدر ماء عن يمين طريق مكة، بين مكة والمدينة.

ويسنده عن قتادة قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ، وبدر ماء بين مكة والمدينة ، التقى عليه نبي الله ﷺ والمشركون، وكان أول قتال قاتله نبي الله ﷺ . وذكرنا أنه قال لأصحابه يومئذ: (أنتم اليوم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي جالوت). فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، والمشركون يؤمئذ ألف، أوراهاقوا ذلك.

قال ياقوت : بدر: بالفتح ثم السكون، قال الزجاج: بدر أصله الامتلاء، يقال غلام بدر اذا كان ممتلئا شابا لحما، ويقال قد بدر فلان الى الشيء ويادر اليه اذا سبق، ومعناه استعمل غاية قوته وقدراته على السرعة أي استعمل ملئ طاقتة.

وسمى القمر ليلة الأربعاء عشر بدرا لتمامة وعظمه.

وبدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادى الصفراء بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر ليلة، ويقال: أنه ينسب الى بدر ابي يخلد ابن النضر بن كنانة وقيل: بل هو رجل من بني ضمرة سكن هذا الموضع فنسب اليه ثم غلب اسمه عليه.

وقال الزبير بن بكار: قريش بن الحارث بن يخلد ويقال: مخلد بن النضر بن كنانة به سميت قريش فغلب عليها لأنه كان دليلها وصاحب سيرتها، فكانوا يقولون جاءت عير قريش وخرجت عير قريش، قال: وابنه بدر من قريش به سميت بدر التي كانت بها الوقعة المباركة، لأنه كان احتضرها، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الاسلام وفرق بين الحق والباطل، في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة.

وبين بدر والمدينة سبعة برد: بريد بذات الجيش، وبريد عبود، وبريد المرغة، وبريد المنصرف، وبريد ذات أجدال، وبريد المعلاة، وبريد الأثيل، ثم بدر، وبدر الموعد وبدر القتال وبدر الأولى والثانية: كله موضع واحد.

وقد نسب الى بدر جميع من شهدها من الصحابة الكرام، ونسب الى سكن الموضع أبو مسعود البدرى واسمه عقبة بن عمر بن ثعلبة بن أسيرة بن عسرة بن عطية بن جدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج، شهد العقبة الثانية وكان أصغر من شهدها.

وقال البكري : بدر: ماء على ثمانية وعشرين فرسخا، من المدينة في طريق مكة ومن بدر الى الجار ستة عشر ميلا وميرتها من الجار^(١).

(١) الجار كانت ميناء على ساحل البحر الأحمر .

وبدر عينان جارتان عليهما الموز والعنب والنخل، قال عبدالله بن جعفر بن مصعب الزبيري، عن معصب بن عبدالله: كان قريش بن بدر بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة دليل بني كنانة في تجارتهم، فكان يقال قدمت غير قريش، فسميت قريش به، قال وهو صاحب بدر الذي لقي عليه رسول الله ﷺ مشركي قريش، أنبط هنالك بئرا فنسب اليه.

وروى زكريا عن الشعبي، قال سميت بدرا لأنه كان ماء لرجل من جهينة اسمه بدر. قال الواعدي: ذكرت ذلك لعبدالله بن جعفر، ومحمد بن صالح فانكراه، وقالوا: لأي شيء سميت الصفراء ولأي شيء سمى الجار إنما هو اسم الموضع. قال وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغفاري فقال: سمعت شيوخنا من غفار يقولون: هو ماؤنا ومنزلنا، وما ملكة أحد قط يقال له بدر وما هو من بلد جهينة إنما هو من بلد غفار. قال الواقدي: وهو المعروف عندنا.

قال الضحاك: بدر ماء عن يمين طريق مكة بينها وبين المدينة. وبدر يذكر ولا يؤنث، جعلوه اسم ماء.

قال ابن اسحاق: نزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادي، خلف العقنقل وبطن الوادي هو ليل، وبين العقنقل الكثيب الذي خلفته قريش، والقليب بدر هو في العدو الدنيا من بطن ليل الى المدينة.

غزوة بدر الكبرى: سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام في غير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجارتهم وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون منهم مخزومة بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، وعمرو بن العاص بن وأئل بن هشام، فندب رسول الله ﷺ المسلمين اليهم وقال: هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس فحفر

بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة. وأمراً أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة.

فتجهز الناس سراعاً للخروج وقالوا: أیظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين، أما خارج وأما باعث مكانه رجلاً.

وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد. إلا أن أبا لهب بن عبدالمطلب تخلف، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجرة وبعثه فخرج عنه وتخلف أبو لهب.

وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه قال ابن هشام: خرج (يوم الاثنين) لثمان ليال خلون من شهر رمضان واستعمل عمرو بن أم مكتوم ويقال اسمه: عبدالله بن أم مكتوم أخا بني عامر بن لؤي على الصلاة بالناس، ثم ردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة.

قال ابن اسحاق: ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار، قال ابن هشام: وكان أبيض.

قال ابن اسحاق: وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان، أحدهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدم العير حذرا، حتى ورد الماء، يعني ماء بدر- فعلم بقرب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه منا فرجع إلى أصحابه سريعا، فضرب وجهه عيره عن الطريق، فساحل بها، وترك بدرا بيسار وانطلق حتى أسرع.

قال ابن اسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: انكم انما خرجتم لتنمعوا غيركم ورجالكم، فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثة فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون بها بوننا أبدا بعدها، فامضوا.

قال ابن اسحاق : ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ، خلف العقنقل ويطن الوادي ، وهو ليليل بين بدر وبين العقنقل الكثيب الذي خلفه قريش ، والقلب ببدر في العدو الدنيا من بطن ليليل إلى المدينة .. فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم الماء ، حتى اذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضا على القلب الذي نزل عليه ، فملئ ماء ، ثم قذفوا فيه الأنية .

قال ابن اسحاق : وقد ارتحلت قريش حين أصبحت ، فأقبلت فلما رآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل- وهو الكثيب الذين جاءوا منه إلى الوادي- قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة .

قال ابن اسحاق : ثم تراحف الناس ودنى بعضهم من بعض ،
وقد أمر رسول الله ﷺ أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : ان
اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل ، ورسول الله ﷺ في العريش ،
معه أبو بكر الصديق .

فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبعة عشر من شهر رمضان .
قال : ثم خرج رسول الله ﷺ الى الناس فحرضهم ، وقال : والذي
نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا
غير مدبر ، الا أدخله الله الجنة .

قال ابن اسحاق : ثم أن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء
فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال : شأهت الوجوه ، ثم نفحهم بها ، وأمر
أصحابه ، فقال : شدوا ، فكانت الهزيمة ، فقتل الله تعالى من قتل من
صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

قال ابن هشام : وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر :
أحد أحد .

قال ابن اسحاق : فجميع من شهد بدرا من المسلمين ، من
المهاجرين والأنصار من شهدا منهم ، ومن ضرب له بسهمه وأجره
ثلاث مائة رجل وأربعة عشر رجلا ، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا ،
ومن الأوس واحد وستون رجلا ، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلا .

غزوة بدر الآخرة

كانت هذه الغزوة في شهر شعبان سنة أربع .
قال ابن اسحاق : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة
الرقاع ، اقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا . ثم خرج
في شعبان الى بدر ، لميعاد أبي سفيان ، حتى نزلة .

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الأنصاري .

قال ابن اسحاق : فأقام عليه ثمانى ينتظر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة ، من ناحية الظهران ، وبعض الناس يقول : قد بلغ عسфан ، ثم بدا له في الرجوع ، فقال : يامعشر قريش أنه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن وأن عامكم هذا عام جذب وانى راجع فارجعوا ، فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق ، يقولون : انما خرجتم تشربون السويق .

وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لمعيادة ، فأثاه مخشى بن عمرو الضمري وهو الذي كان وادعه على بنى ضمرة في غزوة ودان ، فقال : يامحمد أجيئت للقاء قريش على هذا الماء ، قال نعم : ياأخا بنى ضمرة ، وأن شئت مع ذلك رددنا اليك ما كان بيننا وبينك ثم جالد ناك حتى يحكم الله بيننا وبينك ، قال : لا والله يامحمد ، ما لنا بذلك منك من حاجة .

قلت : ولعبد الله بن رواحة ولحسان بن ثابت في ذلك شعر ذكره ابن هشام في سيرته ، قلت : هذا هو بدر الذي جرت فيه غزوات رسول الله ﷺ ، وهو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف .

وقد نشأت في بدر بلد نامية " تبعد عن المدينة المنورة (١٥٥) كيلا وعن مكة (٣١٠) أكيال ، وتبعد عن سيف البحر قرابة (٤٥) كيلا وكان ميناؤها الجار . فلما اندرست قامت بالقرب منها بلدة (الرئيس) ومنها اليوم يجلب السمك الى بدر ، وسكانها حرب ،

غالبهم بنو صبح ، وبها مدارس ومسجد جامع ، وأمانة عموم وادي الصفراء وساحل الجار^(١) .

وبلدة بدر تابعة في كل شئونها الإدارية والاجتماعية لامارة المدينة ، وموقعها بالنسبة للمدينة في الجنوب الغربي .

بدر أيضاً كالذي قبله : جبل أحمر ، يقع في ناحية وادي الركا اليسرى ، يمر مجرى الركا بينه وبين هضاب الكفل ، وفيه ماء لقبيلة الدواسر وهو واقع في ناحية بلادهم الشمالية مما يلي بلاد قحطان ، واقع في بلاد بنى الحريش قد يما ومعروف أن بلاد بنى عامر الحريش وغيرهم تشمل اليوم بلاد الدواسر وبعضها من بلاد قحطان في هذا العهد ، والماء الذي فيه يسمى : البدرية ، تابع لامارة الدواسر .

وقد ذكره ياقوت ، وقال : وبدر جبل في بلاد باهلة بن أعصر ، وهناك أرماء الجبل المعروف ، وأحد جبلين يقال لهما : بدران في أرض بنى الحريش واسم الحريش : معاوية بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

قلت : وهذا الجبل أصبح يذكر معرفا بالألف واللام : فيقولون له ، البدر ، وللماء الذي فيه البدرية نسبة اليه .

قال ياقوت : وبدر أيضاً : مخلاف باليمن ، وهو غير الأول .
وبدر أيضاً : محافظة من محافظات أمانة نجران في هذا العهد .

بطن مكة : بباء موحد مفتوحة وطاء مهملة ساكنة وآخره نون موحدة ، مضاف الى مكة البلد الحرام : موضع في مكة .

(١) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية - ٤١ .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره نرسول الله ﷺ ، والذين بايعوه بيعه الرضوان : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ يعنى أن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم ، ما بعث رسول الله ﷺ فأتى بهم أسرى ، فخلى عنهم رسول الله ﷺ ومن عليهم ولم يقتلهم فقال الله للمؤمنين : وهو الذي كف أيدي هؤلاء المشركين عنكم ، وأيدكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم .

روى بسنده عن عبد الله بن مغفل أن رسول الله ﷺ كان جالسا في أصل شجرة بالحديبية ، وعلى ظهره غصن من أغصان الشجرة فرفعتها عن ظهره ، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه بين يديه وسهيل بن عمرو ، وهو صاحب المشركين ، فقال رسول الله ﷺ لعلى : (أكتب بسم الله الرحمن الرحيم) ، فأمسك سهيل بيده ، فقال : ما نعرف الرحمن ، أكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال رسول الله ﷺ : (أكتب باسمك اللهم) ، فكتب فقال : (هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة) فأمسك سهيل بيده ، فقال : لقد ظلمناك أن كنت رسولا ، أكتب في قضيتنا ما نعرف قال : (أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وأنا رسول الله) فخرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا اليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : (هل خرجتم في أمان أحد) قال : فخلى عنهم ، قال : فأنزل الله

(١) سورة الفتح الآية : ٢٤ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ . وروى بسنده عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم ، فأخذهم رسول الله ﷺ فأعتقهم ؛ فأنزل الله ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وروى الفاكهي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه - قال لما كان يوم الحديبية ، نزل على رسول الله ﷺ ، ثمانين رجلاً من التنعيم من أهل مكة في سلاحهم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذوا سلماً . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : يعني أن جبل التنعيم من مكة .

وقال الفاكهي : وبكة : الوادي الذي به الكعبة ، وبطن مكة سائر الوادي مكة : فمن ذلك المربع حائط بن برمك هلم جراء . وفخ وهو أعظمها وصدره شعب بنى عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) . وقال أيضاً : بطن مكة مما يلي ذا طوى ما بين الثنية البيضاء التي تسلك إلى التنعيم ، إلى ثنية الحصاص التي بين ذي طوى وبين الحصاص .

قال المحقق : الثنية البيضاء هي الثنية التي تؤدي بك إلى التنعيم ، بينها وبين مسجد عائشة ما يقارب الكيلو الواحد .

(١) فخ هو الذي أصبح يدعى الزاهر .

وثنية الحصاص : هو الربع الذي على يمينك وأنت متوجه الى الشهداء بعد أن تجعل ربع الكحل في ظهرك ، وهذا الربع يهبط بك الى اللصوص قادمًا من الشهداء ، ويقع هذا الربع في جبل الحصاص ، بل أن جبل الحصاص ينحصر بين ربع الكحل وربع الحصاص هذا .

فهذه الفسحة العريضة وما تضم من حى الزهراء والشهداء = أنها هي بطن مكة .

وقال الأزرقى : بطن مكة مما يلي ذا طوى ما بين الثنية البيضاء التي تسلك الى التنعيم الى ثنية الحصاص التي بين ذى طوى وبين الحصاص .

وقال محققه : بطن مكة هو وادى الزهراء أو الشهداء .
وفي شعر كعب بن زهير رضي الله عنه .

أن الرسول لنور يستضاف به مهند من سيوف الله مسلول
ويروى : أن الرسول لنور يستضاء به .

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
ويروى : في عصابة من قريش .

زالوا فما زال انكاس ولا كشف عن اللقاء ولا ميل معازيل
وقال عبد الله بن الزبير في وقعة الفيل لمكة :

تنكلوا عن بطن مكة انها كانت قد يما لا يرام حريمها
وقال أمية بن أبى الصلت في رثاء من أصيب من قريش يوم بدر :
ألا تــــرون لــــما أرى ولقد أبان لكل لا مح

أن قد تغير بطن مك —————
من كل بطريق لبطر —————
ة فهي موحشة الأباطح —————
يق نقى القول واضح

بعل : بباء موحدة مفتوحة وعين مهملة ساكنة وآخره لأم :
صنم لقوم الرسول الياس عليه السلام في بعلبك ، على
أرجح الأقوال .

قال الله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴾ ^(١) .

روى ابن جرير بسنده عن عمارة عن عكرمة في قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ
بَعْلًا ﴾ يقول أتدعون ربا أهى لغة أهل اليمن ، تقول من بعل هذا الثور :
أي ربه ؟ .

ويسنده عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ ؟ قال : ربا .
ويسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال : هذه لغة باليمانية :
أتدعون ربا دون الله .

وقال آخرون : هو صنم كان لهم يقال له بعل ، وبه سميت بعلبك .
وروى بسنده عن الضحاك ، يقول في قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾
يعنى : صنما كان لهم يسمى بعلا .

ويسنده عن ابن زيد في قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَلْقِينَ ﴾

(١) سورة الصافات الآية : ١٢٥ .

قال : بعل : صنم كانوا يعبدونه ، كانوا ببعليك ، وهم وراء دمشق ، وكان بها البعل الذي يعبدونه .

وقال القرطبي : قال ثعلب : اختلف الناس في قوله عز وجل ها هنا ﴿ بَعْلًا ﴾ فقالت طائفة : البعل ها هنا الصنم . وقال طائفة : البعل ها هنا ملك . وقال ابن اسحاق : امرأة كانوا يعبدونها . والأول أكثر . وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال : صنما . وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال : ريا . النحاس : والقولان صحيحان أي أتدعون صنما عملتموه ريا . يقال : هذا بعل الدار أي ربها . فالمعنى أتدعون ريا اختلقتموه ، و ﴿ أَتَدْعُونَ ﴾ بمعنى أتسمون . حكى ذلك سييويه .

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي : البعل الرب بلغة اليمن . وسمع ابن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال : من بعل هذه ؟ أي من ربها ، ومنه سمى الزوج بعلا .

وقال أبو داؤد :

ورأيت بعلك في الوغى متقلدا سيفاً ورمحاً

وقال مقاتل : صنم كسره الياس وهرب منهم وقيل : كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنه يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام . وبه سميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴾ أي

أحسن من يقال له خالق . وقيل : المعنى أحسن الصانعين ، لأن الناس يصنعون ولا يخلقون .

قال ياقوت : بعل : شرف البعل : جبل في طريق الشام من المدينة .
وأما بعل في قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ ،
فهو صنم كان لقوم الياس النبي ، عليه السلام ، وبه سمى بعلبك ،
وهو معظم عند اليونانيين ، كان بمدينة بعلبك من أعمال دمشق ثم
من كورة سنير ، وقد كانت يونان اختارت لهذا الهيكل قطعة من
الأرض في جبل لبنان ثم في جبل سنير فاتخذته بيتا للاصنام ، وهما
بيتان عظيمان أحدهما أعظم من الآخر ، وصنعوا فيهما من النقوش
العجيبة المحفورة في الحجر الذي لا يتأتى حفر مثله في الخشب ، هذا
مع علو سمكها وعظم أحجارها وطول أساطينها .

قال ابن كثير : في قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ
أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة
وقتادة والسدي : بعلا يعني ربا . قال عكرمة وقتادة وهي لغة أهل
اليمن ، وفي رواية عن قتادة قال : وهي لغة ازد شنوءة .

وقال ابن اسحاق : اخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا
يعبدون امرأة أسمها بعل ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن
أبيه : هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها : بعلبك غربي
دمشق .

وقال الضحاك : هو صنم كانوا يعبدونه . وقوله تعالى :
﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي تعبدون صنما ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أي

هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي للعذاب يوم الحساب .

وفي القاموس الاسلامي : بعل : البعل لغة ، الزوج والمصدر بعولة ، وقد وردت في القرآن بهذا المعنى في عدة مواضع : ﴿ وَإِنَّ آةَ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾ .

والبعل هو الرب والاله والصنم ، أو هو اسم على صنم معين ، والقائلون بهذا المعنى يرجعون كل بعل الى أصل سامي قديم ويذهبون الى أن مدينة بعلبك ، أخذت اسمها من الاله بعل الذي كان يعبد في هذه المدينة ، وقد وردت بعل في هذا المعنى مرة واحدة في سورة الصافات ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٣٢) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٣٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٣٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٣٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٣٨)

واتفقت أكثر آراء المفسرين على أن المقصود بالبعل الصنم اطلاقا . ولا تشير الآية الى اسم صنم معين مما قد يوحي بأن هذه القصة تعتمد على أصل عبري .

قال : وبعلبك بلدة لبنانية قديمة بأقليم البقاع . تشتهر بمعبدتها الذي أقامه الامبرطور أنطو نينوس ابان القرن الثاني الميلادي ، ويشترك البعض اسمها من الاله بعل . استولى عليها العرب عام ١٦هـ (٦٣٧م) على يد أبي عبيدة فاتح الشام . وتداولتها ايدي

الولاة الذين حكموا الشام باسم الخلفاء والسلاطين . يبلغ عدد سكانها نحو خمسة آلاف .

قلت : ومما تقدم من أقوال المفسرين والمؤرخين يترجح أن بعلا صنم يعبده قوم الياس عليه السلام ، وأنه كان في بعلبك .

بكّة : بباء موحدة مفتوحة وكاف مشددة مفتوحة وآخره هاء : يراد به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في ذلك ، فقال بعضهم : تأويله أن أول بيت وضع للناس ، يعبد الله فيه مباركا وهدى للعالمين ، الذي بمكة ، قالوا : وليس هو أول بيت وضع في الأرض ، لأنه قد كانت قبله بيوت كثيرة .

وروى بسنده عن خالد بن عرعة قال : قام رجل الى على فقال ألا تخبرني عن البيت ؟ أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ فقال : لا ، ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا .

وبسنده عن الحسن قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، قال : هو أول مسجد عبد الله فيه في الأرض .

وقال آخرون : بل هو أول بيت وضع للناس .

(١) سورة آل عمران الآية : ٩٦ .

وروى بسنده عن مجاهد قوله : أن أول ما خلق الله الكعبة ، ثم دحى الأرض من تحتها .

وروى بسنده عن السدى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، أما ﴿ أَوَّلَ بَيْتٍ ﴾ فإنه يوم كانت الأرض ماء ، كان زبدة على الأرض ، فلما خلق الله الأرض خلق البيت معها ، فهو أول بيت وضع في الأرض .

وبسنده عن قتادة في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، قال : أول بيت وضعه الله عز وجل فطاف به آدم ومن بعده .

وقال آخرون : موضع الكعبة ، موضع أول بيت وضعه الله في الأرض . قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك ما قال جل ثناؤه فيه : أن أول بيت مبارك وهدى وضع للناس ، للذي ببكة . ومعنى ذلك : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ ، أي : لعبادة الله فيه ، ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى ﴾ ، يعنى بذلك : وما بنسك الناسكين وطواف الطائفين ، تعظيما لله واجلالا له ، ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ لصحة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ وذلك ما :

حدثنا به محمد بن المثنى قال ، حدثنا ابن أبي عدي ، عن شعبه ، عن سليمان ، عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال ، قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام . قال : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى . قال : كم بينهما . قال : أربعون سنة .

فقد بين هذا الخبر عن رسول الله ﷺ أن المسجد الحرام هو أول مسجد وضعه الله في الأرض .

وأما قوله ﴿ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، فانه يعنى : للبيت الذي بمزدحم الناس لطوافهم في حجهم وعمرتهم .

وأصل (البكة) الزحم ، يقال : منه : (بك فلان فلانا) إذا زحمة وصدمه ، (فهو يبكه بكا وهم يتباكون فيه) ، يعنى به : يتزاحمون ويتصادمون فيه ، فكأن (بكة) (فعله) من (بك فلان فلانا) زحمة ، سميت البقعة بفعل المزدحمين بها .

فاذا كانت (بكة) ما وصفنا ، وكان موضع ازدحام الناس حول البيت ، وكان لا طواف يجوز خارج المسجد ، كان معلوما بذلك أن يكون ما حول الكعبة من داخل المسجد ، وأن ما كان خارج المسجد فمكة ، لا (بكة) . لأنه لا معنى خارجه يوجب على الناس التباك فيه .

واذ كان ذلك كذلك قد بينا بذلك فساد قول من قال : (بكة) اسم لبطن (مكة) ومكة اسم للحرم .

وروى بسنده عن أبى مالك الغفارى في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ ، قال : (بكة) موضع البيت ، (مكة) ما سوى ذلك .

وروى بسنده عن مجاهد قال : انما سميت (بكة) لأن الناس يتباكون فيها ، الرجال والنساء .

ويسنده عن قتادة قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، فان الله بك به الناس جميعاً فيصلى النساء قدام الرجال ، ولا يصلح ببلد غيره .

ويسنده عن عطية العوفى قال : (بكة) موضع البيت ومكة ما حولها .
ويسنده عن ضمرة بن ربيعة : (بكة) المسجد ، ومكة ما حوله .
ويسنده عن الضحاك في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ قال : هي مكة .

وقيل : ﴿ مُبَارَكًا ﴾ لأن الطواف به مغفرة للذنوب .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أى لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون به ويعتكفون عنده ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ يعنى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذى يزعم كل من طائفتى النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجة ولا يحجون الى البيت الذى بناه عن أمر الله له فى ذلك ونادى الناس الى حجة ولهذا قال تعالى ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أى وضع مباركاً ﴿ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ وقد قال الامام أحمد : حدثنا سفيان عن الأعشى عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قلت : ثم أى ؟ قال : ﴿ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ قلت : كم بينهما ؟ قال (أربعون سنة) قلت ثم أى ؟ قال (ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد) وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الأعمش .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور قيل : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها ، وقيل : لأن الناس يتباكون فيها ويزدحمون .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ بكة : موضع البيت ومكة سائر البلد ، عن مالك بن أنس . وقال محمد بن شهاب : بكة المسجد ، ومكة الحرم كله تدخل فيه البيوت . وقال مجاهد : بكة هي مكة ، فالميم على هذا مبدلة من الباء ، كما قالوا : طين لازب ولازم .

ثم قيل : بكة مشتقة من البك وهو الازدحام ، تباك القوم ازدحموا ، وسميت بكة لزدحام الناس في موضع طوافهم . والبك دق العنق .

وقيل : سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة اذا ألدوا فيها بظلم .

وقال ياقوت : بكة : مكة بيت الله الحرام ، أبدلت الميم باء وقيل : بكة ، بطن مكة ، وقيل : موضع البيت المسجد ومكة وما وراءه ، وقيل : البيت مكة وما والاها بكة ، وقال ابن الكلبي : سميت مكة لأنها بين جبلين بمنزلة المكوك ، وقال أبو عبيدة : بكة اسم لبطن مكة ، وذلك أنهم كانوا يتباكون فيه أي يزدحمون .

وروى عن مغيرة عن إبراهيم قال : مكة موضع البيت وبكة موضع القرية ، وقال عمرو العاص : انما سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة ، وقال يحيى بن أبي أنيسة : بكة موضع البيت ومكة الحرم كله .

وقال زيد بن أسلم : بكة الكعبة والمسجد ومكة ذو طوى وهو بطن مكة الذي ذكره الله تعالى في القرآن في سورة الفتح . وقيل : بكة لتباك الناس بأقدامهم قدام الكعبة .

قلت : فيما تقدم من أقوال العلماء يتبين أنهم اختلفوا في تعريف (بكة) و (مكة) وقد علل كلّ منهم باجتهاده ما قاله ، غير أن هذا الاختلاف لم يناف عن صفة هذه البلد الحرام وما خصها الله به من البركة والهدى وفي رسم (مكة) مزيد من الايضاح فانظروا .

البلد : هو بباء موحدة مفتوحة بعدها لام مفتوحة واخره دال مهملة : ويراد به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى على لسان خليفة إبراهيم : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۖ وَطُورِ سِينِينَ ۖ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٦ .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٥ .

(٣) سورة النمل الآية : ٩١ .

(٤) سورة البلد الآية : ١-٢ .

(٥) سورة التين الآية : ١-٣ .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ يعنى بقوله ﴿ ءَامِنًا ﴾ من الجبابة وغيرهم ، أن يسلطون عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان ، من خسف وائتفاك وغرق ، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب غيره .

فان قال قائل : أو ما كان الحرم آمنا الا بعد أن سأل إبراهيم ربه له الأمان ؟ قيل له : لقد اختلف في ذلك ، فقال بعضهم : لم يزل الحرم آمنا من عقوبة الله وعقوبة جبابة خلقة ، منذ خلقت السماوات والأرض ، واعتلوا في ذلك بما :

وروى بسنده عن أبي شريح الخزاعي يقول : لما فتحت مكة قتلت خزاعة رجلا من هذيل ، فقام رسول الله ﷺ خطيبا فقال : يا أيها الناس أن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا تحل لا مرء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرا . ألا وانها لا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى الا هذه الساعة غضبا على أهلها .

ألا فهي قد رجعت على حالها . ألا ليبليغ الشاهد الغائب . فمن قال : أن رسول الله قد قتل بها فقولوا : أن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لك .

وروى بسنده عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لمكة حين افتتحها : هذه حرم حرما الله يوم خلق السماوات والأرض ، وخلق الشمس والقمر ، ووضع هذين الأخشبين ، لم تحل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى ، أحلت لى ساعة من نهار " .

قالوا : فمكة ، منذ خلقت حرام حرم آمن من عقوبة الله وعقوبة الجبابة .

قالوا : وقد أخبرت عن صحة ما قلنا من ذلك الرواية الثابتة
عن رسول الله ﷺ التي ذكرناها .

قالوا : لم يسأل إبراهيم ربه أن يؤمنه من عقوبته وعقوبة
الجبابرة ، ولكنه سأله أن يؤمن أهله من الجدوب والقحوص ، وأن يرزق
سكانه من الثمرات كما أخبر ربه عنه أنه سأله بقوله ﴿ وَإِنِّ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ
مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ۝

قالوا : وانما سأل ربّه ذلك لأنّه أسكن فيه ذريته ، وهو غير ذى زرع ولا ضرع ، فاستعاذ ربّه من أن يهلكهم بها جوعا وعطشا ، فسأله أن يؤمنهم مما حذر عليهم منه .

قالوا : وكيف يجوز أن يكون إبراهيم سأل ربه تحريم الحرم وأن يؤمنه من عقوبته وعقوبة جبابرة خلقه ، وهو القائل ، حين حله ونزله بأهله وولده : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ .

قالوا : فلوا كان إبراهيم هو الذي حرم الحرم ، أو سأل ربه
تحريمه ، لما قال : ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ عند نزوله به ، ولكنه حرم
قبله ، وحرّم بعده .

وقال آخرون : كان الحرم حلالا قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد وغيره ، وإنما صار حراما بتحريم إبراهيم إياه ، كما كانت مدينة رسول الله ﷺ حلال قبل تحريم رسول الله ﷺ أيها . قالوا : والدليل على ما قلنا من ذلك ، ما :

روى بسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ أن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه ، وإنى حرمت المدينة ما بين لا بتيها ، لا يصاد صيدها ولا تقطع عضاها .

وروى بسنده عن نافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : أن إبراهيم كان عبد الله وخليله ، وإنى عبد الله ورسوله ، وأن إبراهيم حرم مكة ، وإنى حرمت المدينة ما بين لا بتيها ، عضاها وصيدها ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير .

وروى بسنده عن رافع بن خديج قال : قال رسول الله ﷺ : أن إبراهيم حرم مكة ، وإنى أحرم المدينة ما بين لا بتيها ، وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول باستيعابها الكتاب .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ أَلْبَدَءَ آمِنًا ﴾ يعنى مكة ، فدعا لذريته وغيرهم بالأمن ورغد العيش ، فروى أنه لما دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فاقتلع الطائف من الشام فطاف بها حول البيت أسبوعا ، فسميت الطائف لذلك ، ثم أنزل تهامة ، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء ولا نبات ، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها ، وأنبت فيها أنواع الثمرات .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ يعنى مكة ، ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ أي اجعلني جانبا عن عبادتها ، وأراد بقوله : ﴿ بَنِيَّ ﴾ بنيه من صلبه وكانوا ثمانية ، فما عبد أحد منهم صنما ، وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له .

وقرأ الحجدري وعيسى : ﴿ وَأَجْنُبْنِي ﴾ بقطع الألف والمعنى واحد ، يقال : جنبت ذلك الأمر وأجنبته أياء فتجانبه واجتنبه أي تركه .

وكان إبراهيم التيمي يقول في قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : ﴿ وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ كما عبدها أبيه وأمه .

وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾

قال ابن جرير : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ﴾ وهي مكة ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ على خلقة أن يسفكوا فيها دما حراما ، أو يظلم فيها أحد ، أو يصاد صيدها ، أو يختلا خلاها دون الأوثان التي تعبدونها أيها المشركون .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ يعني مكة .

وقال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ ﴾ قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : أقسم يا محمد بهذا البلد الحرام وهو مكة وكذا قاله أهل التأويل :

وروى بسنده عن ابن عباس في قوله ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(١) يعني مكة .

ويسنده عن مجاهد ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قال مكة .

ويسنده عن قتادة ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قال البلد مكة .

ويسنده عن عطاء في قوله : ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني مكة .

وقال تعالى : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ .

قال ابن جرير : قوله : ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ يقول : وهذا البلد الأمين من أعدائه أن يحاربوا أهله أو يغزوهم . وقيل : ﴿الْأَمِينِ﴾ ومعناه الأمين ، وهذا كما قال جل ثناؤه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾^(١) . وانما عنى بقوله : ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ : مكة .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قوله ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ قال : مكة .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ والبلد هي مكة ، أجمعوا عليه أي أقسم بالبلد الحرام الذي أنت فيه ، لكرامتك على وحيي لك .

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦٧ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۖ وَطُورِ سِينِينَ ۚ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۚ ﴾ (١) يعنى مكة ، سماه أمينا لأنه آمن ، كما قال : ﴿ أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ۚ فَالْأَمِينُ : بمعنى الآمن .

وبهذا احتج من قال : أنه أراد بالتين دمشق ، وبالزيتون بيت المقدس ، فأقسم الله بجبل دمشق ، لأنه مأوى عيسى عليه السلام ، وبجبل بيت المقدس ، لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام ، وبمكة لأنها أثر إبراهيم ودار محمد ﷺ .

قلت : وما تقدم هو موجز لما قاله المفسرون في تفسير الآيات الكريمة التي . جاء فيها ذكر البلد الأمين .

البيت : بباء موحدة مفتوحة وياء مثناه ساكنة وتاء مثناة : البيت الحرام الذي بمكة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۚ ﴾ (١) .
وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ۚ ﴾ (٢) .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۚ ﴾ (٣) .

وقال ابن جرير : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۚ ﴾
يثبون اليه من كل مكان ولا يقضون منه وطرا .

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٧ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٩٦ .

ويسنده عن سعيد بن جبير : قال يحجون ويثوبون .
ويسنده عن قتادة ، قال : مجمعا .

وفي آية آل عمران : بين الله تبارك وتعالى هذا البيت وحدد مكانه بمكة .
قال ابن جرير : وأما قوله : ﴿ بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ فإنه يعنى
للبيت الذي بمزدحم الناس لطوافهم في حجهم وعمرتهم . وأصل
البك الزحم .

ويسنده عن أبي مالك الغفاري في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ
لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ قال مكة . قال : (بكّة) موضع البيت ومكة ما
سوى ذلك .

ويسنده عن غالب بن عبيد الله : أنه سأل ابن شهاب عن بكّة ، قال :
(بكّة) البيت والمسجد . وسأله عن (مكة) ، فقال ابن شهاب مكة الحرم كله .

قلت : ولما لبّيت الله الذي بمكة من الشهرة ولأن سياق الآيات
فيه دليل على أن المقصود به بيت الله الذي بمكة فأننى أكتفى بهذا
القدر من أقوال المفسرين في تحديد هذا البيت المبارك الذي بمكة
جعله الله مبارك وهدى للعالمين .

وفي رسم (مكة) ورسم (البلد الحرام) مزيد من الإيضاح فيما فيه
كفاية أن شاء الله .

البيت العتيق : المقصود به الكعبة المشرفة التي في مكة .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ
وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾^(١) .

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٥ .

وقال تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ
الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ ^(١).

قال ابن جرير : قوله تعالى ﴿ وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾
يقول : ليطوفوا ببیت الله الحرام .

واختلف أهل التأويل في معنى قوله ﴿ الْعَتِيقِ ﴾ في هذا الموضع ،
فقال بعضهم : قيل ذلك لبیت الله الحرام لأن الله أعتقه من الجبابة
أن يصلوا الى تخريبه وهدمه .

ويسنده أن ابن الزبير قال : انما سمى البيت العتيق لأن الله
أعتقه من الجبابة .

ويسنده عن مجاهد قال : انما سمى العتيق لأنه أعتق من الجبابة .
ويسنده عن قتادة قال : أعتق من الجبابة .
وقال آخرون : قيل له عتيق لأنه لن يملكه أحد من الناس .

ويسنده عن مجاهد ، قال : انما سمى البيت العتيق لأنه ليس
لأحد فيه شيء .

وقال آخرون : سمى بذلك لقدمه .
ويسنده عن ابن زيد قال العتيق القديم ، لأنه قديم كما
يقال : السيف العتيق لأنه أول بيت وضع للناس بناه آدم ، وهو أول من
بناه ثم بوأ الله موضعه لإبراهيم بعد الغرق فبناه إبراهيم واسماعيل .

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٥ .

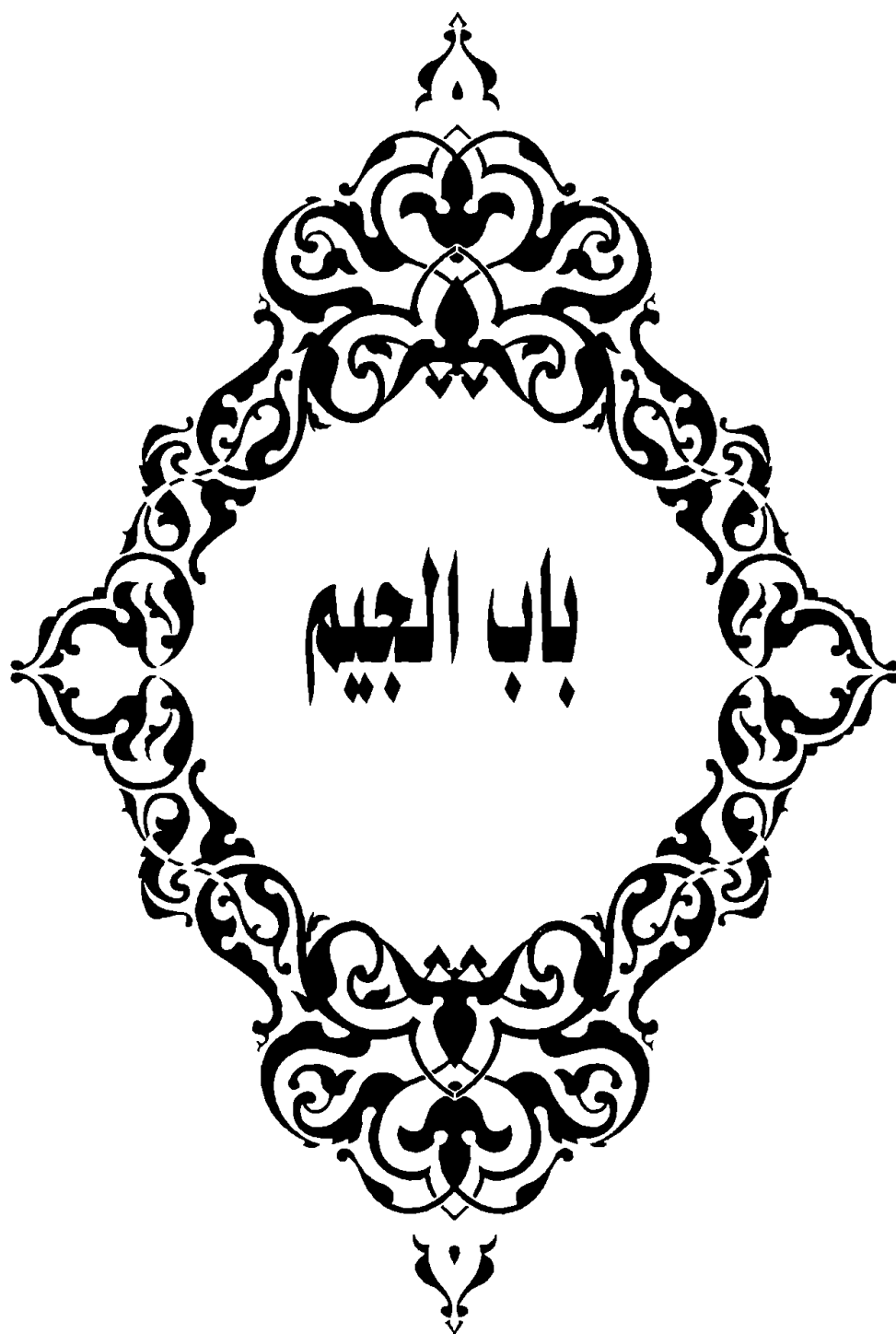
وبسنده عن عبد الله بن الزبير ، قال : قال رسول الله ﷺ (انما سمي البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجابرة فلم يظهر عليه قط) .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قال : لأنه أول بيت وضع للناس ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وعن عكرمة أنه قال : انما سمي البيت العتيق لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح ، وقال خصيف : انما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط .

وقال ابن أبي نجيح والليث عن مجاهد : أعتق من الجابرة أن يسلطوا عليه ، وكذا قال قتادة . وقال حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن سلم عن مجاهد : لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن الزبير قال : انما سمي البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجابرة .

وقال ياقوت : البيت العتيق : هو الكعبة ، وقيل هو اسم من أسماء مكة ، سمي بذلك لعتقه من الجبارين أي لا يتجبرون عنده بل يتذللون ، وقيل بل لأن جبارا لا يدعيه لنفسه ، وقد يكون العتيق بمعنى قديم ، وقد يكون معنى العتيق الكريم ، وكل شيء كرم وحسن قيل له عتيق .

قلت : هذا خلاصة ما ذكره علماء التفسير عن تسمية البيت العتيق ، وبهذا القدر من الحديث أكتفى لما لهذا البيت المقدس العتيق الحرام من الشهرة الاسلامية والتاريخية عند المسلمين .



الجبل : بجيم معجمة مفتوحة وباء موحدة مفتوحة وآخره لام
: جبل الطور .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۖ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ۖ ﴾ ^(٢) .

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قول الله ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال ما تجلى منه الا قدر الخنصر ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : ترابا ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ قال : مغشيا عليه .

وروى بسنده عن قتادة قوله : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : انقعر بعضه على بعض ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ أي : ميتا .

وروى بسنده عن أنس : أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال هكذا باصبعه - ووضع النبي ﷺ الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل .

قال ابن كثير : وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَكِنْ أَنْظَرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَيْنِي ﴾ فإنه أكبر منك وأشد

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ١٤٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية رقم : ١٧١ .

خلقا ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ فنظر الى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا وقال عكرمة : جعل دكا قال نظر الله الى الجبل فصار صحرا ترابا وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه والمعروف أن الصعق هو الغشى وهنا كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسر قدامة بالموت وأن ذلك صحيحا في اللغة .

ويفهم من الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي سعيد رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور .

أن الجبل الذي تجلى له ربه تعالى هو جبل الطور .
وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : واذكر يا محمد اذ اقتلعنا الجبل فرفعناه فوق بنى اسرائيل ، كأنه ظلّه غمام من الظلال ، وقلنا لهم : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ من فرائضنا وألزمناكم من أحكام كتابنا فاقبلوه ، اعملوا باجتهاد منكم في أدائه من غير تقصير ولا توان ، ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ يقول : ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، يقول : كي تتقوا ربكم ، فتخافوا عقابه بترككم العمل به اذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المواثيق .

وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل :

وروى بسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ ، فهو قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ ﴾^(١) فقال : خذوا ما آتيناكم بقوة ولا أرسلناه عليكم .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ ﴾ هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ ، قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شيء قلعت فرميت به فقد نتقته ، وقيل : نتقناه رفعنا .

قال ابن الأعرابي : النائق الرافع ، والنائق الباسط ، والنائق الفائق ، وامرأة نائق ومنتاق : كثيرة الولد .

واختلف في الطور ، فقيل : الطور اسم للجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه في التوراه دون غيره ، رواه ابن جريج عن ابن عباس .

قال ابن كثير : وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم . فقالوا : انشرها علينا فإن كانت أوامرنا ونواهيها سهلة قبلناها ، فقال : بل

(١) سورة النساء الآية رقم : ٥٤ .

باب الجيم

أقبلوها بما فيها ، فراجعوه مرارا ، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤسهم حتى صار كأنه ظلة- أي غمامة- على رؤسهم ، وقيل لهم أن لم تقبلوها بما فيها والا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود ، فجعلوا إلى الجبل بشق وجوههم ، فصارت سنة اليهود الى اليوم ، يقولون : لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب .

قلت : من هذه النصوص يفهم أن الجبل الذي رفعه الله على بنى اسرائيل هو جبل الطور . وسيأتي في رسم (الطور) مزيد من الايضاح عن الطور بما فيه كفاية ان شاء الله .

الجودى : بجيم معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة فдал مهملة بعدها ياء : جبل مطل على الجزيرة في العراق ، من أعمال الموصل .

قال الله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) .

قال البخاري في صحيحة، عن مجاهد: الجودى جبل بالجزيرة. وقال ابن حجر: وقال مجاهد: الجودى جبل بالجزيرة، وصله ابن أبى حاتم من طريق ابن أبى نجيح عنه ، وزاد : تشامت الجبال يوم الغرق وتواضع هو لله فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ يعنى الفلك ، ﴿ وَأَسْتَوَتْ ﴾ أرست ﴿ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ وهو جبل فيما ذكر بنا حية الموصل أو الجزيرة .

(١) سورة هود الآية رقم : ٤٤ .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ ، أبقاها الله لنا بوادي أرض الجزيرة عبرة وآية .

وبسنده عن الضحاك يقول : ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ هو جبل الموصل .

قال ياقوت : الجودي : ياؤه مشددة : وهو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة ، من أعمال الموصل ، عليه استوت سفينة نوح عليه السلام . هـ

قال ابن بطوطة في وصف طريقة من الموصل الى نصيبين : رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبنى وبه خان كبير ، ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة ، ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر ، وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ، ولذلك سميت جزيرة ، أكثرها خراب ولها سوق حسنة عتيق مبنى بالحجارة محكم العمل ، وسورها مبنى بالحجارة أيضا وأهلها فضلاء لهم محبة بالغرباء ، يوم نزلنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله ، عز وجل ، الذي استوت عليه سفينة نوح ، عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل .

ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين^(١) .

وقال المسعودي : وكان ركوبهم يعني نوحا ومن معه في السفينة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من آذار ، فأقام نوح ومن معه في السفينة على ظهر الماء وقد غرق جميع الأرض خمسة أشهر ثم أمر الله تعالى الأرض أن تبتلع الماء والسماء أن تقلع واستوت

(١) رحلة ابن بطوطة / ٢٣٦ .

السفينة على الجودى ، والجودى جبل ببلاد باسورى ، وجزيرة ابن عمر ببلاد الموصل ، وبينه وبين دجلة ثمانية فراسخ ، وموضع جنوح السفينة على رأس هذا الجبل إلى هذه الغاية .

ونزل نوح من السفينة ومعه أولاده الثلاثة ، وهم : سام وحام ، وياث ، وكناته الثلاث أزواج أولاده وأربعون رجلا وأربعون امرأة وصاروا إلى سفح الجبل فابتنوا هنالك مدينة وسموها ثمانين ، وهو اسمها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٣٢ ، ودثر عقب هؤلاء الثمانين نفسا ، وجعل الله نسل الخليقة من نوح من الثلاثة من ولده ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ ^(١) .

قال ابن كثير : ذكر الله تعالى في كتابه الجودى على التعيين ، وهو جبل عظيم في شرق جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة ، عند الموصل ، إمتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام ، وارتفاع مسيرة نصف يوم ، وهو أخضر لأن فيه شجرا من البلوط ، وإلى جانب قرية يقال لها : قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام ^(٢) . هـ

وقال ابن الأثير : قال ابن عباس : وطافت السفينة - يعنى سفينة نوح - بالأرض كلها لا تستقر حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ودارت بالحرم أسبوعا ثم ذهبت في الأرض تسير بهم ، حتى أنتهت إلى الجودى ، وهو جبل بقردى بأرض الموصل فاستقرت عليه فقل عند ذلك : ﴿ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) . هـ

(١) مروج الذهب ١ - ٥١ .

(٢) البداية والنهاية ١ - ٢١ .

(٣) الكامل في التاريخ ١ - ٧٢ .

قلت : هذا هو جبل الجودى ، الذي إستوت عليه سفينة نوح عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم وهو واقع في شمال العراق ، في ناحية الموصل ، مطل على جزيرة ابن عمر . وقد إستوفيت الحديث عن جزيرة ابن عمر في رسم (الجزيرة) ، وقد اتفق المؤرخون في وصفه وتحديده .

قال ياقوت : والجودى أيضاً : جبل بأجا أحد جبلي طيء ، وإياه أراد أبو صعتره البولاني بقوله :

فما نطفة من حب مزن تقاذفت به جنبتا الجودى والليل دامس
فلما أقرته اللصاف تنفست شمالا لأعلى مائه فهو قارس
بأطيب من فيها وما ذقت طعمة ولكننى فيما ترى العين فارس

قلت : والجودى أيضاً ، ذكره ابن الأثير ، في حديثه عن حوادث سنة (٦٠٢) ، قال : إنهمز شهاب الدين محمد بن سام الغورى ، صاحب غزنة ، من الخطا الكفار .. وظهر الخبر ببلادة أنه عدم من المعركة ، ولم يقف أصحابه له على خبر ، فلما أشتهر هذا الخبر ثار المفسدون في أطراف البلاد ، وكان ممن أفسد دانيال ، صاحب جبل الجودى ، فانه كان قد أسلم ، فلما بلغه الخبر إرتد عن الإسلام ، وتابع بنى كوكر ، وكان في جملة الخارجين عليه بنو كوكر ، ومساكنهم في جبال بين الهاوور والمولتان حصينة منيعة ، وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين ، وحملوا له الخراج ، فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائهم ، وأطاعهم صاحب جبل الجودى وغيره من القاطنين بتلك الجبال ، ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرهم الى غزنة .

وذكر أن شهاب الدين أخذ يجهز لغزو الخطا الكفار وبنى كوكر وقال : أتاه يعنى شهاب الدين خبر ابن كوكر أنه نازل في عساكره ما بين جيلم وسودرة ، فجد السير اليه ، فدهمه قبل

الوقت الذي كان يقدر وصوله فاقتتلوا قتالا شديدا .. من بكرة الى العصر ، واشتد القتال ، فبينما هم في القتال أقبل قطب الدين أبيك في عساكره ، فنادوا بشعار الإسلام ، وحملوا حملة صادقة ، فانهزم الكوكرية ومن انضم اليهم ، وقتلوا بكل مكان ، وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله ، وهرب ابن كوكربعد أن قتل اخوته وأهله .

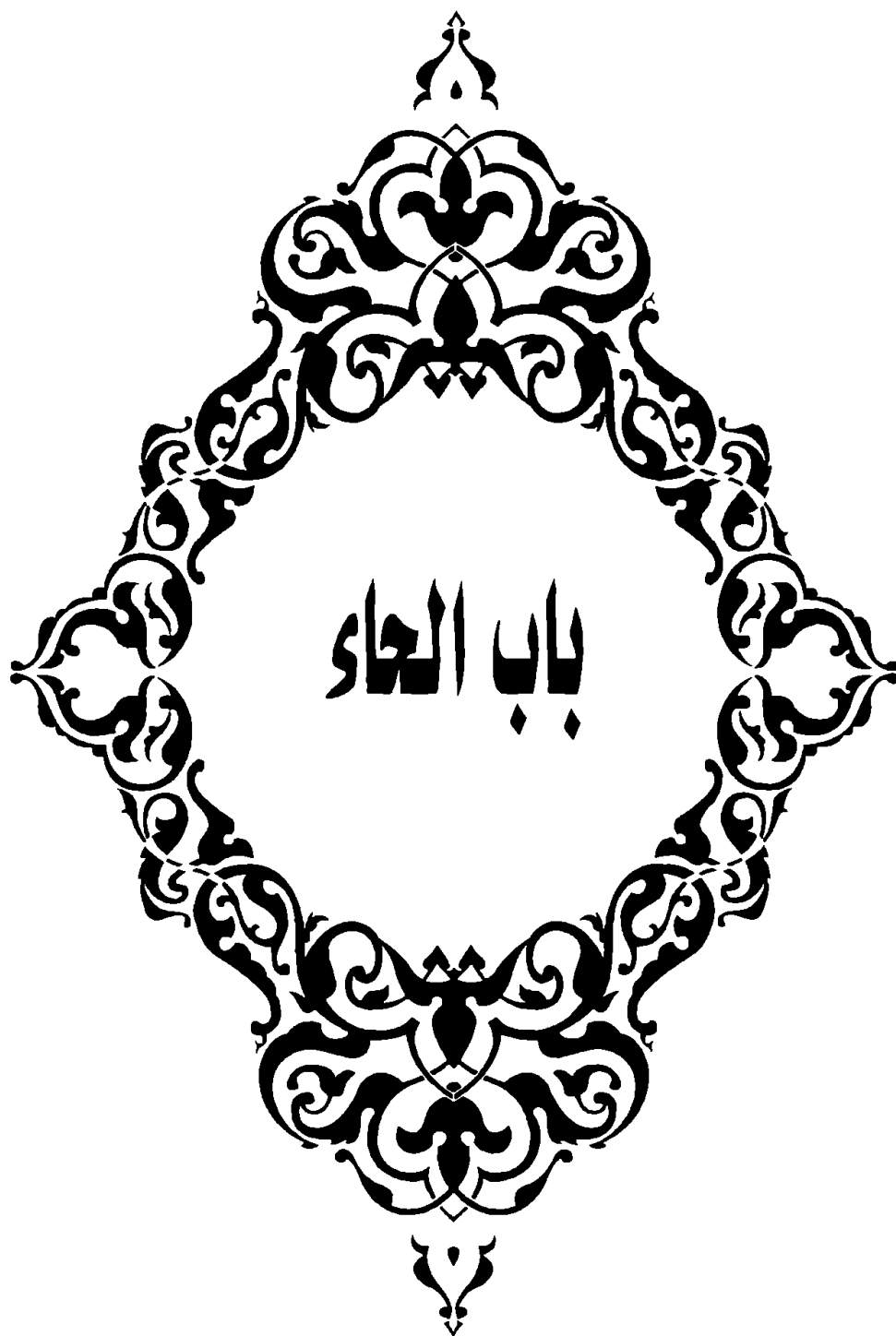
وأما ابن دانيال ، صاحب جبل الجودي فإنه جاء ليلا الى قطب الدين أبيك فاستجاره فأجاره وشفع فيه الى شهاب الدين فشفعه فيه ، وأخذ منه قلعة الجودي^(١) . هـ

هذا هو جبل الجودي الواقع بين غزنة وبلاد الهند .
الجودي أيضا : - جبل ذكره حمد الجاسر وقال : الجودي :
جبل بقرب منهل جودة ، وذكره في كتاب (دليل الخليج) في الكلام على جبال الحساء ، بأنه يقع على مسافة ١٢ ميلا غربي جبل الطف ، وآبار جودة بينه وبينها . وذكر بعضهم أن فروع وادي الفروق تنحدر من جبل الجودي وما بقربه من المرتفعات . هـ .

والجودي أيضا طريق بين نجد والاحساء ، نسبة الى (جودة) وهو منهل جاهلي في أشعار العرب وأخبارها ، إلا أن المتأخرين أسقطوا من إسمه الجاهلي ياء من أوله ، فقد كان إسمه الجاهلي يجودة ، وقد ذكرها صاحب معجم البلدان وقال : هي في بلاد بني تميم ، وهي قريب منتصف الطريق بين الدهناء وبين الاحساء إلا أن المسافة الواقعة بين الاحساء وجودة أقرب^(٢) . هـ

(١) الكامل في التاريخ ١٢ - ٢٠٨ - ٢١١ .

(٢) صحيح الأخبار ٢ - ١٨٢ .



الحجر : بحاء مهملة وجيم معجمة مفتوحتين وآخره راء
مهملة : الحجر الذي كان موسى يضربه فينفجر
عيونا .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ
اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾^(٢) .

قال ابن كثير : قال ابن عباس- رضي الله عنه وجعل بين
ظهرانيهم حجرا مريعا ، وأمر عليه السلام فضربة بعصاه فانفجرت
منه اثنتا عشرة عينا ، في كل ناحية منه ثلاث عيون ، وأعلم كل
سبط عينه يشربون منها لا يرتحلون من منقطة الا وجدوا ذلك معهم
بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول .

وقال عطية العوفي : وجعل لهم حجرا مثل رأس الثور يحمل
على ثور فاذا نزلوا منزلا وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه ،
فانفجرت منه اثنتا عشر عينا ، فاذا ساروا حملوه على ثور
فاستمسك الماء .

وقال عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه : كان لبني اسرائيل
حجر فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا . وقال قتادة : كان
حجرا طوريا من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٦٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية رقم : ١٦٠ .

بعصاه . وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه . قال : وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة ، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس . وقال الضحاك : قال ابن عباس : لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهارا . وقال النووي عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : قال ذلك في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتى عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَأَنْفَجَرَتْ ﴾ ، انفتحت ، والأنبجاس أضيّق من الانفجار ، لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا وقيل : تبجس وتفجر وتفتق بمعنى واحد ، حكاه الهروي وغيره .

وقال : لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقاؤه بعصاه حجرا ، قيل مربعا طوريا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقي في كسر جوالق ويرحل به فاذا نزلوا وضع في وسط محلّتهم . وذكروا أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدون في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى ، وهذا أعظم في الآية والأعجاز .

وقيل : أن الله تعالى أمره أن يضرب حجرا بعينه بينه لموسى عليه السلام ، ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جبير : هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه لما أغتسل ، وفر بثوبه حتى برأه الله مما رماه به قومه .

قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا ، تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والأسباط في بنى إسرائيل كالقبائل في العرب ، وهم ذرية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليه السلام .

وقال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ قال : كان هذا اذ هم في البرية اشتكوا الى نبيهم الظمأ ، فأمرؤا بحجر طورى- أى من الطور- أن يضربه موسى بعصاه . فكانوا يحملونه معهم ، فاذا نزلوا ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشر عينا ، لكل سبط عين معلومة ، مستفيض ماؤها لهم . وعن ابن عباس قال : ذلك في التيه- جعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا ، وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، في كل ناحية منه ثلاث عيون لكل سبط عين ، ولا يرتحلون منقلة الا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان به معهم في المنزل الأول .

وقال الشوكاني : الحجر يحتمل أن يكون حجرا معينا فتكون اللام للعهد ، ويحتمل أن لا يكون معينا فتكون للجنس ، وهو أظهر في المعجزة وأقوى للحجة ، قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا مربعا يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون وإذا استغنوا عن الماء جفت .

قلت : وفيما تقدم من أقوال المفسرين نرى أنهم اختلفوا في الحجر هل هو حجر معين ، أم أنه حجر غير معين ؟ ويترجح من مفهوم بعض الأقوال أنه حجر طورى- أى منقول من جبل الطور- وأنه يتنقل معهم في كل نقلة من نقلاتهم ، وأنه مربع الشكل ، إذا ضربه موسى بعصاه انفجرت من كل ناحية منه ثلاث عيون من الماء ، وأن ذلك كان في التيه :

الحجر : بحاء مهملة مكسورة وجيم معجمة ساكنة وآخره راء
مهملة : المقصود به : منازل ثمود قوم صالح .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾
وَأَتَيْنَهُمْ ءَايَاتُنَا فكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (١)

قال ابن جرير : والحجر مدينة ثمود .

وروى بسنده عن قتادة : أصحاب الحجر ، قال : أصحاب الوادي .
وروى بسنده عن عبد الله بن عمر قال : مررنا مع رسول الله ﷺ
على الحجر ، فقال لنا رسول الله ﷺ : (لا تدخلوا مساكن الذين
ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم) ،
ثم زجر فأسرع حتى خلفها .

وروى بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال وهو
بالحجر : (هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله الا رجلا كان في حرم الله
منعه حرم الله من عذاب الله) ، قيل : يارسول الله من هو ؟ قال : (أبو
رغال) .

يقول تعالى ذكره : وكان أصحاب الحجر ، وهم ثمود قوم
صالح ، ﴿ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ من عذاب الله ،
وقيل : آمنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال .

وقيل : آمنين من الموت . وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾
يقول فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم
الذي وعدوا العذاب ، وقيل لهم : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام .

(١) سورة الحجر الآية رقم : ٨٠ - ٨١ .

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها ، فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهرقوا ذلك الماء .

قال ابن حجر : قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ - وقال : كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴿ وكانت منازلهم بالحجر وهو بين تبوك والحجاز .

قال ابن كثير : قال الامام أحمد في سنده عن ابن عمر ، قال لما نزل رسول الله ﷺ ، بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ففعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله ﷺ ، فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الابل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، انى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم .

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة ، فكانوا يبنون البيوت من المدر ، فتخرب قبل موت الواحد منهم ، فنحتوا لهم بيوتا في الجبال . هـ^(١) .

قال ياقوت : الحجر : اسم ديار ثمود بوادى القرى ، بين المدينة والشام ، قال الاصطخرى : الحجر قرية صغيرة قليلة السكان ، وهو من وادى القرى على يوم بين جبال ، وبها كانت منازل ثمود ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ قال : رأيته

(١) البداية والنهاية ١ - ١٣٨ .

بيوتنا مثل بيوتنا في أضعاف جبال ، وتسمى تلك الجبال الأثالث ، وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنّها متصلة ، فإذا توسطها رأي كل قطعة منها منفردة بنفسها ، يطوف بكل قطعة منها الطائف ، وحواليها الرمل لا تكاد ترتقى ، كل قطعة منها قائمة بنفسها ، لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة ، وبها بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة : ﴿ لَهَا شَرَبٌ وَلَكُمْ شَرَبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ ، قل جميل :

أقول لداعي الحب والحجر بيننا ووادي القرى لبيك لما دعانيا
فما أحدث النأي المفرق بيننا سلوا ولا طول اجتماع تقاليا . هـ

وقال الحميري : الحجر : بلد ثمود بين الشام والحجاز وقيل : هو من وادي القرى وهو حصين بين الجبال وبه بيوت منقورة بالحجر ، وبها الآن بئر ثمود ، ويحيط بالحجر من كل ناحية جبال ورمال لا يكاد أحد يرتقى ذروتها إلا بعد الجهد والمشقة ، ومن الحجر إلى تيماء أربع مراحل .

والحجر هو المذكور في القرآن في قرولة تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(١) .

واجتاز النبي ﷺ به في طريقة إلى تبوك فأمر أصحابه بالإسراع ولا يستقوا من بئرها ، وقال : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا وأنتم باكون .

وكان نبهم صالح عليه السلام ، وبيوتهم باقية منحوتة في الجبال ، ورمتهم باقية وآثارها بادية ، وهم بين الشام والحجاز . هـ

(١) سورة الحجر - الآية : ٨٠ .

قال البكري : الحجر : بكسر أوله ، المذكور في التنزيل : هو بلد ثمود ، بين الشام والحجاز . ولما نزل رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك ، إستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا : قال لا تشربوا من مائها ، ولا تتوضئوا منه للصلاة ، ولا يخرجن منكم الليلة أحد إلا ومعه صاحبه ففعل الناس ما أمرهم به إلا رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحالجه فخنق على مذهبه فدعا له رسول الله ﷺ فشفى ، وخرج الآخر في طلب بعير له ، فاحتملته الريح حتى طرحته بجلى طيء ، فأهدته طيء لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة . هـ

وقد كتب حمد الجاسر بحثا بعنوان (ليس الحجر مدائن صالح) قال فيه : يطلق الناس الآن إسم مدائن صالح على الوادى الواقع شمال مدينة العلا ، المعروف باسم الحجر- بكسر الحاء المهملة واسكان الجيم وباءراء- ذى الآثار التي تناولها الباحثون بالدراسات الوافية .

والواقع أن إطلاق ذلك الإسم على هذا الوادى خطأ ، وقع فيه الناس منذ عهد قديم وتوضيح هذا :

(أ) أن الحجر هو الوادى الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وورد النهى عن الشرب من مائه سوى بئر الناقة التي كانت معروفة الى عهد قريب ، لأن هذا الوادى كانت منازل قوم غضب الله عليهم فأهلكهم قبل ظهور الاسلام بعصور مجهولة . وهذا الوادى لا يزال معروفا باسم (الحجر) عند سكان جهاته ، وعند غيرهم ، لا خلاف في ذلك .

(ب) وفي جنوب مدينة العلا بنحو ٥٥ كيلا آثار عمران قديم ، من أسس بناء ومجارى مياه وآثار زراعة ، يطلق على موضعها الآن

إسم غريب هو (المابيات) جمع (مابية) بالمميم المفتوحة بعدها ألف فباء موحدة مكسورة فهاء- وهذا الاسم حادث ، فقد كان الموضع في القرن السابع الهجري وما قرب منه يعرف باسم مدينة صالح ، ثم مدائن صالح .

وله قبل ذلك إسم آخر أرجح أنه (الرحبة) الوارد في كثير من كتب الرحلات ومعجمات الأمكنة فنسى إسم الرحبة ، واسم مدينة صالح- أو مدائن صالح- وعرف باسم وادي (العطاس) على ما جاء في رحلة ابن بطوطة ، الذي مر بهذا الموضع في عشر الثلاثين من القرن الثامن ، مع أن الوادي كان معروفا باسم وادي الديدان ، الذي نجد له في الكتب الأعجمية وما عرب عنها صورا غريبة (ددان) و (دادان) و (ديدان) .

(ج) وادي الديدان ، الذي تقع فيه مدينة صالح التي عرفت باسم مدائن صالح- ليس متصلا من حيث الجوار بوادي الحجر الذي قرر العلماء أخيرا عدم سكناه ، بل يفصل بينهما مسافة من الأرض تقارب خمسين كيلا بل تزيد .

(د) أما كيف نشأ الخطأ فهو أن الحجر كان من منازل قوم النبي صالح عليه السلام فكذبوه فأهكهم الله ، ونجا صالح والذين آمنوا معه ، وقد ذكر الله خبرهم في سور من القرآن الكريم ومنها (سورة الحجر) ففي الآية الحادية والثمانين منها : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٨١﴾ وَعَاتَيْنَهُمْ ءَايَتَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٢﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٤﴾ .

وقد بقيت آثار القوم ، في البيوت المنحوتة في الجبال ، وفي الآبار المحفورة في الوادي ، وفي غيرها فكان المسافرون الذين يذهبون من

الحجاز الى الشام أو من يمرون بهذه الجهات يشاهدون تلك الآثار ، ويتناقلون أخبارهم ، من الكتب أو من الرواة وكثير من رواة الأخبار ومدونيها لا يلتزمون الدقة وتحري الصواب فيما ينقلون أو يكتبون ، فوقع الخلط بين الآثار الواقعة شمال مدينة العلا في وادي الحجر ، وهي آثار سابقة وبين الآثار الواقعة جنوب مدينة العلا ، وهي مما حدث في صدر الاسلام ، وساعد على وقع الخلط أن الموضع الأخير الواقع جنوب العلا كان يعرف بمدينة صالح ، وهو رجل مسلم من بنى العباس ومدينته هذه كانت قائمة الى القرن الرابع الهجري- وأن الموضع الأول الذي هو الحجر ، الواقع شمال العلا عرف سكانه بقوم صالح ، وعرفت إحدى آباره ببئر ناقة صالح ، وعرف موضع بأحد جباله بمسجد صالح- أي المكان الذي كان يتعبد فيه

ومن هنا أطلق على الحجر خطأ إسم (مدائن صالح) .

وأقدم من رأيته فعل ذلك ما عرب من مؤلف تركى إسمه (بهجة المنازل) أو (نهجة المنازل) مؤلفه يدعى محمد أديب الموقع الرومى- على ما جاء في كتاب (ايضاح المكنون) فقد نقل عن كتابه أن الحجر يعرف بمدائن صالح أو قرى صالح ، أو عدال ، والمساكن في مدائن صالح منحوتة في الصخر ، ولا يسكنها أحد .

أما أول من وقع منه الخلط بين الموضعين ، فوصف الموضع الواقع جنوب العلا بصفات الحجر ، فأقدم نص أطلعت عليه هو ما جاء في رحلة البلوى الأندلسي ... وقد حج سنة ٧٣٨- قادما من الشام مع حجاج الكرك . هـ^(١)

قلت : وقد أورد حمد الجاسر كلام البلوى كاملا ثم أورد نصوصا من أقوال العلماء وأقوال الرحالة الذين تحدثوا عن هذين الموضعين ، لا يتسع مقامنا هذا لذكرها . هـ

(١) مجلة العرب ١٣/٣ - ٥ .

وقد إعترض عليه أحد القراء منكرًا عليه ما قاله في التفريق بين مدائن صالح وبين الحجر ، فرد عليه حمد الجاسر ، وكان فيما قاله في الرد عليه : لقد تحدثت مبينا أن إطلاق إسم مدائن صالح على موقع الحجر ليس معروفًا لدى قدماء العلماء ممن وصلت إلينا مؤلفاتهم ، وأوضحت أن اسم مدائن صالح لم يطلق على وادي الحجر إلا في العصور المتأخرة وأن إطلاقه كان ناشئًا عن وهم أوضحته فيما كتبت . فجاء أحد المعلقين من الأخوان يقول : ليس غريبًا بأن تسمى الحجر مدائن صالح ، وهي موطن ثمود ، وقد أرسل إليهم صالح رسولًا من عند الله ، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم مكانا وقد جعل الله لهم آية ناقة الله . وكل ذلك حدث في مدائن صالح المعروفة الآن باسم الحجر) وقال قبل ذلك : (والواقع أن مدائن صالح هي الحجر نسبة لرسول الله صالح عليه السلام) .

- من ذا الذي أنكر أن الحجر موطن ثمود وأنه يسمى في الوقت الحاضر مدائن صالح ؟ بل من الذي أنكر أن صالح عليه السلام نبيا لثمود حتى يأتي أخونا ليرشده إلى هذا الخطأ الشنيع ؟

- وإنما السؤال هو من الذي يستطيع أن يثبت أن واحدا من العلماء المتقدمين أطلق على الحجر مدائن صالح ؟ ، ومن الذي يستطيع بالأدلة التاريخية أن يثبت قول الأخ : (كل ذلك حدث في مدائن صالح) ؟ بينما النصوص القاطعة تدل على أنه حدث في الحجر .

بين يدي الباحثين مالا يحصى من الكتب في التفسير والتاريخ وتحديد المواضع وفي كثير منها ذكر قصة ثمود وسكناهم الحجر وإرسال صالح عليه السلام إليهم ، ولكن هل فيها أن هذا الحجر مدائن صالح ؟

أن الحجر بلاد قوم ظلموا أنفسهم فأهلكهم الله بالنص الثابت في القرآن الكريم والسنة النبوية وصالح عليه السلام لا يصح أن يوصف بما وصفوا به .

وقد أنجاه الله ومن آمن معه من الرجفة التي حلت بأولئك القوم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴾ ولو كان مقيما في تلك البلاد لأصابة ما أصابهم ، وقد أمر رسول الله ﷺ بالأسراع عند المرور بتلك الديار خشية الإصابة بما أصاب أهلها . هـ ^(١)

قلت هذا بعض ما قال حمد الجاسر في الرد على من انكر قوله في المغيرة بين الحجر وبين مدائن صالح .

وتحدث عبد القدوس الأنصاري عن الحجر في بحث كتبه بعنوان الحجر أو مدائن صالح ، ذكر فيه أن (نادى البحر الأحمر) في جدة قام برحلة إلى مدائن صالح في أواسط عام ١٣٨٤هـ - وعاد أعضاء النادي إلى جدة ، وتحدث بعضهم عن نتائج الرحلة وما شاهدوا هناك من الآثار الخالدة . وكتب بعضهم ، في بعض الصحف المحلية آراءهم المبنية على المشاهدة والمطالعة ، فذكر أن منحوتات مدائن صالح لم تكن منازل لأحياء السكان ، وإنما كانت مساكن لأمواتهم : أي مقابر ومدافن وأضرحة واستند في إثبات هذه النظرية على ضيق البيوت المنحوتة ، وعلى ما أورده بعض المستشرقين الرحالين الذين شاهدوها فيما قبل ، وكتبوا عنها ما كتبوا إذ ذاك .

وهذا الرأي لم يأخذ به ما أطلعنا عليه من التفاسير وكتب التاريخ والجغرافيا العربية الإسلامية القديمة .. وإنما مصدره الأول والأخير هو جماعة المستشرقين ، ومن سار على دربهم من مؤلفي العرب بعدهم ، في العصر الحديث .

وقد إعتنق هذا المذهب بعض من كتبوا في الصحف المحلية عن (رحلة نادي البحر الأحمر بجده) إلى مدائن صالح .

(١) مجلة العرب ٦١٩/١٤ - ٦٢٠ .

وتحدث به إلى بعضهم ، جازما بأن المنحوتات ليست إلا قبورا لقوم صالح .. ولا يمكن أن تكون منازلهم ، لضيقها الشديد ، ولأنها عبارة عن كهوف ومغاور ، ولوجود عظام موتى بها ... وقلت له : إن ضيق البيوت لا يدل دائما على عدم صلاح البيوت للسكنى .. وها نحن أولاء نرى في البلاد المكتظة بالسكان اليوم كيف أن أشخاصا عديدين يسكنون غرفة واحدة .. لكل منهم ما هو على قدر نومة وجسمه منها

ولأن أصل هذه النظرية وارد ووافد من المستشرقين كما أوردناه آنفا ، فأرى أن علينا أن نأخذ دائما معلومات المستشرقين بحذر ، خاصة فيما يتصل بديننا ولغتنا وآثارنا وبلادنا .. وذلك من جهتين لا من جهة واحد ...

وأولاهما : أن أفهامهم بعض الأحيان ملتوية تغلب عليها طبيعة بيئاتهم فتشذ وتند عن الصواب الواضح ، بحكم طبيعتها إلى خطأ فاضح ...

وثانيهما : الغرض الدفين طبعيا وتقليديا بين جوانح الكثيرين منهم ، وواجب علينا اليوم - وقد نهضنا من إغفاءتنا الطويلة- أن لا نتكل على مجهوداتهم العلمية وحدها .. بل نسعى بأنفسنا لكشف كنوز حضارتنا علميا وفكريا وقوليا وأثريا وخبريا .

وكان مؤرخو الاسلام ورحالته وعلمائهم يرون أن البيوت التي نقرت في جبل أو جبال مدائن صالح هي بيوت كانت معمورة بأحياء الثموديين الذين نحتوها .. وبذلك فسروا قوله تعالى : ﴿ فِتْلِكَ بِيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ .. وبذلك فسروا الآية الكريمة الأخرى : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا

وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴿١١﴾ .. فخواؤها أى فراغها منهم بعد هلاكهم دليل صارخ على سكناهم فيها في حياتهم . هـ^(١)

- وقد أورد عبد القدوس الأنصاري في بحثه هذا نصوصا كثيرة من أقوال المؤرخين المسلمين وأقوال المستشرقين لا يتسع مقامنا هذا لذكرها .

وفي الكتاب الذي أصدرته إدارة لآثار والمتاحف في وزارة المعارف في المملكة العربية السعودية ، بعنوان : (مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية) ما نصه : مدائن صالح : تقع على مسافة ١٥ كيلو مترا شمال العلا . وقد جاءت في القرآن الكريم باسم (الحجر) كحاضرة ثمود قوم نبي الله صالح ، وتشتمل المنطقة على عدة كهوف ومقابر منحوتة في الجبال الرملية المتقاربة ، وهذه الكهوف كما تدل نقوشها كانت مقابر لأقوام كثيرة ممن حكموا المنطقة من أنباط ورومان وعرب ، وهي تشبه الى حد كبير مقابر (البتراء) عاصمة الأنباط القديمة وتقع الآن بالأردن ، وعلى واجهات المقابر تماثيل وصور ورؤوس خرافية وثنية يعود نحتها إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، وتوجد بالقرب من منطقة المقابر آثار مستوطنات قديما وربما كانت مساكن لسكان مدائن صالح في عصورها المختلفة ، وقد اشتهرت عند المؤرخين اليونان والرومان بهجرا وكان لها ميناء يسمى باسمها (الوجه حاليا) وكان يعتبر شريانا تجاريا هاما .

ويظهر من تنوع آثار الحجر وفنونها المختلفة أن بدء حياة وازدهار المنطقة يعود إلى ما قبل آلاف السنين إذ ظلت زمنا طويلا تتلقى تجارة الشرق القادمة بواسطة الموانئ العربية في الجنوب

(١) بين التاريخ والآثار ٢٤٠ - ٢٦٤ .

وتصدرها نحو الغرب بواسطة موانئ سوريا في الشمال ، كما يستشف من دراسة الخرائب المتناثرة في المنطقة وحولها أن شعوبا كثيفه قد تجمعت هناك وعاشت لعدة قرون . هـ

قلت : ومن الملاحظ أن هذا التقرير نضمن قولاً جازماً بأن المساكن المنحوتة في الجبال الرملية في منطقة الحجر ما هي إلا معالم لأقوام كثيرة ممن حكموا المنطقة من أنباط وروما وعرب ، ولم يتضمن شيئاً من الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذه البلاد وعن أهلها وعن نبيهم صالح عليه السلام وما حل بهم ، مع أن بعض الآيات القرآنية الكريمة يفهم منها أن هذه البيوت المنحوتة كانت مساكن للأحياء ، وقد تقدم في هذا البحث شيء من الآيات التي تضمنت ذلك .

بل إنه جزم بأن هذه البيوت المنحوتة لم تكن خاصة بثمود ، وأنها مقابر لأقوام كثيرة من أنباط ورومان وعرب . وآيات القرآن الكريم صريحة قاطعة بنسبة نحت هذه البيوت الى ثمود قوم صالح .

وتحدث عاتق البلادي عن بلاد الحجر في موضعين من معجمة ، ذكرها باسم (وادي الحجر) مرة ، وذكرها باسم (مدائن صالح) مرة أخرى ، وقال في حديثه : وادي الحجر المعروف : لا زال باسمه يصب في وادي العلا (القرى) من الشمال .. وقد وصل الآن بطريق معبدة بالمدينة ، وكان يرتبط بها بسكة الحديد المعطلة الآن ، ويبعد عن المدينة (٣٤٥) كيلاً شمالاً ، وعن العلا قرابة (٢٤) كيلاً ، ويعرف بمدائن صالح ذات الآبار العجيبة .. وهو رأس وادي القرى المعروف اليوم باسم وادي العلا .

ومدائن صالح : بلدة في شمال الحجاز ذات صبغة أثرية سياحية ، كان أهلها ثمود قوم صالح وقد أرسل الله إليهم صالحاً فعصوا

فأهلكهم الله بفتنة الناقة ، وقد فصلت أخبارهم في القرآن ... وواديها الحجر المذكور في القرآن يصب في وادي القرى من الشمال .. فيها آثار عجيبة ، بيوت منحوتة في الصخر وقلات مخازن للمياه في صخر ، وجبالها بارزة ، ينفرد معظمها عن غيره ، كأنه مغروس في الأرض .. وإنما سمى الناس هذه المساكن مدائن صالح إختياراً لاسم صالح عليه السلام وأنفة عن اسم ثمود الكفار ، وهكذا صارت لا تعرف إلا بمدائن صالح . هـ

قلت : قوله وهكذا صارت لا تعرف إلا بمدائن صالح ، يتناقض مع قوله في أول حديثه وادي الحجر المعروف ، لا زال باسمه .

والواقع أن هذه البلاد ما زالت تعرف باسمها القديم (الحجر) وتسمى أيضاً في هذا العهد مدائن صالح .

الحجر أيضاً : قال عرام وهو يصف قرية الرحضية : قرية للأنصار وبنى سليم من نجد ، وبها آبار عليها زرع كثيرة ونخيل . وحذاؤها قرية أو أرض يقال لها الحجر ، وبها مياه وعيون وآبار لبنى سليم خاصة وحذاؤها جبل ليس بالشامخ يقال له قنة الحجر . هـ

وفي هذا الموضع يقول الشاعر :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا أروم فأرام فشابة فالحضر
وهل تركت أبلى سواد جبالها وهل زال بعدى عن قنينته الحجر

قلت : وقد أصبحت هذه القرية في هذا العهد تسمى (الحجرية) ، تعرف في هذا العهد بهذا الاسم وكذلك قرية الرحضية ما زالت معروفة باسمها وهما اليوم من بلاد مطير بنى عبد الله .

حجر بالفتح والسكون : هي مدينة اليمامة وأم قراها ، وبها ينزل الوالى ، وهي شركة الا أن الأصل لحنيقة- قاله ياقوت .

قلت : والمقصود بحجر اليمامة منطقة الرياض التي تقع فيها عاصمة المملكة العربية السعودية .

الحجر أيضاً : واد ببلاد عذرة وغطفان . قاله ياقوت .

الحجر أيضاً : جبل في بلاد غطفان- قاله ياقوت .

الحجر بالكسر والسكون : أحد شعب وادى ينبع النخل إذا فاض ماؤه في الخبت ، وهي الشعبة الوسطى- والجنوبية شطب ، والشمالية المرخية تصب على بلدة ينبع من الجنوب ، يبعد الحجر ١٣ كيلا جنوب مدينة ينبع البحر .

حجر : بفتح أوله وضم الجيم وراء .. واد ذو نخل وقرى وعيون جارية لزبيد من حرب ، يقع شرق رابغ ويعتبر أحد الروافد الرئيسية لوادى مرعنب (وادى- رابغ) ، ويقع على قرابة (١٠٠) كيل من رابغ ، وكان يعرف باسم (السائرة)- قاله عاتق البلادى .

حجر : بفتح المهملة والجيم وآخره راء مهملة : جبال على شكل سلسلة تمتد غرب الطريق بين خيبر والجهراء (الجناب) تسيل مياهها الشرقية الى وادى الزهراء ثم الطبقة والغربية الى وادى الصحن وبرمة فاطبق أيضاً ، وهي من ديار عنزة ، وحدها الشمالى حفيرة الأيداء وحدها الجنوبى شرف العمامة ، الذى يأخذ الطريق بين غمرة والعلاء ، وكل جبل من هذه السلسلة له اسم يعرف به ، وهي تشرف على قرية العشاش من الغرب .

الحجرات : بحاء مهملة مضمومة وجيم معجمة مضمومة بعدها راء مهملة ثم ألف وآخره تاء مثناة : جمع حجرة : والمقصود به حجرات النبي ﷺ في المدينة - وهي بيوت نسائية .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن الذين ينادوا يا محمد من وراء حجراتك . والحجرات : جمع حجرة .

وقوله : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم جهال بدين الله ، واللازم لهم من حَقِّك وتعظيمك ، وذكر أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في قوم من الأعراب جاءوا ينادون رسول الله ﷺ من وراء حجراته : يا محمد أخرج إلينا .

ويسنده عن مجاهد ، قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ ، أعراب بنى تميم .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ثم أنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات ، وهي بيوت نسائية كما يصنع أجلاف الأعراب ، فقال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة .

وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه فيما أورده غير واحد .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٦٠ .

قال الامام أحمد : حدثنا عثمان حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد وفي رواية يارسول الله فلم يجبه فقال يارسول الله : أن حمدي لزين وأن ذمي لشين فقال : (ذاك الله عز وجل) .

وقال ابن هشام : قدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب فقدم عليه عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي ، في أشراف بني تميم ، منهم الأقرع بن حابس التميمي والزيرقان بن بدر التميمي أحد بني سعد وعمرو بن الأهتم والحباب بن يزيد .

قال ابن اسحاق : وفي وفد بني تميم نعيم بن يزيد ، وقبيس بن الحارث ، وقيس بن عاصم أخو بني سعد ، في وفد عظيم من بني تميم .

قال ابن اسحاق : ومعهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الضاري ، وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنينا والطائف .

فلما قدم وفد بني تميم كانا معه . فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن أخرج إلينا يا محمد فأدى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن ، وهو أهله الذي جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن

فاخرنا فليعدد مثل عددنا ، وانا لو نشاء لأكثرنا بالكلام ، ولكن نحيا من الأكثر فيما أعطانا ، وانا نعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .
فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس ، ، أخي بني الحارث بن الخزرج : قم ، فأجب الرجل في خطبته . فقام ثابت ، فقال : الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط الا من فضلة ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسبا ، وأصدقاه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابة وأتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس الى الايمان به ، فأمن برسول الله المهاجرون من قومة وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعلا . ثم كان أول الخلق اجابة ، واستجاب الله حين دعاه رسوله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

فقام الزبيرقان بن بدر ، فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا	منا الملوك وفيما تنصب البيع
وكم كسرنا من الأحياء كلهم	عند النهاب وفضل العزيتبع
نحن يطعم عند القحط مطعما	من الشواء اذا لم يؤنس القرع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم	من كل أرض هويا ثم تصطنع
فننحر الكوم عبطا في أرومتنا	لنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا الى حى نفاخرهم	الا استفادوا فكانوا الرأس يقتطع

فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه
انا أبينا ولا يابى لنا أحد
فيرجع القوم والأخبار تسمع
أنا كذلك عند الفخر نرتفع

قال ابن هشام : ويروى :

منا الملوك وفيما تقسم الربع
من كل أرض هوانا ثم نتبع

ويروى :

قال ابن اسحاق : وكان حسان غائباً ، فبعث اليه رسول الله ﷺ قال حسان : جاءني رسوله ، فأخبرني أنه انما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت الى رسول الله ﷺ وأنا أقول :

منعنا رسول الله اذ حل وسطنا
منعناه لما حل بين بيوتنا
على أنف راض من معد وراغم
بأسيافنا من كل باغ وظالم
ببيت حريد عزه وثرأوه
بجابية الجولان وسط الأعاجم
هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظام

قال : فلما انتهيت الى رسول الله ﷺ ، وقام شاعر القوم ، فقال ما قال ، عرضت في قوله ، وقلت على نحو ما قال . قال : فلما فرغ الزيرقان ، قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : قم يا حسان ، فأجب الرجل فيما قال . فقام حسان ، فقال :

أن الذوائب من فهور وأخواتهم
يرضى بهم كل من كانت سريرته
قد بينوا سنة للناس تتبع
تقوى الا له وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة
أن الخلائق فاعلم شرها البدع

فكل سبق لادنى سبقهم تبع
عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
لا يطبعون ولا يرديهم طمع
ولا يمسهم من مطمع طبع
كما يدب الى الوحشية الذرع
إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
وأن أصيبوا فلا خور ولا هلع
أسد بحلية في أرساعها فدع
ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
شرا يخاض عليه السم والسلع
إذا تفاوتت الأهواء والشيع
فيما أحب لسان حائك صنع
أن جد بالناس جد القول أو شمعوا

أن كان في الناس سباقون بعدهم
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم
أن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
لا يبخلون على جار بفضلهم
إذا نصبنا لحى لم ندب لهم
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم
كأنهم في الوغى والموت مكتنع
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا
فان في حريهم فاترك عداوتهم
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
أهدى لهم مد حتى قلب يؤازره
فانهم أفضل الأحياء كلهم

قال ابن هشام : أنشدني أبو زيد :

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الا له وبالأمر الذي شرعوا

وقال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم بالشعر من بنى تميم :

أن الزيرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بنى تميم قام فقال :

إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
ونضرب رأس الأصيد المتفاقم

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا
بأننا فروع الناس في كل موطن
وانا ندود المعلمين إذا انتخوا

وانا لنا المرباع في كل غارة نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان بن ثابت فأجابه ، فقال :

هل المجد الا السؤدد العود والندى	وجاه الملوك واحتمال العظام
نصرنا وآوينا النبي محمدا	على أنف راض من معد ورام
بحى حريد أصله وثرأوه	بجابية الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل وسط ديارنا	بأسياقنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنيينا دونه وبناتنا	وطبنا له نفسا بضيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا	على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها	ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بنى دارم لا تفخروا أن فخركم	يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم	لنا خول ما بين ظئرو وخادم ؟
فان كنتم جئتم لحقن دمائكم	وأموالكم أن تقسموا في المغانم
فلا تجعلوا الله ندا وأسلموا	ولا تلبسوا زياكزي الأعاجم

قال ابن اسحاق : فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله ، قال
الأقرع بن حابس : وأبى ، أن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من
خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا .
فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم .

قال ابن اسحاق : وفيهم نزل من القرآن : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الزين المراغى : قال رزين : ثم لم يزد في المسجد شيء -
يعنى بعد الزيادة التي سبقت ، وهي زيادة عثمان بن عفان رضي الله

عنه - حتى كان أيام الوليد بن عبد الملك وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة ومكة .

قيل : وكان استعماله عليها سنة سبع وثمانين ، فبعث الوليد الى عمر بن عبد العزيز بمال وقال : زد في المسجد ومن باعك فأعطه ثمنه ومن أبى فاهدم عليه وأعطه المال ، فان أبى أن يأخذه فاصرفه الى الفقراء .

واشترى عمر بن عبد العزيز الدور وأدخلها مع حجرات النبي ﷺ وأدخل القبر الشريف فيه .

ونقل السهيلي أن الحجرات والبيوت خلطت بالمسجد في زمن عبد الملك بن مروان ، ويرده تصريح رزين وغيره بضد ذلك .

قال عطاء : وحضرت كتاب الوليد الى عمر بن عبد العزيز يأمره فيه بادخال حجرات أزواج النبي ﷺ في المسجد ، فما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم .

وسمعت سعيد بن المسيب يقول يؤمئذ : والله لوددت لو تركوها على حالها ، ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرى ما أكتفى به رسول الله ﷺ في حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والفخر .

وقال أبو أمامة : ليتها لو تركت حتى يقصر الناس من البنيان ويروا ما رضى الله عز وجل لنبيه ﷺ ، ومفاتيح الدنيا بيده .

قلت : ومما تقدم فيما رواه الزين المراغى عن رزين وغيره يتبين أن حجرات زوجات النبي ﷺ قد أزيلت وأدخلت أرضها في توسعه مسجد النبي ﷺ في عهد الوليد بن عبد الملك .

حرم : بحاء مهملة مفتوحة وراء مهملة مفتوحة وآخرة ميم : المقصود به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ ^(١) .
وقال تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ ^(٢) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وقالت كفار قريش : إن نتبع الحق الذي جئتنا به معك ، ونتبرأ من الأنداد والآلهة ، يتخطفنا الناس من أرضنا باجماع جميعهم على خلافنا وحربنا ، يقول الله لنبيه : فقل ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ﴾ يقول : أولم نوطئ لهم بلدا حرمنا على الناس سفك الدماء فيه ، ومنعناهم من أن يتناولوا سكانه فيه بسوء ، وأمنا على أهله أن يصيبهم بها غارة أو قتل أو سباء .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ قال : كان أهل الحرم آمنين يذهبون حيث شاؤوا ، إذا خرج أحدهم فقال : انى من أهل الحرم لم يتعرض له . وكان غيرهم من الناس إذا خرج أحدهم قتل .

وروى بسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ قال : آماكم به ، قال : هي مكة وهم قريش .

(١) سورة القصص الآية رقم : ٥٧ .

(٢) سورة العنكبوت الآية رقم : ٦٧ .

وروى بسنده عن ابن عباس في ﴿يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾
قال : ثمرات الأرض .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ
نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يقول تعالى مخبرا عن اعتذار بعض الكفار في
عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : (أن نتبع الهدى معك
نتخطف من أرضنا) أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى
وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أي أن يقصدوا الأذى
والمحاربة ويتخطفونا أينما كنا ، قال الله تعالى مجيبا لهم ﴿أَوَلَمْ
نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل ،
لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع فكيف
يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا
لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ
نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ هذا قول مشركي مكة ، قال ابن عباس : قائل
ذلك من قريش الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي ،
قال للنبي ﷺ : أنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى
معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا- يعني
مكة- لاجتماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم .

وكان هذا من تعللاتهم ، فأجاب الله تعالى عما اعتل به فقال :
﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي ذا أمن ، وذلك أن العرب كانت
في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضا ، وأهل
مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم ، فأخبر أنه قد آمنه بحرم

البيت ، ومنع عنهم عدوهم فلا يخافون أن تستحل العرب حرمه في قتالهم والتخطف الانتزاع بسرعة .

قال يحيى بن سلام يقول : كنتم آمنين في حرمي ، تأكلون رزقي ، وتعبدون غيري ، أفتخافون ؟ إذا عبد تمونى وآمنتم بي .

قلت : من أقوال المفسرين يتضح لنا أن المقصود في الآيتين الكريمتين هو مكة البلد الحرام .

حنين : بحاء مهملة مضمومة ونون موحدة مفتوحة وياء مثناه ساكنة وآخره نون موحدة : موضع بين مكة والطائف .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾^(١) .

وروى البخاري بسنده : عن اسماعيل قال : رأيت بيد ابن ابي أوفى ضربة قال : ضربتها مع النبي ﷺ يوم حنين .

وقال ابن حجر : حنين بمهملة ونون مصغر : واد الى جنب ذى المجاز قريب من الطائف ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات ، قال أبو عبيد البكرى : سمى باسم حنين ابن قانية بن مهلائيل .

وقال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ أيها المؤمنون في أماكن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ،

(١) سورة التوبة الآية رقم : ٢٥ .

ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة ، ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، يقول : وفي يوم حنين أيضاً قد نصركم .

و ﴿ حُنَيْنٍ ﴾ واد فيما ذكر بين مكة والطائف ، وأجرى لأنه مذكر اسم لمذكر . وقد يترك اجراؤه ، ويراد به أن يجعل اسماً للبلدة التي هو بها ، ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيهم وشهدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

وروى بسنده عن عروة قال : ﴿ حُنَيْنٍ ﴾ واد الى جنب ذى المجاز .
وروى بسنده عن قتادة قوله : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، قال : حنين ما بين مكة والطائف ، قاتل عليها نبي الله هوازن وثقيفا ، قال وذكر لنا أنه خرج يومئذ مع رسول الله ﷺ اثنا عشر ألفاً : عشر آلاف من المهاجرين والأنصار ، وألفان من الطلقاء . وذكر لنا أن رجلاً قال يومئذ : لن تغلب اليوم بكثرة .

وقال القرطبي : نهض رسول الله ﷺ حتى أتى وادي حنين وهو من أودية تهامة ، وكانت هوازن قد كمنت في جنبتي الوادي وذلك في غبش الصبح ، فحملت على المسلمين حملة رجل واحد فانهزم جمهور المسلمين ولم يلو أحد على أحد .

وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته على والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن عبيد وهو أيمن بن أم أيمن قتل يومئذ بحنين - وربيعه بن الحارث والفضل بن عباس ، وقيل في موضع جعفر بن أبي سفيان : قثم بن العباس فهؤلاء عشرة رجال ، ولهذا قال العباس :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه وأقشعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه بما مسه في الله لا يتوجع

وثبتت أم سليم في جملة من ثبت ، محتزمة ممسكة بغيرا لأبي
طلحة وفي يدها خنجر . ولم ينهزم رسول الله ﷺ ولا أحد من هؤلاء .

قال ياقوت : ﴿ حُنَيْنٌ ﴾ : يجوز أن يكون تصغير الحنان ، وهو
الرحمة تصغير ترخيم ، ويجوز أن يكون تصغير الحن ، وهو حى من
الجن ، وقال السهيلي : سمى بحنين بن قانية بن مهلائيل ، قال :
وأظنه من العماليق ، حكى عن أبي عبيد البكرى ، وهو اليوم الذي
ذكره جل وعز في كتابه الكريم ، وهو قريب من مكة ، وقيل : هو واد
قبل الطائف ، وقيل : واد بجانب ذى المجاز ، وقال الواقدي : بينه وبين
مكة ثلاث ليال ، وقيل : بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا ، وهو يذكر
ويؤنث ، فان قصدت به البلد ذكرته وصرفته كقوله عز وجل :
﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ ، وأن قصدت به البلدة
والبقعة انثته ولم تصرفه كقول الشاعر :

نصروا نبيهم وشهدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

وقال خديج بن العوجاء النصرى :

ولما دنونا من حنين ومائه رأينا سوادا منكر اللون أخصفا
بملومة عمياء لو قذفوا بها شماريخ من عروى اذا عاد صفصفا
ولو أن قومي طاوعتني سراتهم إذا ما لقينا العارض المتكشفا
إذا ما لقينا جند آل محمد ثمانين ألفا واستمدوا بخندفا

كأنه تصغير حن عليه إذا أشفق ، وهي لغة في أحنى موضع
عند مكة . هـ

وقال البكري : ﴿ حُنَيْنٌ ﴾ : واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا ، والأغلب عليه التذكير لأنه إسم ماء . قال عباس بن مرداس :

لـدـن غـدوة تركـنا عـشـية حـنـينا وقـد سـألت دوافـعة دما
وربما أنثته العرب ، لأنه إسم للبقعة قال حسان :

نـصـروا نـبـيـهـم وشـدوا أـزـرة بـحـنـين يـوم تـواكـل الأـبـطـال
وهو الموضع الذي هزم فيه رسول الله ﷺ هوزان ، وقيل إنه سمى بحنين بن قانية بن مهلائيل . هـ

قلت : وفيما تقدم من أقوال العلماء نرى إختلافا بين هذه الأقوال ، في تحديد موقع حنين ، وفي تحديد المسافة بينه وبين مكة ، وكذلك في المسافة بينه وبين الطائف ، وأقرب الأقوال إلى الصواب في تحديد البعد بينه وبين مكة ، قول بعضهم : بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا ، أما قول بعضهم هو واد قبل الطائف فإنه قول غير صائب ، والواقع أنه قريب من مكة كما قال ذلك بعضهم .

وقال الهمداني : قال أحمد بن عيسى الرداعي في أرجوزته ، -
وهي أرجوزة رسم بها طريق الحج من اليمن إلى مكة :

لضبيعة الطليحي مستقيمة	صادرة عنها تؤم الزيمة
ثم على سبوحة القديمة	حيث بريد الصخرة المقيمة
مطنبة في السير ذي العزيمة	إلى أريك تعلى صميمة
حميدة في الركب لا مليمة	باقية أعراقها كريمة
انسى لأرجو أن ترى سليمة	محمودة في الركب لا ذميمة

ضيعة الطليحي من قريش نخل قد يمت ، الزيمة موضع في
بستان عبد الله بن عبيد الله الهاشمي ، وسبوحة موضع ، وأريك عقبة
تضاف الى مكان فيقال عقبة أريك بضم الألف .

ثم انتحت وخدا على انكماش بئر الجذامي باحتياش
الى حنين المنهل الجياش حتى إذا أفضت الى المشاش
حيث بريد الصخر لا تحاش عجت بتحنان لشوق غاش

آبار الجذامي بئر معمورة ، والجذامي من أهل مكة . وحنين هو
الذي كانت به وقعة حنين بين النبي ﷺ وبين هوازن ، والمشاش موضع
يلتقى فيه محجة اليمن ونجد ومحجة العراق والبحرين .

قلت : هكذا رسم الرداعي الطريق وحدد موقع حنين ، وسار
على هذا الترتيب : الزيمة ، سبوحة ، بئر الجذامي ، حنين ، - وذكر
أن حنينا منهل جياش ، أى يجيش بالمياه الكثيرة - .

قال محمد بن بليهد : وادى الشرائع : واسم الشرائع حديث ،
وزعم بعض المعاصرين أنها حنين المشهورة في التاريخ الإسلامي والتي
ذكرها الله تعالى بقوله ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ وأن
تلك العيون هي عيون حنين ، وأنا أقول إن وادى حنين ليس فيه
عيون، ولو كان فيه شيء من ذلك لما أغفل أصحاب السير ،
والصحيح أن حنينا هو الوادى الذي يحاذى الشرائع على يمين
الذاهب من مكة الى الطائف يبعد عن الشرائع الى جنوبيه بمسافة
ثلاثة آلاف متر ، نذكر هذا التحديد مستنديين قول صحيح ذكره
ابن هشام في سيرته عند ذكر معركة حنين ، قال ابن هشام : ولما نزل
المشركون بأوطاس قال دريد بن الصمة ، وكان مع هوازن ، وهو شيخ
كبير : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : إنزلوا ، نعم مجال

الخيـل ، لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس (فكانت المعركة فيه ، وهو باق بهذا الإسم الى الآن ، وامتدت المعركة الى قرب أميال الحرم ، ثم انهزمت هوازن وامتدت المعركة الى ما يقارب الزيمة) قوله : فكانت المعركة فيه وما بعده من قوله هو ، لا من حديث بن هشام .

وأهل السير قالوا في ذكر منزلهم : فنزلوا الشعب من حنين ، ونأخذ من ذلك أنهم نزلوا في واد وتبين لنا من قصة دريد أن ذلك الوادى . هو أوطاس ، وليس ببعيد أن الشعب يقال له أوطاس ، والوادى يقال له حنين ، لأن في شعب أوطاس آثار باقية^(١) .

قلت : ومما يلاحظ في هذا النص أنه نفى أن يكون في حنين عيون ، زعما منه أنه لو كان في حنين عيون لما أغفلها أصحاب السير ، وهذا بالنسبة لعلمه .

ثانياً : قال والصحيح أن حنينا هو الوادى الذي يحاذى الشرائع على يمين الذهاب من مكة الى الطائف ولم يذكر اسم هذا الوادى .

ثالثاً : ذكر منزل هوازن في وادى أوطاس ولم يذكر منزل النبي ﷺ وأصحابه .

رابعاً : قال وتبين لنا من قصة دريد أن ذلك الوادى هو أوطاس ، وليس ببعيد أن الشعب يقال له أوطاس والوادى يقال له حنين ، لأن في شعب أوطاس آثار آبار قديمة .

قلت : أما نفيه وجود عيون في حنين فهو مردود بالأخبار الصحيحة . قال الفاكهي : وهو يذكر أعمال زبيدة الخيرية في مكة - : وأجرت فيها عيوناً من الحل منها : عين مشاش ، واتخذت لها

(١) سورة صحيح الأخبار ١٤٢/٢ - ١٤٣ .

بركا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ، ثم أجرت لها عيونا من حنين ، واشترت حائط حنين ، فصرفت عينه الى البركة ، وجعلت حائطة سدا تجتمع فيه السيول ، فأهل مكة يشربون من مائها إلى يومنا هذا .

وقال الأزرقى في حديثه عن أعمال زبيدة : وأجرت فيها أى بـ مكة- عيونا من الحل ، منها عين من المشاش ، واتخذت لها بركا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ، ثم أجرت لها عيونا من حنين ، واشترت حائط حنين ، فصرفت عينه الى البركة ، وجعلت حائطة سدا يجتمع فيه السيل ، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحد قبلها .

وفي أرجوزة الرداعى قال :

ثم انتحت وخذاً على انكماش بئر الجذامى باحتياش
الى حنين المنهل الجياش حتى إذا أفضت الى المشاش

وبهذا أوضح الرداعى أن حنينا منهل جياش ، أى مورد ماء يجيش بالمياه الكثيرة .

أما قوله والصحيح أن حنينا هو الوادى الذى يحاذى الشرائع على يمين الذهاب من مكة فهو قول لا يستند إلى دليل .

وفي الثالث والرابع نسب المعركة الى أوطاس بينما المشهور في القرآن وفي السير أنها في حنين ويلاحظ أنه في آخر حديثه جعل أوطاس وحنينا موضعاً واحداً والمشهور أنهما واديان يسمى كل واحد منهما باسم يعرف به .

وقال في موضع آخر : بعد أن أورد ما ذكر ياقوت في تحديده : حنين موضع قد أعيانا الوقوف على حقيقته ، ومن كتاب هذا العصر

من قال أنه عين الشرائع أنها هي عين حنين ، وهذا قريب من الصواب فإن لم تكن عين حنين فهي قريبة منها في الوادي الذي يقع عن الشرائع جنوبا لأنه قريب من ذى المجاز الذي ذكر في آخر رواية السهيلي^(١) .

قلت : وفي هذا النص إختلاف عما ذكر في النص السابق ورد على قوله بالنسبة لعيون حنين وموقعة .

وقال حمد العبيدي في إستدراكاته على أحد أجزاء مجلة العرب : يظن كثير من الكتاب أن عين زبيدة التي أوردتها الى مكة المكرمة ، هي التي توجد منابعها جنوب شداد ، والصواب أنها عين حنين التي تقع في أسفل الشرائع وتعرف اليوم بعين سمحاء ، وقد بعثها قبل سنين الشيخ حمد السليمان الحمدان وكيل وزارة المالية سابقا وأجرى ماءها الى مزرعة أقامها هناك^(٢) .

وقال حمد الجاسر : المتوجه الى وج من طريق نخلة اليمانية يمر بحنين فسبوحة فنخلة اليمانية فقرن المنازل وبعد ذلك الطائف ، وليس حنين قبل وج ، فحنين يقع على مقربة من مكة في تهامة ، وموضعة يعرف الآن باسم الشرائع ، قرية عظيمة ، وفي شرقيها يقع وادي يدعان الذي حصلت فيه معركة حنين ، وبه نزل الرسول ﷺ ، ويعرف الآن باسم جدعان بالجيم -^(٣) .

وقال حمد الجاسر تعقيبا على أحد الكتاب : أوطاس وحنين موضعان بينهما عشرات الأميال ، أحدهما في تهامة والثاني شرق جبال الحجاز خارجا عنها .

(١) صحيح الأخبار ٣ ، ١٢٧ .

(٢) مجلة العرب ٥ - ٣٠٢ .

(٣) مجلة العرب ٦ - ٣٩١ .

حنين هو أعلى وادى الشرائع واسمه يدعان معروف الآن ولكن أهل تلك الجهة يبدلون الياء جيما فيقولون (جدعان) قال نصر الاسكندري في كتابه - الذي لا يزال مخطوطا - : يدعان واد به مسجد للنبي ﷺ ، وبه عسكرت هوازن يوم حنين ، في وادى نخلة .

ونقل هذا ياقوت ، ولم يذكر مصدره . والقول بأنه في وادى نخلة فيه تجوز ، فهو بقرب وادى نخلة اليمانية يقع جنوبها ، وليس فيها .

أما أوطاس فأقرب المواضع المسكونة منه عشيرة ، التي كانت منهلا من مناهل طريق الحجاز من نجد ، فأصبحت الآن قرية ... وقال بجير بن زهير بن أبى سلمى :

كانت علالة يوم بطن حنين وغداة أوطاس ، ويوم الأبريق

ففرق بين الموضعين . والغزوة واحدة ، إبتدأت في حنين وهو - كما جاء وصفه في كتب المغازي - : واد من أودية تهامة أجوف ، حطوط ، ينحدر فيه إنحدارا - ف وقعت الهزيمة على المسلمين في أول الأمر - ثم ثبتوا وانتصروا حتى هزموا أعداءهم فممنهم من هرب نحو الطائف ومنهم من فر الى أوطاس وتوجه بعضهم الى نخلة . وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس بعثا من المسلمين هزم من تجمع هناك من الأعداء^(١) .

وقال حمد الجاسر معقبا على بعض ما قاله أحد الكتاب (حنين واد قريب من مكة الى جانب ذى المجاز) وهو واد يعرف الآن باسم (الشرائع) وأعلاه (يدعان) يبدل العامة الياء جيما فيقولون (جدعان) وليس بجانب ذى المجاز - الواقع بقرب عرفات ، ولكن سيلة يفضى إليه ، والمسافة بينهما قصيرة^(٢) .

(١) مجلة العرب ١٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) مجلة العرب ١٦ - ٨٢٧ .

وقال حمد الجاسر : ومن اشهر المواضع الأثرية قرب مكة : وادى حنين (يدعان) أعلى وادى الشرائع ، الذي حدثت فيه الواقعة المذكورة في القرآن الكريم : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ الآية . وتحسن الإشارة الى التفريق بين موضعي حنين وأوطاس ، حيث وقع من بعض المؤرخين ما يفهم منه إعتبارهما موضعا واحدا ، مع تغايرهما ، فأوطاس يقع شرق سلسلة جبال الحجاز ، أقرب المواضع المأهولة منه عشيرة ، يقع غرب وادى العقيق ، على مقربة من البركة شمالها بميل نحو الغرب^(١) .

وقال عاتق البلادي- بعد أن ذكر ما قاله ياقوت والبكري في تحديد حنين- حنين يعرف اليوم بالشرائع ، وهو على طريق مكة من نخلة اليمانية- واد يسيل من جبال طاد والتنضب ، ثم ينحدر غربا مارا بين جبلى لبن وكنثيل ، يسمى رأسه الصدر وأسفله الشرائع ، ثم يدفع في أعلى عرنة قرب ذى المجاز شمالا ، ومن روافده وادى يدعان ، يبعد حنين عن مكة (٢٦) كيلا شرقا ، وعن حدود الحرم (١١) كيلا ، عن علمى طريق نجد ، سكانه هذيل والأشراف .

قلت : ومما تقدم من أقوال العلماء في تحديد موقع حنين ووصفه الجغرافي يترجح أن حنينا هو الوادى الذين يسمى في هذا العهد الشرائع ، وقد صرح بذلك بعضهم على ضوء دراستهم لهذا الموقع ومشاهدتهم له .

وتحدث ابن اسحاق عن غزوة حنين فقال : ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصرى ، فاجتمع اليه مع هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت نصر

(١) مجلة العرب ١٧ - ١٦٧ .

وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال وهم قليل ، ولم يشهدا من قيس عيلان إلا هؤلاء ، وغاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب وكراب ، ولم يشهدا منهم أحد له اسم - وفي بنى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخا مجريا ، - وفي ثقيف سيدان لهم ، وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب ، وفي بنى مالك - والخمار سبيع بن الحارث بن مالك ، وأخوه أحمر بن الحارث ، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري .

فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ حط مع الناس أموالهم ونساءهم ، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة في شجار له يقاد به ، فلما نزل قال : بأى واد أنتم ؟ قالوا بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرر ولا سهل دهس ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ، قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ودعى له ، فقال : يامالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ قال : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال : ولم ذاك ؟ قال أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، قال : فانقض به ، ثم قال راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلک ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب وكراب ؟ قالوا : لم يشهدا منهم أحد ، قال : غاب الحد والجذ ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكراب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكراب ، فمن شهدا منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، قال : ذلك الجدعان من عامر ، لا ينفعان ولا يضران ،

يامالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن الى نحور الخيل شيئا ، إرفعهم إلى متمنّ بلادهم وعلياً قومهم ، ثم الق الصباء على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت عليك الفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك . قال : والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك . والله لتطيعنني يامعشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر أو رأى ، فقالوا : أطعناك فقال دريد بن الصمة : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني :

ياليتني فيها جـذع أخـبـفـيها وأضـع
أقـود وطفـاء الـزـمـع كأنها شاة صـدـع

قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول الله ﷺ السير الى هوازن ليلقاهم ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا له وسلاحا ، فأرسل اليه وهو يومئذ مشرك ، فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا ، فقال صفوان : أغصبا يامحمد ؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله ﷺ سألته أن يكفيهم حملها ففعل .

قال ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، فكانوا إثني عشر ألفا ، واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة ، أميرا على من تخلف عنه من الناس ، ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد لقاء هوازن .

وروى ابن إسحاق بسنده عن جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادي حنين إنحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط ،

إنما ننحدر فيه إنحدارا ، قال : وفي عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا الى الوادى ، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه وموائقه وقد أجمعوا وتهيؤا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتاب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين ، لا يلوى أحد على أحد .

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال : أين أيها الناس ؟ هلموا إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . قال : فلا شيء ، حملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس ، إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ ، نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

قال ابن إسحاق : فلما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفات أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام لمعه في كنانته ، وصرح جبلة بن الحنبل - وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ - : ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان : إسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يرينى رجل من قريش أحب إلى من أن يرينى رجل من هوازن .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل مكة ، أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة الى حنين ، ورأى كثرة من معه من جنود الله : لن نغلب من قلة .

قال ابن إسحاق : وزعم بعض الناس أن رجلا من بنى بكر قالها . وروى ابن إسحاق بسنده عن العباس بن عبد المطلب ، قال انى لمع رسول الله ﷺ أخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها ، قال وكنت أمراء جسيما شديد الصوت ، قال ورسول الله ﷺ يقول حين

رأى ما رأى من الناس : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال : يا عباس ، إصرخ يامعشر الأنصار : يامعشر أصحاب السمرة ، قال : فأجابوا : لبيك ، لبيك ، قال : فيذهب الرجل ليشنى بعيرة فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيلة ، فيؤم الصوت حتى ينتهى الى رسول الله ﷺ . حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة إستقبلوا الناس فاقتتلوا ، وكانت الدعوى أول ما كانت : يالأنصار ، ثم خلصت أخيراً : ياللخزج وكانوا صبرا عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه ، فنظر إلى مجلدة القوم وهم يجتلدون فقال : الآن حمى الوطيس .

قال : واجتلد الناس ، فوالله ما رجعت راجعه الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : فلما انهزمت هوازن إستحرق القتل من ثقيف في بنى مالك ، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم ، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب ، وكانت رايتهم مع ذى الخمار ، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ، قال : لما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال : أبعد الله فإنه كان يبغض قريشا .

قال ابن إسحاق : ولما إنهزم المشركون ، أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنوا غبرة من ثقيف . وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا .

قال ابن إسحاق : وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بعض من إنهزم ،

فناوشوه القتال فرمى أبو عامر بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن عمه فقاتلهم ، ففتح الله على يديه وهزمهم .

قال ابن اسحاق : ثم جمعت إلى رسول الله ﷺ سبأيا حنين وأموالها وكان على المغانم مسعود بن عمرو الغفاري وأمر رسول الله ﷺ بالسبأيا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها .

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس ، ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانه ، وكان مع رسول الله ﷺ من سبى هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الابل والشاء ما لا يدرى ماعدته .

قال ابن إسحاق فيما رواه بسنده عن عبد الله بن عمرو : أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا ، فقالوا : يارسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك قال : وقام رجل من هوازن ، ثم أحد بنى سعد بن بكر ، يقال له زهير ، يكنى أبا صرد ، فقال يارسول الله ، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونسأؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يارسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا فهو أحب إلينا ، فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم ، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : وأما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا

فهو لرسول الله ﷺ . وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنوا تميم فلا . وقال عيينة بن حسن : أما أنا وبنوا فزارة فلا . وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنوا سليم فلا . فقالت بنوا سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

قال : يقول عباس بن مرداس لبنى سليم : وهنتموني . فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض ، من أول سبى أصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

قلت : هذا خلاصة ما ذكره ابن هشام من خبر غزوة حنين موجزا ومجردا من الأخبار الجانبية والأشعار التي قيلت في هذه الغزوة وتخصيص المؤلفة قلوبهم بالعطاء الكثير من غنائم حنين .

حنين أيضاً : بالمهمله والياء بين نونين : خليج صغير تدخل فيه السفن الصغيرة شمال رابغ ، بين الخرار ومستورة ، يجاوره من الجنوب الرأس الأبيض ، وفيه الزبائر وقد يكون حنين هذا مأوى لبعض المهريين .

ورأس حنين : رأس بطرف ذلك الخليج قاله عاتق البلادي .



ديار بنى النضير : جمع دار ، بدال مهملة مكسورة بعدها ألف ثم راء مهملة : منازل بنى النضير في المدينة ، في البويرة (حصونهم : جمع حصن) .

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ ^(١) .

قال ابن كثير في تفسير الآية : يعنى يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهرى وغير واحد ، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهدا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه فأحل الله بهم من بأسه الذي لا مرد له فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع المسلمون وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله ، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا الى أذرعات من أعالي الشام ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر .

وقوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومناعتها ولهذا قال تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أي جاءهم من الله أمر لم يكن لهم في بال .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أي الخوف والهلع والجزع .

(١) سورة الحشر الآية رقم : ٢ .

وقال ابن جرير عن قتادة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ قيل : الشام ، وهم بنوا النضير حتى من اليهود فأجلاهم نبي الله ﷺ من المدينة الى خيبر مرجعه من أحد .

قلت : وكانت منازل بنوا النضير في المدينة في مكان يقال له البويرة .

روى البخاري في صحيحة عن نافع عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه حرق نخل بنى النضير وقطع ، وهي البويرة ، ولها يقول حسان :

لهان على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

قال ابن حجر : والبويرة بضم الباء الموحدة مصغر موضع معروف .

وقال زين الدين المراغي : ونقل رزين ، ووفاته سنة أربع وعشرين وخمسائة من أن الموضع المعروف بالبويرة بقاء صدقة النبي ﷺ من النخل ، قال : ولم تزل معروفة للمساكن محبوسة على من مربها الى عهد قريب من تاريخ الخمسمائة كالعشرين سنة ونحوها ، فتغلب عليها بعض ولاة المدينة لنفسه ، قال : وبها حصن النضير وحصون قريظة .

والبويرة اليوم معروفة في قبلة مسجد قباء الى جهة المغرب وبالقرب منها أطم خراب ولعله الذي أراد ، وقد توالى عليها يد الملاك بالغلبة .

وقال ياقوت : البويرة : تصغير البئر التي يستقى منها الماء ،
والبويرة : هو موضع منازل بنى النضير اليهود الذين غزاهم رسول
الله ﷺ ، بعد غزوة أحد بستة أشهر ، فأحرق نخلهم وقطع زرعهم
وشجرهم . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ
تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

يعز على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

فأجاب حسان بن ثابت :

أدام الله ذالكهم حريقاً وضرم في طوائفها السعير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه وهم عمى عن التوراة بور

وقال جمل بن جوال التغلبي :

وأوحشت البويرة من سلام وسعد وابن أخطب فهي بور

وقال ياقوت أيضاً : والنضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا
بالمدينة وكانوا هم وقريظة نزولاً بظاهر المدينة في حدائق وأطام لهم ،
وغزوة بنى النضير لم أر أحداً من أهل السير ذكر أسماء منازلهم ، وهو
مما يحتاج إليه الناظر في هذا الكتاب فبحثت فوجدت منازلهم التي
غزاهم النبي ﷺ فيها تسمى وادي بطحان .. وبموضع يقال له البويرة .

وفي المغانم المطابة : أورد ما ذكره ياقوت في غزوة النضير
وتحديد منازلهم ، ولم يزد عليه .

وقال البكري : البويرة : بضم أوله ، وبإلراء المهملة على لفظ التصغير ، فعلية ... وهي من تيماء . ثم ذكر غزوة النبي ﷺ لبنى النضير ، وسيأتى إيضاحه .

وقال السمهودي : بويرة- تصغير البئر التي يستقى منها- وفي الصحيح حرق نخل النضير وهو البويرة .

وقال المجد : البويرة موضع منازل بنى النضير وذكره المرجاني . وقال ابن سيد الناس في قوله : حريق بالبويرة مستطير

ويروى (بالبويلة) قال وذكر ابن سعد أن رسول الله ﷺ أعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة البويلة من أرض بنى النضير .

وقد أطل السمهودي الحديث في التفريق بين البويرة هي منازل بنى النضير التي غزاها النبي ﷺ ، وبين البويلة ، باللام التي هي مال من أموالهم أعطاها النبي ﷺ الزبير بن العوام وأبا سلمة .

قلت : مما تقدم من أقوال العلماء يتضح ويدون خلاف أن البويرة بإلراء المهملة هي منازل بنى النضير التي غزاها النبي ﷺ وأحرق نخلها وقطع أشجارها وأجلاهم منها .

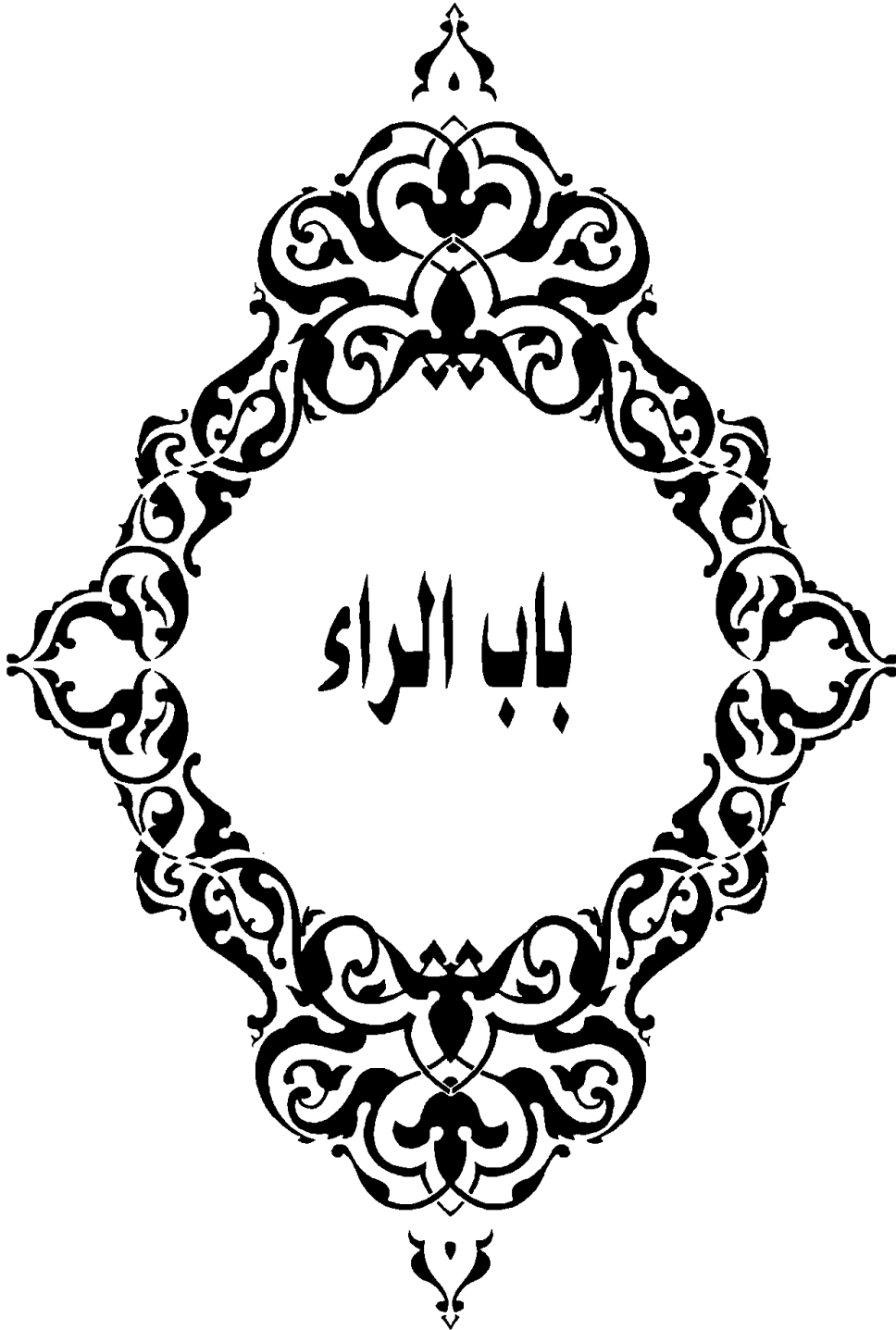
أما البويلة باللام ، فإنه حصن من حصونهم .

قال الواقدي : وهو يتحدث عن أموال بنى النضير التي أفاء الله على رسوله ﷺ ، وما أعطاه لبعض أصحابه منها : وأعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة بن عبد الأسد البويلة .

وذكر السمهودي أن البويلة أطم من أطام اليهود ، نقلا عما ذكر ابن زبالة .

أما ما قاله ياقوت في تحديد منازل بني النضير فانه لا خلاف في ذلك بين قوله : وادى بطحان وبموضع يقال له البويرة ، لما يأتي .

أما قول البكري : في تحديد البويرة وهي من تيماء ، فان البويرة التي ذكر أنها في تيماء غير البويرة التي هي منازل بني النضير في المدينة- كما هو مفهوم من أقوال المؤرخين . وفي رسم المدينة مزيد من الايضاح فانظره .



ريوة : براء مهملة مفتوحة وباء موحدة ساكنة بعدها واو
مفتوحة وآخره هاء : موضع في دمشق ، على أرجح
الأقوال .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا
إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : قول تعالى : ﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ﴾ يقول :
وضممناهما وصيرناهما إلى ربوة ، يقال : آوى فلان إلى موضع كذا ،
فهو يأوى إليه إذا صار إليه . وقوله ﴿ إِلَى رَبْوَةٍ ﴾ يعني : إلى مكان
مرتفع من الأرض على ما حوله ، وفيها لغتان : ضم الرء ، وكسرها إذا
أريد بها الاسم ، وإذا أريد بها الفعلة من المصدر ، قيل : ربي ربوة .
واختلف أهل التأويل في المكان الذي وصفه الله بهذه الصفة ، وآوى إليه
مريم وابنها ، فقال بعضهم : هي الرملة من فلسطين .

وروى بسنده عن أبي هريرة قال : الزموا هذه الرملة من
فلسطين ، فإنها الربوة التي قال الله : ﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ
قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ .

وروى بسنده عن كريب ، قال : ما أدري ما حدثنا مرة البهزي ،
أنه سمع رسول الله ﷺ ذكر أن الربوة : هي الرملة من فلسطين .

وروى بسنده عن سعيد بن المسيب أنه قال في هذه الآية
﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : زعموا أنها دمشق .

(١) سورة المؤمنون الآية رقم : ٥٠ .

وروى بسنده عن سعيد بن المسيّب ، في قوله ﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : إلى ربيعة من ربي مصر ، قال : وليس الربي إلا في مصر ، والماء حين يرسل تكون الربي عليها القرى ، ولولا الربي لفرقت تلك القرى .

وروى بسنده عن كعب ، مثله .

وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك : أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر ، وليس كذلك صفة الرملة ، لأن الرملة لا ماء بها معين ، والله تعالى ذكر وصف هذه الربيعة بأنها ذات قرار ومعين .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ﴾ قال : الربيعة المستوية .

ويسنده عن مجاهد : مثله .

وروى بسنده عن ابن عباس ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ قال : المعين : الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله : ﴿ قَدْ جَعَلْ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا ﴾ .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ الربيعة المكان المرتفع من الأرض . والمراد بها ههنا في قول أبي هريرة فلسطين . وعنه أيضا : الرملة . وروى عن النبي ﷺ . وقال ابن عباس وابن المسيّب وابن سلام : دمشق . وقال كعب وقتادة : بيت المقدس . قال كعب : وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . قال :

فكنت هميدا تحت رمس بريوة تعاورني ريح جنوب وشمال

وقال ابن زبد : مصر . وروى سالم الأفطس عن سعيد بن جببر :
﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ﴾ قال : النشز من الأرض . ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾
أي مستوية يستقر عليها . وقيل : ذات ثمار ، ولأجل الثمار يستقر
فيها الساكنون . ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ماء جار ظاهر للعيون . وقال الزجاج
: هو الماء الجاري في العيون .

وقال ياقوت : ربوة : بضم أوله وفتح وكسره ، والضم أجود ،
وأصله ما ارتفع من الأرض وجمعها ربي ، قال المفسرون في قوله عز
وجل : ﴿ وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ، إنها دمشق ،
وذات قرار أي قرار من العيش ، ودمشق في لحف جبل على فرسخ
منها موضع ليس في الدنيا أنزه منه ، لأنه في لحف جبل ، تحته سواء
نهر بردي ، وهو مبني على نهر ثوري ، وهو مسجد عال جدا وفي رأسه
نهر يزيد يجري ويصب منه ماء إلى سقايته وإلى بركة ، وفي ناحية
ذلك المسجد كهف صغير يزار يزعمون أنه المذكور في القرآن وأن
عيسى ، عليه السلام ، ولد فيه .

وتحدث ابن بطوطة عن أرباض دمشق فقال : وفي آخر جبل
قايسون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى
المسيح عيسى وأمه ، عليهما السلام ، وهي من أجمل مظاهر الدنيا
ومنتزهاتها ، وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة ، والبساتين البديعة .

والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير وإزاءها
بيت يقال إنه مصلى الخضر ، عليه السلام ، يبادر الناس إلى الصلاة فيه ،
وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به ، وله شوارع دائرة وسقاية
حسنة ينزل لها الماء من علو ، وينصب في شاذروان في الجدار يتصل
بحوض من رخام ، ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل .

وبقرب ذلك مظاهر للوضوء يجرى فيها الماء . وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق ، وبها منابع مياهها ، وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار ، كل نهر أخذ في جهة ، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم . وأكبر هذه الأنهار النهر المسمى بتعورة ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نحت له مجرى في الحجر الصلد كالغار الكبير ، وريّما انغمس ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة ، واندفع في الماء حتى يشقّ مجراه ويخرج من أسفل الربوة ، وهي مخاطرة عظيمة .

وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ، ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها ، وتلك الأنهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الأعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف .

قلت : ومما تقدّم من أقوال المفسّرين على اختلافها - وأقوال المؤرخين يترجّح أن الربوة في دمشق حيث حددها ووصفها المؤرخون فيما ذكر .

الرس : براء مهملة مفتوحة وسين مهملة مشدّدة : قيل قرية بأنطاكية ، وقيل بأذربيجان ، وقيل قرية من بلاد ثمود بفلج باليمامة ، وقيل : غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ ^(١) .

(١) سورة المؤمنون الآية رقم : ٥٠ .

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ (١) .

قال ابن جرير: يقول تعالى: ودمرنا أيضا عادا وثمود
وأصحاب الرس .

واختلف أهل التأويل في أصحاب الرس ، فقال بعضهم : أصحاب
الرس من ثمود .

وروى بسنده عن ابن عباس : ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ قال : قرية
من ثمود .

وقال آخرون : بل هي قرية من اليمامة يقال لها الفلج .
وروى بسنده عن قتادة قال : الرس : قرية من اليمامة يقال لها الفلج .
وروى بسنده عن عكرمة قال : أصحاب الرس بفلج هم أصحاب يس .
وقال آخرون : هم قوم رسوا نبيهم في بئر .
وروى بسنده عن عكرمة : قال كان الرس بئرا رسوا فيها نبيهم .
وقال آخرون : هي بئر كانت تسمى الرس .
وروى بسنده عن ابن عباس ، ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ هي بئر كانت
تسمى الرس .

وروى بسنده عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾
قال الرس بئر كان عليها قوم .

وقال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك ، قول من قال :
هم قوم كانوا على بئر وذلك أن الرس في كلام العرب كل محفور
مثل البئر والقبر ونحو ذلك ومنه قول الشاعر :

(١) سورة المؤمنون الآية رقم : ٥٠ .

تءابل يحفرون الرساسا

يريد أنهم يحفرون المعادن ، ولا أعلم قوما كانت لهم قصة بسبب حفرة ذكره الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود .

وقال ابن كثير : قال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يسن ، وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَصْحَابُ الرِّسِّ ﴾ قال : بئر بأذربيجان . وقال الثوري : عن أبي بكر عن عكرمة : الرس بئر رسوا فيه نبيهم أي دفنوه .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس الأخدود الذي ذكروا في سورة البروج .

وقال القرطبي : ﴿ وَأَصْحَابُ الرِّسِّ ﴾ والرس في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية والجمع رساس ، قال :

تءابل يحفرون الرساسا

يعني آبار المعادن ، وقال ابن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرس قال : صاحب ﴿ يَسَّ ﴾ الذي قال : ﴿ يَلْقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ قتله قومه ورسوه في بئر لهم يقال لها : الرس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل .

وقال السدي : هم أصحاب قصة ﴿ يَسَّ ﴾ فنسبوا إليها .

وقال علي رضي الله عنه : هم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ، وكان من ولد يهوذا ، فبيست الشجرة فقتلوه ورسوه في بئر ، فأضلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم .

وقال ابن عباس : هم قوم بأذريجان قتلوا نبيا فجفت اشجارهم وزروعهم فماتوا جوعا وعطشا .

وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشي ، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم شعبيا فكذبوه وآذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت بهم وبديارهم ، فخسف الله بهم فهلكوا جميعا .

وقال قتادة : أصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعبيا فكذبوه فعذبهما الله بعذابين ، قال قتادة : والرس قرية بفلج اليمامة .

وقيل هم أصحاب الأخدود حفروا الأخاديد وحرقوا فيها المؤمنين ، وقيل هم بقايا من قوم ثمود .

وفي الصحاح : والرس اسم بئر كانت لبقية من ثمود .

وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السحق وكان نساؤهم كلهم سحاقات .

وروى من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : (إن من أشراط الساعة أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق) وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرنا ، ذكره الثعلبي وغيره .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية : قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ ٢٨ ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ وقال تعالى في سورة ق ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ ٢٢ ﴿ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

لُوطٍ ﴿١٦٧﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٦٨﴾
وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبرأوا وهو
الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين
ذكروا في سورة البروج ، لأن أولئك عند ابن اسحاق وجماعة كانوا
بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضا .

وفي القاموس الإسلامي قال : الرس في اللغة أول مس الحمى ،
والرس البئر المعقودة بالحجارة أو البئر القديمة ، وقيل : هي بئر
معينة ينسب إليها أصحاب الرس . الذي ألقوا نبيهم في هذه البئر .

وقد ورد اسم أصحاب الرس مرتين في القرآن مقرونا باسم ثمود .
الرس : الاسم الذي أطلقه العرب على نهر أراكس الذي يعتبر
اليوم حداً يفصل بين إيران وجمهورية أرمينيا وأذربيجان السوفيتية ،
وكان في الماضي يمثل الحد الشمالي لولاية أذربيجان التاريخية ،
ويلتقي نهر الرس قبيل مصبه في بحر قزوين بنهر الكر ويضمّان بينهما
عددا من المواضع التاريخية .

وتذكر رواية اسطورية أن بلاد هذا الإقليم كانت عامرة في
الماضي القديم ثم اندثرت وتحولت إلى أطلال ، وأن أهلها هم الذين
ورد ذكرهم في القرآن ، وتذكر رواية أخرى أن أهل هذا الإقليم هم
رهط جالوت ، الذي قتله داود النبي عليه السلام .

وفي الروض المعطار : الرس : نهر يأخذ من مدينة قاليقلا
على فرسخين ثم يشق مغرباً إلى ديبيل ، وخلف الرس- فيما يقال-
ثلاثمائة وستون مدينة خراباً ، وهو قول الله عز وجل ﴿ وَأَصْحَابُ
الرَّسِّ وَقرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ .

وقيل : الرس بناحية صيهء من ارض اليمن والله أعلم .
وقال ياقوت : الرس بفتح أوـله والتشديد : البئر ، والرس :
المعدن ، والرس : إصلاح ما بين القوم .

قال أبو منصور : قال أبو إسحاق : الرس في القرآن بئر ، يروى
أنهم قوم كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيها ، قال : ويروى أن
الرس ديار لطائفة من ثمود ، وكل بئر رس .

وقال آخرون في قوله عز وجل : ﴿ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ
ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ ، قال : الرس وادي أذربيجان وحد أذربيجان ما وراء
الرس ، ويقال : إنه كان بأران على الرس ألف مدينة فبعث الله إليهم
نبيا يقال له موسى ، وليس بموسى بن عمران ، فدعاهم إلى الله
والإيمان به فكذبوه وجحدوه وعصوا أمره فدعا عليهم فحوّل الله
الحارث والحويرث من الطائف فأرسلهما عليهم ، فيقال أهل الرس
تحت هذين الجبلين ، ومخرج الرس قاليقلاء ويمر بأران ثم يمر
بروثان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو والكر وبينهما مدينة البيلقان ،
ويمر الكر والرس جميعا فيصبان في بحر جرجان .

والرس هذا واد عجيب فيه من السمك أصناف كثيرة .
ونهر الرس يخرج إلى صحراء البلاجسان ، وهي إلى شاطئ
البحر في الطول من برزند إلى برذعة ، ومنها ورثان والبليقان ، وفي
هذه الصحراء خمسة آلاف قرية وأكثرها خراب إلا أن حيطانها
وأبنيتها باقية لم تتغير لجودة التربة وصحتها ، ويقال أن تلك القرى
كانت لأصحاب الرس الذين ذكرهم الله في القرآن المجيد ويقال
إنهم رهط جالوت قتله داود وسليمان عليهم السلام ، لما منعوا الخراج
وقتل جالوت بأرمية .

قلت : كلّ ما قاله المفسّرون فيما تقدّم لا يختلف فيه بعضهم عن بعض فهي أقوال كثيرة غير أنها لم تتفق على تعريف واحد لأصحاب الرس ومساكنهم أهي قرية في الفلج في اليمامة أو بلدة بأذربيجان أو بلدة بأنطاكية أو أنهم أصحاب الأخدود الذين جرى حدثهم في نجران ويبدوا قولهم : الرس قرية من قرى نمود في الفلج في اليمامة أكثر وضوحاً وترجّحاً في أقوالهم .

وقال القزويني في حديثه عن أذربيجان : وبها نهر الرّس وهو نهر عظيم شديد جري الماء . وفي أرضه حجارة كبيرة لا تجرى السفن فيه ، وله أجراف هائلة وحجارة كبيرة . وأران ناحية بين أذربيجان وأرمينية وبلاد أبخازبها مدن كثيرة وقرى ، قصبتها جنزة وشروان وبيلقان .

وبها نهر الكرّ وهو ونهر بين أرمينية وأران ، يبدأ من بلاد خزران ثم يمرّ ببلاد الأبخاز من ناحية اللان ، فيمرّ بمدينة تفليس يشقها ثم يمرّ بجنزة وشمكور ويجرى على باب بردعة ، ثم يختلط بالرّس ، والرّس أصغر منه وينصبّ في بحر الخزر على ثلاثة فراسخ من بردعة .

وقال ابن الفقيه : وحدّ أذربيجان إلى الرّس والكرّ بأرمينية ، ومخرج الرّس من قاليقلا ، ويمرّ بأران فيصب فيه نهر أران ، ثم يمرّ بورثان ويمرّ بالمجمع فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، ويمرّان جميعاً فيصبّان في بحر جرجان . والرس واد عجيب ، وفيه أنواع من السمك .

وقال ابن خرداذبة : ومخرج الرّس نهر أرمينية من قاليقلا ويمرّ بأران ويصبّ فيه نهر أران ثم يمرّ بورثان حتى يبلغ المجمع وهو مجمع البحرين الذي ذكره الله جلّ وتقدّس - فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، فإذا اجتمعا مرّاً حتى يصبّا في بحر جرجان .

وفي نخبة الدهر قال : نهر الكرّ ونهر الرّس : وهما نهران غزيران جرّاران ، فأما نهر الرّس فسريع الجرية لا يحتمل السفينة .. ويقال : إن أصحاب الرّس المذكورين في القرآن العزيز كانوا سكان جوانب هذا النهر وبهم سمّى الرّس ، وأن بشواطئه آثاره ظاهرة إلى الآن ، ويخرج نهر الرّس من أقاصي بلاد الروم ، على ما ذكره المسعودي .

وقال غيره : يخرج من أرض طرابزنده هي اليوم طرابزون فإذا جاوزها مرّ بقاليقلا على فرسخين منها ثم يمرّ على أردبيل ، ثم على توران ثم يصبّ في نهر الكرّ عند برديج .

وأما نهر الكرّ : فهو نهر بأرض أرمينية ، وانبعثه من بلاد اللان ، ويمرّ ببلاد الأبخاز حتى يأتي ثغر تفليس ويجري في جبال الساورديّة ، ثم يخرج بأرض بردعة ، ويجري إلى برديج فيصب فيه نهر الرّس فيصيران نهرا واحدا ، والذي يختلط بنهر الرّس ليس هو كل نهر الكرّ بل فرع منه ، ثم يدخلان بحر الخزر فيصبّان فيه .

قلت : ومن أقوال هؤلاء المؤرخين يفهم أنهم يرجّحون أن أصحاب الرّس الذين أهلكهم الله لما كذبوا نبيّهم الذي أرسله الله إليهم كانوا يعيشون على ضفاف نهر الرس الذي يدفع بعد التقائه بنهر الكرّ في بحر قزوين من الناحية الغربية . والله أعلم .

قلت : الرس من الأسماء المشتركة التي يسمّى بها أكثر من مكان واحد ، فمن هذه الأمكنة غير ما تقدّم عن موطن أهل الرس :

١- نهر الرس الذي يخرج من قاليقلاء ويمرّ بأران ثم بورثان ثم يمرّ بالمجمع فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان فيصبّان جميعا في بحر جرجان كما تقدّم .

٢- الرس : مدينة مشهورة في غربي مدن القصيم وهي في هذا العهد من المدن النامية عمرانيا واجتماعيا .

والرس قديماً من منازل بني أسد وهو معروف بهذا الاسم .

قال ياقوت : قال ابن دريد : الرس والرسيس بوزن تصغير الرس ، واديان بنجد أو موضعان ، وبعض هذه أرادت ابنة مالك بن بدر ترني أباهما إذ قتله بنو عيس بن مالك بن زهير فقالت :

ولله عينا من رأى مثل مالك	عقيرة يوم ، إن جرى فرسان
فليتهما لم يشربا قط شربة	وليتهما لم يرسلأ لرهان
أحلّ به أمس جنيدب نذره	فأيّ قتيل كان في غطفان
إذا سجعت بالرقمتين حمامة	أو الرس تبكي فارس الكتفان

وقال الزمخشري : قال عليّ : الرس من أودية القبليّة ، وقال غيره : الرس ماء لبني منقذ بن أعيان بني أسد ، قال زهير :

لمن طلل كالوحي عاف منازل	عفى الرس منه فالرسيس فعاقله

وقال أيضا :

بكرنا بكورا واستحرن بسحرة	فهنّ لوادي الرس كاليد للضم

وقال الأصمعي : الرس والرسيس (فالرسيس) لبني أعيان رهط حمّاس ، والرسيس لبني كاهل .

وقال ياقوت : الرسيس تصغير الرس : واد بنجد ، عن ابن دريد لبني كاهل من بني أسد بالقرب من الرس ، قال القتال :

نظرت وقد جلى الدجى طاسم الصوى	بسلع وقرن الشمس لم يترجل

الى ظعن بين الرسيس فعاقل عوامد للشيقين أو بطن خنثل

وقال الحطيئة :

كأنى كسوت الرجل جونا رباعيا شنونا تربته الرسيس فعاقل

قلت : الرس والرسيس وعافل أودية متقاربة ، كلها في غربى منطقة القصيم ما زالت معروفة ، وكثيرا ما يذكر المؤرخون ﴿الرَّسِّ﴾ الذي في منطقة القصيم مع ذكر الرس الذي هو منازل أهل الرس الذين أهلكهم الله ، وللس الواقع في بلاد القصيم في بلاد بنى أسد قديما شهرة في كتب المعاجم وفي أشعار المتقدمين .

الرقيم : براء مهملة مفتوحة وقاف مثناة مكسورة وباء مثناة ساكنة وآخره ميم : قيل : واد ، وقيل : قرية ، وقيل : لوح كتبت عليه أسماء أهل الكهف ، وقيل : غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾^(١) .

قال ابن كثير : أما الكهف : فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ اليه هؤلاء الفتية المذكورون . وأما الرقيم : فقال العوفى عن ابن عباس هو واد قريب من أيلة وكذا قال عطية العوفى وقتادة . وقال الضحاك : أما الكهف فهو غار في الوادى والرقيم اسم الوادى ، قال مجاهد : الرقيم كان بنيانهم ، ويقول بعضهم هو الوادى الذي فيه كهفهم .

وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿وَالرَّقِيمِ﴾ قال يزعم كعب أنها القرية ، وقال ابن

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٩ .

جريح عن ابن عباس الرقيم الجبل الذي فيه الكهف . وقال ابن اسحاق : عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال اسم ذلك الجبل بنجلوس ، وقال ابن جريح أخبرني وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي أن اسم جبل الكهف بنجلوس ، واسم الكهف حيزم ، والكلب حمران . وروى عبد الرزاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : القرآن أعلمه الا حنانا والأواه والرقيم .

وقال سعيد بن جبیر : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال ابن جرير : أما الكهف فانه كهف الجبل الذي أوى اليه القوم الذين قص الله شأنهم في هذه السورة .

وأما الرقيم : فان أهل التأويل اختلفوا في المعنى به ، فقال بعضهم هو اسم قرية ، أو واد على اختلاف بينهم في ذلك .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : يزعم كعب أن الرقيم القرية . وروى بسنده عن عطية ، قال : الرقيم واد . ويسنده عن قتادة ، قوله ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ كنا نحدث أن الرقيم : الوادى الذي فيه أصحاب الكهف .

ويسنده عن الضحاك ، يقول : أما الكهف فهو غار الوادى ، والرقيم اسم الوادى .

وقال آخرون : الرقيم الكتاب . وروى بسنده عن ابن عباس ، قوله ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ يقول الكتاب .

وروى بسنده عن سعيد بن جبير قال : الرقيم : لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال آخرون : بل هو أسم جبل أصحاب الكهف .

وروى بسنده عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : الرقيم الجبل الذي فيه الكهف .

قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب في الرقيم أن يكون معنيا به : لوح ، أو حجر ، أو شيء كتب فيه كتاب .

وقال القرطبي : اختلف الناس في الرقيم ، فقال ابن عباس : كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربع : غسلين ، وحنان ، والأواه ، والرقيم . وسئل مرة عن الرقيم فقال : زعم كعب أنها قرية خرجوا منها ، وقال مجاهد : الرقيم واد ، وقال السدي : الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف . وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غم الله علينا أمره ، ولم يشرح لنا قصته .

وقالت فرقة : الرقيم كتاب في لوح نحاس . وقال ابن عباس : في لوح من رصاص كتب فيه القوم الكفار الذين فر الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخا لهم ، ذكروا وقت فقدهم . وقال الفراء : الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا .

قال القرطبي : ما روى عن ابن عباس ليس متناقضا ، لأن القول الأول إنما سمعه من كعب ، والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده .

وقال الضحاك : الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفسا كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف ، فعلى هذا هم فتية آخرون ، جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف والله أعلم .

وقال ابن الأثير في تاريخه : كان أصحاب الكهف أيام ملك اسمه ديقوس ، ويقال : دقيانوس ، وكانوا بمدينة للروم اسمها أفسوس ، وملكهم يعبد الأصنام ، وكانوا فتية آمنوا بربهم كما ذكر الله تعالى - ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ، والرقيم خبرهم كتب في لوح وجعل على باب الكهف الذي أووا اليه ، وقيل : كتبه بعض أهل زمانهم وجعله في البناء ، وفيه أسماؤهم وفي أيام من كانوا وسبب وصولهم الى الكهف .

وقال المسعودي : دقيوس ملك يعبد الأوثان ستين سنة ، وأمعن في قتل النصرانية وطلبهم - ، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف ، وقد اختلف الناس في أصحاب الكهف والرقيم .

فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم ، وزعموا أن الرقيم هو ما رقم من أسماء أهل الكهف في لوح من حجر على باب تلك المغارة ، ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف ، وقد ذكرنا كلا الموضعين بأرض الروم .

وقال ابن خرداذبة : أفسيس في رستاق الأواسى ، وهى مدينة أصحاب الكهف . فأما أصحاب الرقيم فبخرمة رستاق بين عمورية ونيقية .

قلت : فيما قاله المفسرون والمؤرخون عن تحديد موقع الكهف والرقيم نرى اختلافا كثيرا بينهم ولم نر أن أحدا منهم بلغ تعريفا يتفق عليه المفسرون والمؤرخون . كما أنهم اختلفوا في أمر الرقيم : هل هو واد أو جبل أو قرية أو لوح من حجر أو من رصاص ، وهل أهل الرقيم هم أهل الكهف ، أم أنهم قوم آخرون ، غير أن أقوالهم لا تستبعد أن يكون الكهف والرقيم في بلاد الروم ، وقد صرح بذلك بعضهم وجزم به ، والله أعلم .

وتحدث ياقوت عن الرقيم حديثا شاملا لأقوال العلماء فقال :
الرقيم ، بفتح أوله وكسر ثانية ، وهو الذي جاء ذكره في القرآن ،
والرقيم والترقيم : تعجيم الكتاب ونقطة وتبيين حروفه ، وكتاب
رقيم أى مرقوم ، فعيل بمعنى مفعول ، قال الشاعر :

سأرقم في الماء القراح اليكم على بعدكم أن كان للماء راقم

ويقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له الرقيم ، يزعم
بعضهم أن به أهل الكهف ، والصحيح أنهم ببلاد الروم كما نذكره .

وهذا الرقيم أراد كثير بقوله ، وكان يزيد بن عبد الملك ينزله ،
وقد ذكرته الشعراء :

أمير المؤمنين اليك نهوى	على البخت الصلادم والعجوم
إذا اتخذت وجوه القوم نصبا	أجيج الواهجات من السموم
فكم غادرن دونك من جهيض	ومن نعل مطرحة جذيم
يزرن على تنائيه يزيدا	بأكناف الموقر والرقيم
تهنئة الوفود إذا أتوه	بنصر الله والملك العظيم

قال الضراء في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ
وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ﴾ قالوا : وهو لوح رصاص كتبت
فيه انسابهم وأسماؤهم ودينهم ومما هربوا .

وقيل : الرقيم القرية التي كانوا فيها ، وقيل : انه اسم الجبل
الذي فيه الكهف .

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال : ما أدري
ما الرقيم أكتاب أم بنيان ، وروى غيره عن ابن عباس : أصحاب

الرقيم سبعة ، وأسماءهم : يملخا ، مكسملينا ، مشلينا ، مرطونس ،
دبريوس ، سرابيون ، أفستطيوس واسم كلبهم قطمير ، واسم ملكهم
دقيانوس ، واسم مدينتهم التي خرجوا منها أفسنس ورستاقها الرس ،
واسم الكهف الرقيم ، وكان فوقهم القبطر دون الكردي . وقد قيل
غير ذلك في أسمائهم .

والكهف المذكور الذي فيه أصحاب الكهف بين عمورية ونيقية ،
وبينه وبين طرسوس عشر أيام أو أحد عشر يوماً .

وكان الواثق قد وجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم
للنظر الى أصحاب الكهف والرقيم ، قال : فوصلنا الى بلد الروم فاذا
هو جبل صغير قدر أسفله أقل من ألف ذراع وله سرب من وجه الأرض
فتدخل السرب فتمر في خسف من الأرض مقدار ثلاثمائة خطوة ،
فيخرجك الى رواق في الجبل على أساطين منقورة وفيه عدة أبيات ،
منها : بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليها باب حجارة فيه الموتى
ورجل موكل بهم يحفظهم معه خصيان ، وإذا هو يحيدنا عن أن
نراهم ونفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة
في بدنه ، يريد التمويه ليدوم كسبه ، فقلت : دعنى أنظر اليهم
وأنت برىء ، فصعدت بمشقة عظيمة غليظة مع غلام من غلمانى
فنظرت اليهم وإذا هم في مسوح شعر تتفتت في اليد ، وإذا أجسادهم
مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة
بعظامها غير أنني أمررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة
شعره وقوة ثيابه .

ثم أحضرنا الموكل بهم طعاما وسألنا أن نأكل منه ، فلما
أخذناه منه ذقناه وقد أنكرت أنفسنا وتهوعنا وكان الخبيث أراد قتلنا
أو قتل بعضنا ليصح له ما كان يموه به عند الملك أنه فعل بنا هذا

الفل أصحاب الرقلم فقلنا له : أنا ظلنا أنهم أألاء يشبهون الموتى
وللس هؤلاء كذللك ، فتركناه وانصرفنا .

قال غيرهم : أن بالبلقاء بأرض العرب من نواأى دمشق
موضعا يزعمون أنه الكهف والرقلم قرب عمان ، وذكروا أن عمان هى
مأنة دقمانوس ، وقيل : هى فى أفسس من بلاد الروم قرب أبلستين ،
قيل : هى مأنة دقمانوس .

وفى بر الأندلس موضع يقال به : آنان الورء به الكهف والرقلم ،
وبه قوم موتى لا ببلون كما ذكر أهلها ، وقيل : أن طللطة هى
مأنة دقمانوس .

وذكر على بن أأى أنه لما قفل من غزاته أخل ذلك الموضع
فرآهم فى مغارة يصعد إليها من الأرض بسلم مقدار ثلاثمائة ذراع ،
قال : فرأيتهم ثلاثة عشر رجلا ومنهم غلام أمرء ، عليهم آباب صوف
وأكسفة صوف ، وعليهم آفاف ونعال ، فتناولت شعرات من آبهة
أأهم فمأدتها فما منعى منها شىء .

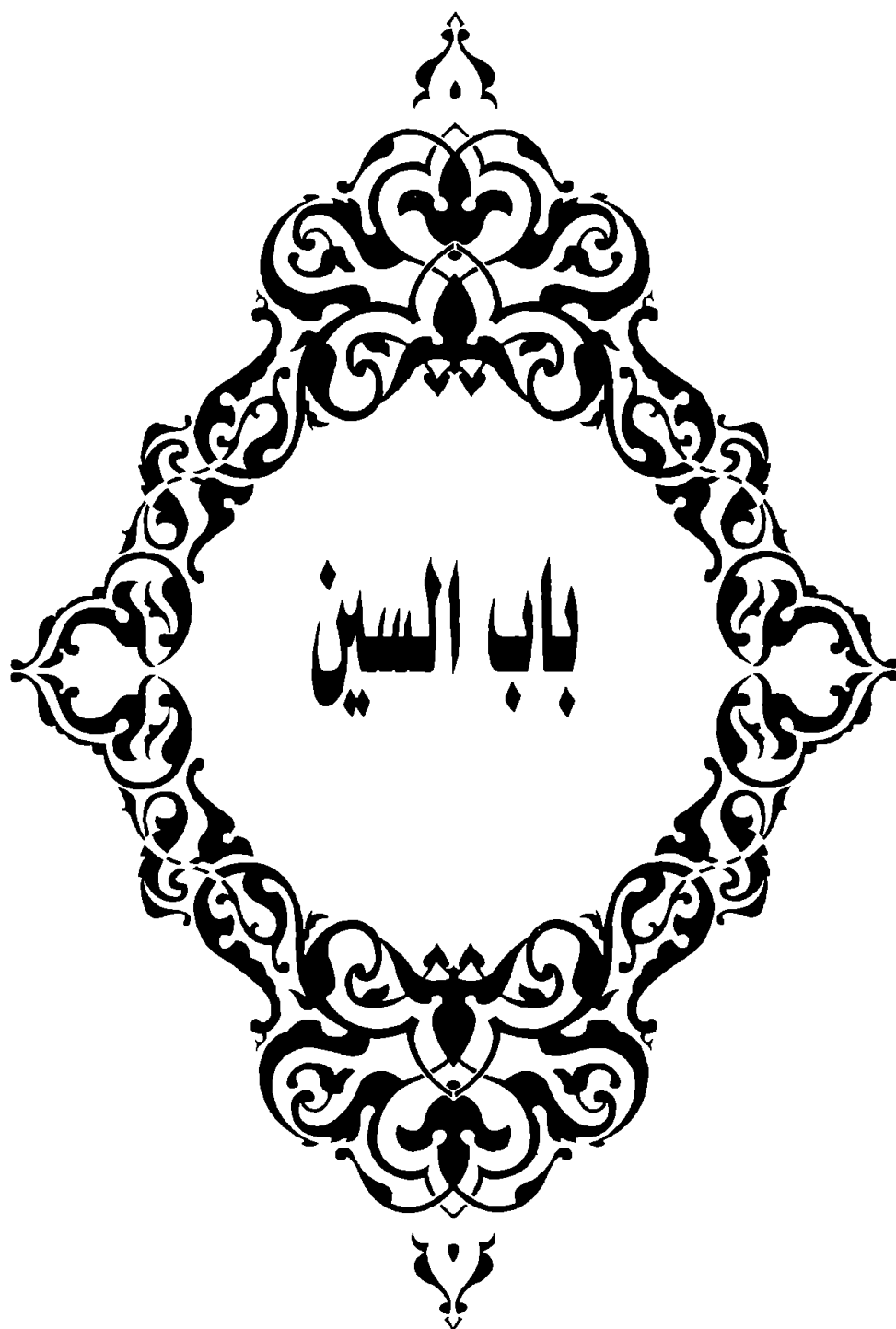
والصأأ أن أصحاب الكهف سبعة وانما الروم زاءوا الباقى من
عظماء أهل أأنهم وعالجوا أجسادهم بالصبر وأیره على ما عرفوه .

وروى عن عباءة بن الصامت قال : بعثنى أبوبكر الصأأق ،
رضى الله عنه ، سنة استألف إلى ملك الروم أأعوه إلى الاسلام أو
أأذنه بأرب ، قال : فسرت أأى أألت بلد الروم فلما أأوت إلى
القسطنطلفة لآ لنا آبل أأمرقل أن فى أصحاب الكهف والرقلم ،
وأأعنا فى إلى أأروسلنا أهل الأأر عنهم فأوقفونا على سرب فى
الآبل ، فقلنا لهم : أنا نرأ أن نأظر إليهم فآالوا : أعطونا شىئا
فوهبنا لهم أأنارا فأألوا وأألنا معهم فى ذلك السرب ، وكان علىه
باب أأأ ففأأوه فأنأهنا إلى بة عظم مأفور فى الآبل فى ثلاثة

عشر رجلا مضطجعين على ظهورهم كأنهم رقود على كل واحد منهم جبة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم الى أرجلهم ، فلم ندر ما ثيابهم أمن صوف أو ويرأم غير ذلك ، الا أنها كانت أصلب من الديباج ، وإذا هي تقعقع من الصفاقة والجودة ، ورأينا على أكثرهم خفافا الى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال مخصوفة ، ولخفافهم ونعالهم من جودة الخزوليين الجلود ما لم ير مثله ، فكششنا عن وجوههم رجلا بعد رجل فاذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء ، اذا الشيب قد وخط بعضهم وبعضهم شبان سود الشعور ، وبعضهم موفورة شعورهم ، وبعضهم مطمومة وهم على زى المسلمين ، فلما انتهينا الى آخرهم فاذا هو مضروب الوجه بالسيف وكأنه في ذلك اليوم ضرب ، فسألنا أولئك الذين أدخلونا اليهم عن حالهم فأخبرونا أنهم يدخلون اليهم في كل يوم عيد لهم ، يجتمع أهل تلك البلاد من سائر المدن والقرى الى باب هذا الكهف فنقيمهم أياما من غير أن يمسه أحد فتنفض حباهم وأكسيتهم من التراب ونقلم أظافيرهم ونقص شواربهم ثم نضعهم بعد ذلك على هيئتهم التي ترونها ، فسألناهم من هم وما أمرهم ، ومنذ كم هم بذلك المكان ، فذكروا أنهم يجدون في كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح ، عليه السلام ، بأربعمائة سنة وأنهم كانوا أنبياء بعثوا بعصر واحد وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئا غير هذا .

قال : عبد الله الفقير اليه- يا قوت : هذا ما نقلته من كتب الثقات ، والله أعلم بصحته .

قلت : وقد ذكر المؤرخون عن أهل الكهف والرقيم أخبارا غير ما تقدم يختلف بعضها عن بعض لا يتسع مقامنا هذا لذكر كل ما جاء فيها ، غير أننا لا نرى اتفاقا من المؤرخين على خبر واحد من هذه الأخبار ولا نرى أحدا منهم جزم بصحة ما ذكره من أخبارهم ، والله أعلم .



السَّيْن : بسين مهملة مفتوحة ودال مهملة مشددة مفتوحة
وياء مثناة ساكنة وآخره نون موحدة ، مثنى سد :
المقصود به سد يأجوج ومأجوج الذي ورد ذكره في
القرآن الكريم .

قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا
قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ثم سار طرقا ومنازل ،
وسلك سبلا ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ .

والسد : الحاجز بين الشيئين ، وهما ههنا فيما ذكر جبلان سد
ما بينهما ، فردم ذو القرنين حاجزا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم ،
ليقطع مد غوائلهم وعيبتهم عنهم .

وروى بسنده عن ابن عباس ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ قال :
الجبلين الردم الذي بين يأجوج ومأجوج ، أمتين من وراء ردم ذي
القرنين ، قال : الجبلان أرمينية وأذبيجان .

وبسنده عن قتادة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان .
وبسنده عن الضحاك يقول في قوله ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ يعنى
بين جبلين .

قال ابن كثير : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ أى سلك
طريقا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين ، وهما جبلان

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٩٣ .

متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم كما ثبت في الصحيحين أن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول ابعث بعث النار فيقول وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال أن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا يأجوج ومأجوج .

وقال : ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أى وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذبا به رؤس الجبلين طولا وعرضا ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿ قَالَ أَنْفُخُوا ﴾ أى أجاج عليه النار . حتى صار كله نارا : ﴿ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى هو النحاس زاد بعضهم المذاب ويستشهدون بقوله : ﴿ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَظِيرِ ﴾ ولهذا يشبه بالبرد المحبر .

قال : قوله ﴿ فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ يقول تعالى مخبرا عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقية من أسفله .

قلت : يبدو لى أن هذا كان في الوقت الذي سبق بعث النبي محمد ﷺ ، وقد قال ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش عن النبي ﷺ قال سفيان أربع نسوة - قالت استيقظ النبي ﷺ من نومة وهو

محمر وجهة وهو يقول (لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا) وحلق قلت يارسول الله أنهلك وفيما الصالحون ؟ قال (نعم إذا كثر الخبث) هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على اخراجه من حديث الزهري ولكن سقط في رواية البخاري ذكر أم حبيبة وأثبتها مسلم ، وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الاسناد : منها رواية الزهري عن عروة وهما تابعيان ، ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده كلهن يروى بعضهن عن بعض ، ثم كل منهن صحابية ثم ثنتان ربيبتان ، وثنتان زوجتان رضى الله عنهن .

وقد روى نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً فقال البزار حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا مؤمل بن اسماعيل حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد التسعين) ، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهب به .

قلت : وقد أشار النبي ﷺ بعقد ابهامه والتي تليها الى ضيق ما فتح من سد يأجوج ومأجوج الذي أخبر عنه حين قال ويل للعرب من شر قد اقترب- ويبدو أن هذا إشارة الى ضيق ما فتح منه بالنسبة الى ما يفتح منه حين (يجيء وعد الله فيجعله دكاء) أى مساويا للأرض .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان ، وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس : ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ الجبلين أرمينية وأذربيجان .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ يعنى البناء ، قال أبو عبيدة هما جانبا الجبل ، وسميا بذلك لتصادفهما أى لتلاقيهما ، ويقال : للبناء المرتفع : صدف تشبيهه بجانب الجبل .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنْفُخُوا ﴾ أي على زبر الحديد بالأكيار ، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القدر ، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة ، فاذا التأم اشتد ولصق البعض ببعض استأنف وضع طاقة أخرى ، إلى أن استوى العمل فصار جبلا صلدا ، قال قتادة : هو كالبرد المحبر ، طريقة سوداء ، وطريقة حمراء .

ويروى أن رسول الله ﷺ جاءه رجل فقال : يا رسول الله انى رأيت سداً يأجوج ومأجوج قال (كيف رأيته) قال : رأيته كالبرد المحبر طريقة صفراء وطريقة حمراء وطريقة سوداء ، فقال رسول الله ﷺ : (قد رأيته) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ أى ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه ، لأنه أملتس مستو مع الجبل ، والجبل عال لا يرام .

وارتفاع السد مئتا ذراع وخمسون دراعا ، وروى : في طوله ما بين طرفى الجبلين مائة فرسخ : وفي عرضه خمسون فرسخا .

وقال ياقوت : سد يأجوج ومأجوج : قيل : أن يأجوج ومأجوج أبناء يافث بن نوح عليه السلام .

وروى عن الشعبي أنه قال : سار ذو القرنين الى ناحية يأجوج ومأجوج فنظر إلى أمة صهب الشعور زرق العيون فاجتمع اليه منهم خلق كثير ، وقالوا له : أيها الملك المظفر أن خلف هذا الجبل أمما لا يحصيهم الا الله وقد خربوا علينا بلادنا يأكلون ثمارنا وزروعنا ، قال : وما صفتهم ؟ قالوا : قصار صلح عراض الوجوه ... فهل نجعل لك خرجا على أن تسد عليهم وتكفيينا أمرهم ؟ ، قال : ما مكنى فيه ربي خير فأعينوني بقوة تبذلون لى من الأموال في سدة ما يمكن كل واحد منكم ، ففعلوا ثم أمر بالحديد فأذيب وضرب منه لبنا عظاما وأذاب النحاس ثم جعل منه ملاطا لذلك اللبن وبنى به الفج وسواه مع قلتي الجبل فصار شبيها بالمصمت .

وفي بعض الأخبار قال : السد طريقة حمراء وطريقة سوداء من حديد ونحاس ويأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة ، منهم الترك قبيلة واحدة كانت خارج السد لما ردمه ذو القرنين فسلموا أن يكونوا خلفه .

وقد أطلال ياقوت في حديثه عن يأجوج ومأجوج وقال عن صفاتهم الخلقية والاجتماعية أشياء لا تنطبق على الانسان ، ولا يتسع مقامنا هذا الذكر شيء منها ، وقد أسهب بعض المفسرين وبعض المؤرخين في الحديث عن يأجوج ومأجوج ، وأطالوا في وصفهم . ووصف السد الذي أقامة ذو القرنين في بلادهم ، بأقوال بعضها لا يختلف عن الآخر اختلافا كبيرا ، بل أن بعضها يكمل بعضها ، وقد أكتفيت بما قدمته في هذا الحديث تلافيا للاطالة .

وقد ألف الشيخ عبد الرحمن بن سعدى رسالة مفيدة في هذا الموضوع قال فيها : والمشهور أنهم في شمال آسيا بدليل ما هو معروف عند المؤرخين أن ذى القرنين ترك منهم طائفة خلف السد من

جهة الناس وهم قليلون فليلهم الترك ومعلوم أن بلاد الترك تجاورها والمقصود أن يأجوج ومأجوج في ذلك الوقت لا نفوذ لهم على الناس الا من تلك الثغرة التي بين جبال شاهقة فسدها ذو القرنين فلم يتمكنوا من صعود السد ولا الجبال التي عن يمينه ويساره ومن باب أولى وأحرى ولا من البحار لفقد الأسباب التي تمكنهم من العبور على ذلك في تلك الأوقات حتى إذا جاء وعد الله تعالى هيا الأساس المتنوعة لخروجهم فابتدأ الأمر من وقت النبي ﷺ ولذلك ثبت عنه في الصحيح أنه قال : ويل للعرب من شرق قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد الابهام والتي تليها وسواء كان المراد أنه انفتح من ردم ذي القرنين الذي باشر بناءه بين الصدفين وهما الجبلان أو أنه ابتداء من ذلك الوقت بالانفتاح ولم يزل ينفتح شيئاً فشيئاً حتى انفتح فتحا ظهوراً به على الناس ولا يشترط أن يشاهد الناس ذلك الفتح من الردم فان الله يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

سواع : بسين مهملة مضمومة بعدها واو ثم ألف وآخره عين مهملة : صنم لهذيل .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (١) .

قال ابن جرير : كان هؤلاء نفرا من بنى آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

وروى بسنده عن محمد بن قيس ﴿ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا ﴾ يقال : كانوا قوما صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم ، فلما ماتوا ، وجاء آخرون دب اليهم ابليس ، فقال : انما كانوا يعبدونهم . وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

وقال آخرون : هذه أسماء أصنام قوم نوح .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان ود لهذا الحى من كلب بدومة الجندل ، وكانت سواع لهذيل برهاط ، وكان يغوث لبنى غطيف من مراد بالجوف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذى كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

وروى بسنده أيضا عن قتادة ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كانت آلهة يعبدها قوم نوح ، ثم عبادتها العرب بعد ذلك ، قال : فكان ود لكلب بدومة الجندل ، وكان سواع لهذيل ، وكان يغوث لبنى غطيف من مراد بالجوف ، وكان يعوق لهمدان ، وكان نسر لذى الكلاع من حمير .

وروى بسنده عن ابن عباس قوله ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح .

وبسنده عن الضحاك في قوله ﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : هذه أصنام وكانت تعبد في زمان نوح .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۖ ﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۖ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هي أصنام وصور ، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور . وقيل : انها للعرب لم يعبدوها غيرهم . وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم ، فلذلك خصوها بالذكر بعد قوله تعالى : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ۖ ﴾ ويكون معنى الكلام كما قال قوم نوح لأتباعهم : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ۖ ﴾ قالت العرب لأولادهم وقومهم : ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۖ ﴾ ، ثم عاد بالذكر بعد ذلك الى قوم نوح عليه السلام . وعلى القول الأول ، الكلام كله منسوق في قوم نوح . وقال عروة بن الزبير وغيره : اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر . وكان ود أكبرهم وأبرهم به . قال محمد بن كعب : كان لآدم عليه السلام خمس بنين : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكانوا عبادا فمات واحد منهم فحزنوا عليه ، فقال الشيطان : أنا أصور لكم مثله إذا نظرتهم اليه ذكروهم . قالوا : أفعل . فصوره في المسجد من صفر ورمصاص . ثم مات آخر ، فصوره حتى ماتوا كلهم فصورهم . وتنقصت الأشياء كما تنقص اليوم الى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين . فقال لهم الشيطان : ما لكم لا تعبدون شيئا ؟ قالوا : ما نعبد ؟ قال : آلِهَتكم وآلهة آبائكم ، ألا ترون في مصالكم . فعبدوها من دون الله ، حتى بعث الله نوحا فقالوا : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ۖ ﴾ الآية وقال محمد بن كعب أيضا ومحمد بن قيس : بل كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم تبع يقتدون بهم ، فلما ماتوا زين لهم ابليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم .

وليتسلوا بالنظر اليها ، فصورهم . فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا : ليت شعرنا ! هذا الصور ما كان أبأؤنا يصنعون بها ؟! فجاءهم الشيطان فقال : كان أبأؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر . فعبدوها فابتدىء عبادة الأوثان من ذلك الوقت .

وقال القرطبي : وبهذا المعنى فسر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة تسمى مارية ، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : (أن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبرة مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

وقال القرطبي : عن الماوردي : فأما ود فهو صنم معبود ، سمي ودا لودهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل ، في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل . وفيه يقوم شاعرهم :

حيال ود فانا لا يحل لنا لهو النساء وان الدين قد عزما

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، في قولهم .
وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجوف من سبأ ، في قول قتادة . وقال المهدوي : لمراد ثم لغطفان . الثعلبي : وأخذت أعلى وأنعم وهما من طيء - وأهل جرش من مذحج يغوث فذهبوا به الى مراد فعبدوه زمانا . ثم أن بنى ناجيه أرادوا نزعاً من أعلى وأنعم . فضروا به الى الحصن أخى بنى الحارث بن كعب من خزاعة . وقال أبو عثمان النهدي : رأيت يغوث وكان من رصاص وكانوا يحملونه على جمل أحرد ، ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك ، فاذا برك نزلوا وقالوا : قد رضى المنزل ، فيضربون عليه بناء وينزلون حوله .

وأما يعوق فكان لهمدان ببلخ ، في قول عكرمة وقتادة وعطاء . ذكره الماوردي . وقال الثعلبي : وأما يعوق فكان لكهلان من سبأ ، ثم توارثه بنوه ، الأكبر فالأكبر حتى صار الى همدان ، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني :

وأما نسر فكان لذى الكلاع من حمير ولا يبرى يعوق ولا يبرج ،

وأما نسر فكان لذى الكلاع من حمير ، في قول قتادة ونحوه عن مقاتل . وقال الواقدي : كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير ، فالله أعلم .

قال ابن كثير : قال البخاري : حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام عن ابن جريج ، وقال عطاء عن ابن عباس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصار وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت . وكذا روى عن عكرمة والضحاك وقتادة وابن اسحاق نحو هذا ، وقال عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران عن سفيان بن موسى عن محمد بن قيس ﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا

ذكرناهم ، فصورهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم ابليس ، فقال :
انما كان يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

وقال الشوكاني : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ أى لا

تتركوا عبادة آلهتكم ، وهي الأصنام والصور التي كانت لهم ، ثم
عبدتها العرب من بعدهم ، وبهذا قال الجمهور ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ
وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ أى لا تتركوا
عبادة هذه . قال محمد بن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا
بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة ، فقال بهم
ابليس : لو صورت مصورهم كان أنشط لكم وأسوق الى العبادة ،
ففعّلوا ، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم ابليس : ان الذين من قبلكم
كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتدأ عبادة الأوثان كان من ذلك
الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور
أولئك القوم . وقال عروة بن الزبير وغيره : أن هذه كانت أسماء
لأولاد آدم ، وكان ود أكبرهم . قال الماوردي : فأما ود فهو أول صنم
معبود ، سمى ودا لودهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل
في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حياك ود فان لا يحل لنا لهو النساء وأن الدين قد غربا

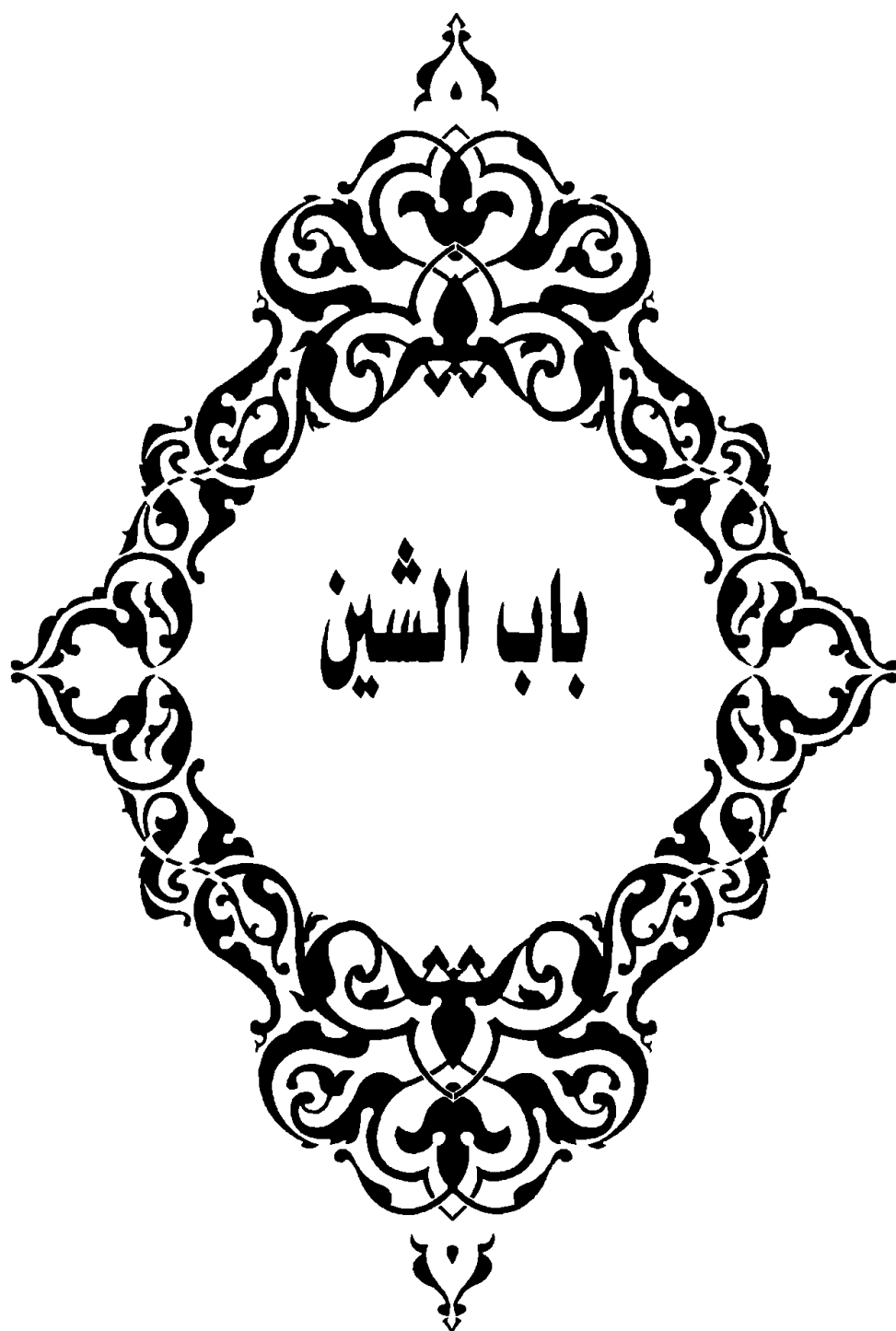
وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر . وأما يغوث فكان لغطيف
من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة . وقال المهدوي : لمراد ثم
لغطفان ، وأما يعوق فكان لهمدان في قول قتادة وعكرمة وعطاء . وقال
الثعلبي : كان لكهلان بن سبأ ، ثم توارثوه حتى صار في همدان وفيه
يقول مالك بن نمط الهمداني .

يريش الله في الدنيا ويبرى ولا يبرى يعوق ولا يريش

وأما نسرفكان لذي الكلاع من حمير في قول قتادة ومقاتل .
قلت : هذا ما قاله المفسرون في تفسير الآية الكريمة التي
اشتملت على خمسة أسماء من أسماء الأصنام القديمة التي كانت
تعبد في الجاهلية في أحياء العرب .

وقال ياقوت : سواع : اسم صنم ، قال أبو المنذر : وكان أول من
اتخذ تلك الأصنام من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس وسموها
بأسمائها على ما بقى منهم من ذكرنا حين فارقوا دين اسماعيل
هذيل بن مدركة اتخذ سواعا فكان لهم برهاط من أرض ينبع ،
وينبع : عرض من أعراض المدينة ، وكانت سدنته بنى لحيان ، قال :
ولم أسمع لهذيل في أشعارها له بذكر إلا شعر رجل من اليمن ، ولم
يذكره ابن الكلبي . ولما أخذ عمرو بن لحي أصنام قوم نوح من ساحل
جدة ، كما ذكرناه في ود ، ودعا العرب الى عبادتها أجابته مضر بن
نزار فدفع الى رجل من هذيل يقال له الحارث بن تميم بن سعد بن
هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر سواعا فكان بأرض يقال لها
رهاط من بطن نخلة بعيدة من مضر ، فقال رجل من العرب :

تراهم حول قيلهم عكوفاً	كما عكفت هذيل على سواع
يظل جنبه صرعى لديه	عشائر من ذخائر كل راع



الشجرة : بشين معجمه مفتوحة وجيم معجمة مفتوحة وراء
مهملة مفتوحة وآخره هاء ، واحدة الشجر : كانت
سمرة بأرض الحديبية بايع أصحاب رسول ﷺ تحتها
النبي في غزوة الحديبية .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ
وَأَثْبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ^(١) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية يخبر تعالى عن رضاه
عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وكان عددهم
ألفا وأربعمائة ، والشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية ، قال البخاري
: حدثنا محمود حدثنا عبيد الله عن اسرائيل عن طارق أن عبد
الرحمن رضي الله عنه قال انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون فقلت :
ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة
الرضوان .

وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية - : يقول تعالى ذكره :
لقد رضي الله يا محمد عن المؤمنين ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾
يعنى بيعة أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ بالحديبية حين بايعوه
على مناجزة قريش الحرب وعلى أن لا يفرّوا ولا يولّوهم الدبر تحت
الشجرة ، وكانت بيعتهم اياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة ، وهذه
البيعة التي تسمى بيعة الرضوان ، وكان الذين بايعوه هذه البيعة

(١) سورة الفتح الآية رقم : ١٨ .

فيما ذكر في قول بعضهم ألفا وأربعمئة ، وفي قول بعضهم ألفا وخمسمئة ، وفي قول بعضهم ألفا وثلاثمئة .

قال ياقوت : الحديبية : بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وياء موحد مكسورة وياء : اختلفوا فيها فمنهم من شددوها ومنهم من خففها ، فروى عن الشافعي رضي الله عنه ، أنه قال : الصواب تشديد الحديبية وتخفيف الجعرانة ، وأخطأ من نص على تخفيفها .

وقيل : كل الصواب أهل المدينة يثقلونها وأهل العراق يخففونها ، وهى قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها .

وقال الخطابي في أماليه : سميت الحديبية بشجرة حذاء وكانت في ذلك الموضوع . وبين الحديبية ومكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، وفي الحديث : أنها بئر ، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم ، وهو أبعد الحل من البيت ، وليس هو في طول الحرم ولا في عرضه بل هو في مثل زاوية الحرم ، فلذلك صار بينها وبين المسجد أكثر من يوم ، وعند مالك بن أنس أنها جميعها في الحرم .

وقال ابن اسحاق : خرج رسول الله ﷺ في ذى القعدة معتمرا لا يريد حربا . قال ابن هشام : واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ... وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم للعمرة ليأمن الناس من حرب ، ولتعلم الناس أنه خرج زائرا لهذا البيت ومعظما ، لا يريد قتالا ، وقال : وكان جابر بن عبد الله ، فيما بلغنى يقول : كنا أصحاب الحريبية أربع عشرة مائة .

قال الزهري : وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن شيبان الكعبي قال ابن هشام : ويقال : بسر فقال : يارسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم ، قد قدموها الى كراع الغميم .

وسلك رسول الله ﷺ في طريق تخرجه على ثنية المرام مهبط الحديبية من أسفل مكة .

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان وأشرف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما .

قال ابن اسحاق : وخرج عثمان الى مكة فلقية أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحملة بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ اليهم : أن شئت أن تطوف بالبيت فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل .

قال ابن اسحاق : حدثني عبد الله بن ابى بكر : أن رسول الله ﷺ قال حين بلغ أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا رسول الله ﷺ الناس الى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت

الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول : أن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر ، فبايع رسول الله ﷺ الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها الا الجد بن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر اليه لا صقاً بأبط ناقتة ، قد ضبأ اليها يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله ﷺ ان الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

وروى ابن هشام بسنده عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان ، فضرب باحدى يديه على الأخرى .

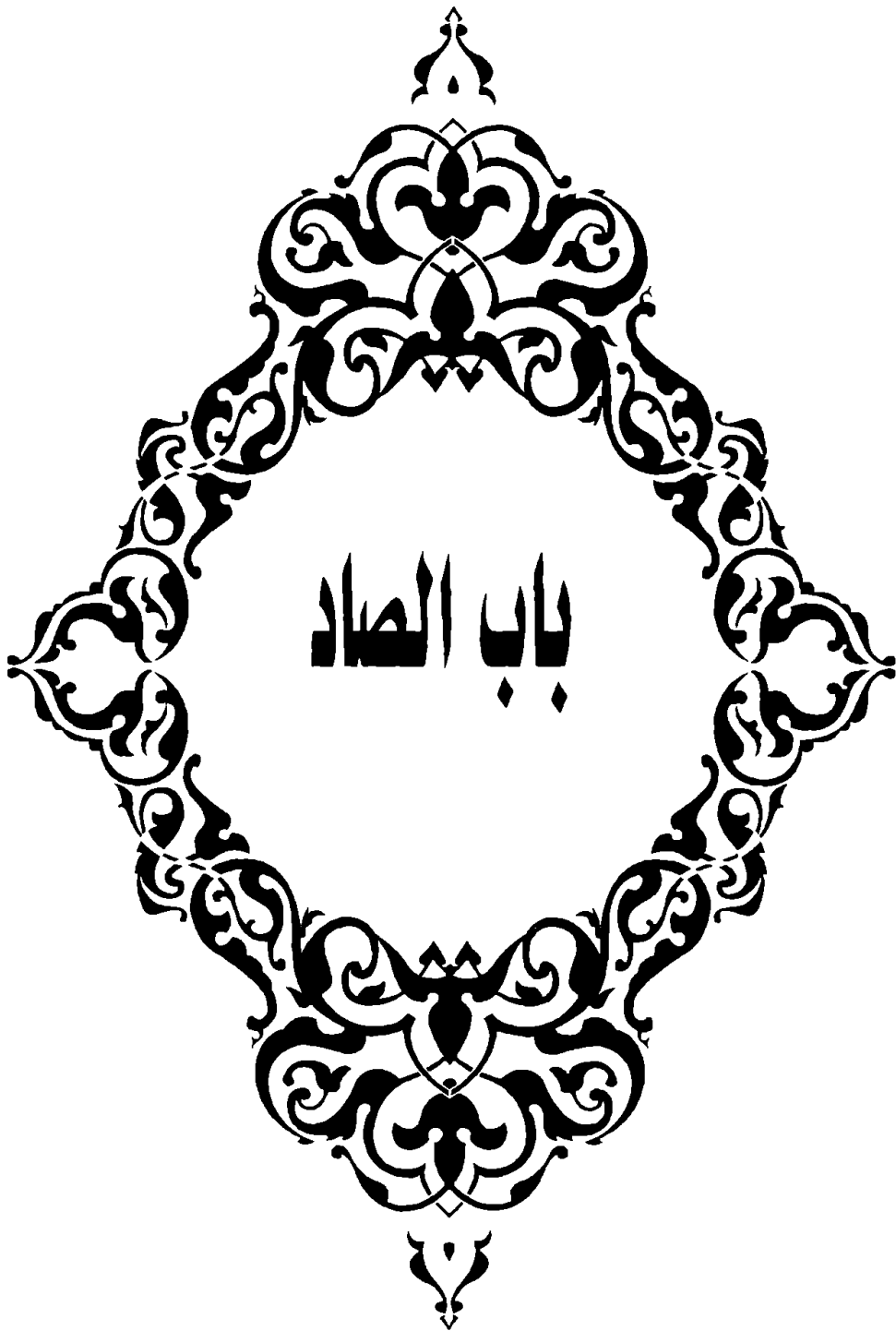
وروى الفاكهي بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، يقول : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ، وقال لنا رسول الله ﷺ أنتم اليوم خير من أهل الأرض .

وروى بسنده عن ابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ قال سمرة كانت بالحديبية : فكانت هذه الشجرة يعرف موضعها ، ويؤتى هذا المسجد حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فبلغه أن الناس يأتونها ويصلون عندها فيما هنالك ويعظمونها ، فرأى أن ذلك من فعلهم حدث .

وروى بسنده عن ابن عون ، قال : بلغ عمر رضي الله عنه أن الشجرة التي بويع عندها تؤتى ، فأوعد في ذلك وأمر بها وقطعت .

وقال الفاسي : الحديبية : الموضع الذي نزل عنده رسول الله ﷺ لما قدم من المدينة محرماً ، يريد دخول مكة ، فعاقه المشركون عن ذلك ، يقال : له للموضع الذي فيه البئر المعروف ببئر شمسى بطريقة جدة والله أعلم .

قلت : هذا خلاصة لبعض ما ذكره العلماء عن الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ أصحابه تحتها ، وقد استوفيت الحديث عن أحداث غزوة الحديبية في كتابي (معجم الأماكن الوارد ذكرها في صحيح البخاري) في رسم (الحديبية) وقد أصبح موضع هذه الشجرة غير معروف ، أما قرية الحديبية فانها قد أصبحت في هذا العهد تسمى الشميس ، وهي معروفة على الطريق من مكة إلى جدة .



الصخرة : بصاد مهملة مفتوحة وخاء معجمة ساكنة وراء
مهملة مفتوحة وآخره هاء : صخرة موسى عليه
السلام وفتاه .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي
نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ ^(١) .

وروى البخاري بسنده عن أبي بن كعب قال سمعت رسول الله
ﷺ يقول بينما موسى في ملاء من بني اسرائيل جاءه رجل فقال هل
تعلم أحدا أعلم منك قال موسى لا فأوحى الله الى موسى بلى عبدنا
خضر فسأل موسى السبيل اليه فجعل الله له الحوت آية وقيل له إذا
فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه وكان يتبع أثر الحوت في البحر
فقال لموسى فتاه أرايت أذ أويينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما
أنسانيه الا الشيطان أن أذكره .

وروى ابن جرير بسنده عن محمد بن معقل ، يحدث عن أبيه ،
أن الصخرة التي أوى اليها موسى هي الصخرة التي دون نهر الذئب
على الطريق .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : جعل الحوت لا يمس شيئا من
البحر الا يبس حتى يكون صخرة ، فجعل نبي الله ﷺ يعجب من
ذلك .

وقال ياقوت : صخرة موسى عليه السلام التي جاء ذكرها في
الكتاب العزيز في بلد شروان ، قرب الدريند .

وقال في رسم دريند : هو باب الأبواب ، وقال في رسم باب الأبواب : ويقال له الباب غير مضاف ، والباب ، والأبواب وهو الدريند ، دريند شروان ، وشروان مدينة من نواحي باب الأبواب الذي تسميه العرب الدريند ، بناها أنو شروان فسميت باسمه ثم خفضت باسقاط شطر اسمه ، وبين شروان وباب الأبواب مائة فرسخ ، خرج منها جماعة من العلماء ، ويقول بالقرب منها صخرة موسى عليه السلام التي نسي عندها الحوت في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ ، قالوا : فالصخرة صخرة شروان والبحر بحر جيلان والقرية باجروان ، حتى لقيه غلام فقتله ، قالوا في قرية جيزان ، وكل هذه من نواحي أرمينية قرب الدريند .

وقيل : شروان ولاية قصبتها شماخي وهي قرب بحر الخزر ، نسب المحدثون اليها قوما من الرواة .

وباب الأبواب على بحر طبرستان ، وهو بحر الخزر ، وهي مدينة تكون أكبر من أدربيل نحو ميلين في ميلين ، ولهم زروع كثيرة ، وعلى المدينة سور من الحجارة ممتد من الجبل طولاً في غير ذي عرض ، لا مسلك على جبلها الى بلاد المسلمين لدروس الطرق وصعوبة المسالك من بلاد الكفر الى بلاد المسلمين .

وأما حديثها أيام الفتوح فان سلمان بن ربيعة الباهلي قد غزاها في أيام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وتجاوز الحصنين وبلنجر ، ولقيه خاقان ملك الخزر في جيشه خلف نهر بلنجر فاستشهد سلمان بن ربيعة وأصحابه ، وكانوا أربعة آلاف ، فقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يذكر سلمان بن ربيعة وقتيبة بن مسلم الباهليين يفتخر بهما :

وان لنا قبرين : قبر بلنجر وقبر بصين استان يالك من قبر
فهذا الذي بالصين عست فتوحه وهذا الذي يسقى به سبل القطر

يريد أن الترك أو الخزر لما قتلوا سلمان بن ربيعة وأصحابه كانوا يبصرون في كل ليلة نورا عظيماً على موضع مصارعهم ، فيقال انهم دفنوههم وأخذوا سلمان بن ربيعة وجعلوه في تابوت وسيروه الى بيت عبادتهم ، فاذا أجذبوا وأقحطوا أخرجوا التابوت وكشفوا عنه فيسقون .

ووجدت في موضع آخر أن أبا موسى الأشعري لما فرغ من غزو أصبهان في أيام عمر بن الخطاب في سنة (١٩) أنفذ سراقه بن عمرو وكان يدعى ذا النون إلى الباب ، وجعل في مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة ، وكان أيضاً يدعى ذا النون ، وسار في عسكره الى الباب ففتحه بعد حروب جرت ، فقال سراقه بن عمرو في ذلك :

ومن يك سائلاً عنى فائى	بأرض لا يواتيها القرار
بباب الترك ذى الأبواب دار	لها في كل ناحية مغار
نذود جموعهم عما حوينا	ونقتلهم إذا باح السرار
سدنا كل فرج كان فيها	مكابرة إذا سطع الغبار
والحمنا الجبال جبال فيج	وجاور دورهم منا ديار
وبادرنا العدو بكل فج	نناهبهم وقد طار الشرار
على خيل تعادى كل يوم	عتادا ليس يتبعها المهار

وقد ذكر ياقوت عدداً من العلماء ينسبون الى مدينة الأبواب وفي رسم (مجمع البحرين) في هذا الكتاب مزيد من الايضاح عن الصخرة .

الصفّا : المقصود به الصفا الذي هو شعيرة من شعائر الحج في مكة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : الصفا جمع صفاة ، وهي الصخرة الملساء ،
ومنه قول الطرماح :

أبى لى ذو القوى والطول ألا يؤبس حافر أبدا صماني

ويعنى بالمرء : الصخر الصغار ، ومن ذلك قول أبى ذؤيب الهذلي :

حتى كأنى للحوادث مروة بصفا المشرق كل يوم تقرر

ويقال : المشقر :

وانما عنى الله تعالى ذكره بقوله : ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ ﴾ ،
في هذا الموضع الجبلين المسميين بهذين الاسمين اللذين في حرمة ،
دون سائر الصفا والمروة ، ولذلك أدخل فيهما (الألف واللام) ، ليعلم
عبادة أنه عنى بذلك الجبلين المعروفين بهذين الاسمين ، دون سائر
الأصفاء والمرو .

وأما قوله : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ، فانه يعنى : من معالم الله التي
جعلها تعالى ذكره لعبادة معلما ومشعرا يعبدونه عندها ، أما
بالدعاء ، وأما بالذكر وأما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها .
ومنه قول الكميت :

نقتلهم جيلاً فجيلاً ، تراهم شعائر قربان بهم يتقرب

قال القرطبي : أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس ، وهو هنا جبل بمكة معروف وكذلك المروة جبل أيضاً ، ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف .

وروى عن عائشة أنها قالت : (وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما) ، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : أن هذا العلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجلاً من أهل العلم يذكر أن الناس إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهمل بمناة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة ، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا : يا رسول الله ، كنا نطوف بالصفا والمروة ، وأن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا ، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ الآية : قال أبو بكر : فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما : في الذين كانوا يتخرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة ، والذين يطوفون ثم تخرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام ، من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت .

وقال في شفاء الغرام : الصفا الذي هو مبدأ السعى ، وهو في أصل جبل أبي قبيس ، على ما ذكره غير واحد من العلماء ، ومنهم أبو عبيد البكر والنووي ، وهو موضع مرتفع من جبل له درج ، وفيه ثلاثة عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، والدرج الذي يصعد من الأولى إلى الثانية منهن بثلاث درجات في وسطها ، وتحت العقود درجة وتحتها فرشاة كبيرة ، ويليهما ثلاث درجات ، ثم فرشاة مثل الفرشاة السابقة تتصل بالأرض ، وربما أهيل التراب عليها فغيب .

قال ياقوت : الصفا : بالفتح ، والقصر ، والصفا والصفوان والصفواء كله العريض من الحجارة الملس ، جمع صفاة ، ويكتب بالألف ، ويثنى صفوان ، ومنه الصفا والمروة : وهما جبلان بين بطحاء مكة والمسجد ، أما الصفا فمكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق ، ومن وقف على الصفا كان بحداء الحجر الأسود والمشعر الحرام بين الصفا والمروة قال نصيب :

وبين الصفا والمروتين ذكركم بمختلف من بين ساع وموجف
وعند طوافي قد ذكرك ذكره هي الموت بل كادت على الموت تضعف

وقال أيضاً :

طلعن علينا بين مروة والصفا يمرن على البطحاء سور السحائب
وكدن ، لعمر الله ، يحدثن فتنه لمختشع من خشية الله تائب

قلت : وبما أن الصفا له شهرة اسلامية وتاريخية ، وأن علماء المسلمين قد أفاضوا في الحديث عنه تحديد الموضوعه ووصفا ، وعن كل ما يتصل به من أحكام الحج فأننى أكتفى بهذه القدر في الحديث عنه .

صياصى : بصاد مهملة بعدها ياء مثناة بعد الياء ألف بعدها
صاد ثانية مهملة وآخرة ياء : حصون يهود بنى قريظة
في المدينة .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٦٣ .

قال ابن كثير : قوله تعالى ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى من حصونهم ، كذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وغيرهم من السلف ، ومنه سمي صياصى البقر ، وهى قرونها لأنها أعلى شيء فيها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ ، أى جعلها لكم من قتلكم لهم .

وفى لسان العرب : الصياص القرى ، وقيل : الحصون ، وفى التنزيل : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ ، قال الفراء : من حصونهم . وقال الزجاج : الصياص كل ما يمتنع به ، وهى الحصون ، وقيل : القصور لأنه يتحصن بها .

وقال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ ، يقول تعالى ذكره : وأنزل الله الذين أعانوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ وأصحابه ، وذلك هو مظاهرتهم إياهم وعنى بذلك بنى قريظة ، وهم الذين ظاهروا الأحزاب على رسول الله ، وقوله ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى من حصونهم وبسنده عن ابن زيد ، فى قوله ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ قال : الصياصى : حصونهم التى ظنوا أنها ما نعتهم من الله تبارك وتعالى وأصل الصياصى : جمع صيصة ، وعنى بها ههنا : حصونهم ، والعرب تقول لطرف الجبل : صيصة ، ويقال لأصل الشيء : صيصة ، ويقال لشوك الحاككة : صيص .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ يقول تعالى : وألقى فى قلوبهم الخوف منكم ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ يقول : تقتلون

منهم جماعة ، وهم الذين قتل رسول الله ﷺ حين ظهر عليهم ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ يقول : وتأسرون منهم جماعة ، وهم نساؤهم وذرايهم الذين سبوا .

قال ابن كثير : لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة ، نقض بنوا قريظة ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العرب ، وكان ذلك في سفارة حيي بن أخطب النضري لعنه الله ، دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال ، ويحك قد جئتكم بعز الدهر ، فقال له كعب : بل والله أتيتني بذل الدهر ، ويحك يا حيي انك مشئوم ، فدعنا منك فلم يزل يفتل في الذروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حيي أن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون أسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدا فلما أيده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدا منصورا ، ووضع الناس السلاح فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنهما إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال ﷺ (نعم) لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم ، ثم قال : أن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة .

وفي رواية فقال له : عذيرك من مقاتل أوضعت السلاح ؟ قال (نعم) قال لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ، أنهض إلى هؤلاء ، قال ﷺ (أين؟) قال : بنى قريظة فان الله تعالى أمرنى أن أزلزل عليهم ،

فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير الى بنى قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال ﷺ (لا يصلين أحد منكم العصر الا في بنى قريظة) فसार الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ الا تعجيل السير وقال آخرون : لا نصليها الا في بنى قريظة فلم يعنت واحدا من الفريقين وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه وأعطى الراية لعل بن أبى طالب رضى الله عنه ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنه ، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسب اليهم في ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبى بن سلول في مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعدا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى في أولئك ، ولم يعلموا أن سعدا رضى الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق فكواه رسول الله ﷺ في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب ، وقال سعد رضى الله عنه فيما دعابه ، اللهم أن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها ، وأن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، ولا تمننى حتى تفر عيني من بنى قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمة باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار وقد وطئوا له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد انهم مواليك فأحسن فيهم ويرفقونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال رضى الله عنه : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم .

فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ (قوموا إلى سيدكم) فقام اليه المسلمون فأنزلوه اعظاما واکراما واحتراما له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم ، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ (ان هؤلاء وأشار اليهم قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت) .

فقال رضى الله عنه : وحكمى نافذ عليهم ؟ قال ﷺ (نعم) . قال ، وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال (نعم) . قال : وعلى من ههنا وأشار الى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ ، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ اجلالا واکراما واعظاما قال له رسول الله ﷺ (نعم) فقال رضى الله عنه : انى أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وأموالهم ، فقال له رسول الله ﷺ (لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة) .

ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخذت في الأرض ، وجيء بهم مكتفين فضربت أعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة الى الثمانمائة ، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم . هـ

وكانت منازل بنى قريظة بالعلية في أعلى وادى مهزور أحد الروافد الكبيرة لوادى بطحان في الجنوب الشرقى من المدينة وقد احتفروا فيه الآبار وغرسوا الأموال وابتنوا الآطام والمنازل .

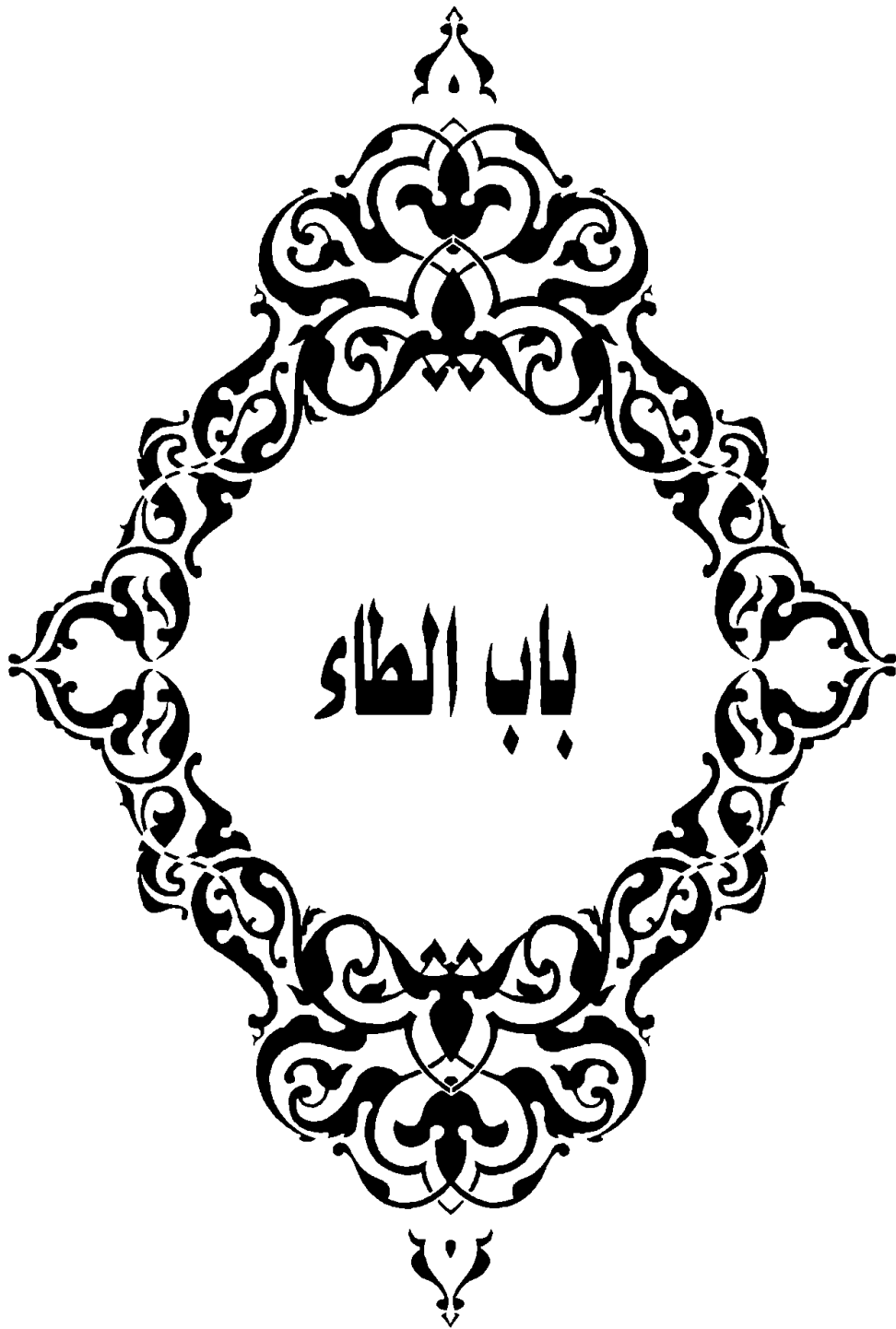
وقسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، سهمان للفارس وسهم للفارس ، وأسهم للراجل سهم واحد ، وأصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو من خنافة فكانت عنده حتى توفى عنها وهي في ملكة في أحد الأقوال .

وقتل في حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين ، خلاد بن سويد الذي طرحت عليه الرchy امرأة من قريظة ، ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة .

ووقعت هذه الغزوة في ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، ودام الحصار خمسا وعشرين ليلة .

وقال ابن القيم في زاد المعاد : وكانت قريظة أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ ، وأغلظهم كفرا ، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على اخوانهم .

وفي رسم المدينة مزيد من الايضاح .



الطور : يضم الطاء المهملة وسكون الواو وآخره راء مهملة :
جبل في بلاد الشام أو فيما بينها وبين مصر .

- قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ ^(١) .
وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ ^(٢) .
وقال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ ^(٣) .
وقال تعالى : ﴿ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ ^(٤) .
وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَجْنَيْنَاكُمْ مِّنْ عَذُّوكُمْ وَوَعْدِنَاكُمْ
جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ ^(٥) .
وقال تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ ^(٦) .
وقال تعالى : ﴿ ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ ^(٧) .
وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ^(٨) .
وقال تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ ^(٩) .
وقال تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ^(١٠) .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٦٣ .

(٢) سورة البقرة الآية رقم : ٩٣ .

(٣) سورة النساء الآية رقم : ١٥٤ .

(٤) سورة مريم الآية رقم : ٥٢ .

(٥) سورة طه الآية رقم : ٨٠ .

(٦) سورة المؤمنون الآية رقم : ٢٠ .

(٧) سورة القصص الآية رقم : ٢٩ .

(٨) سورة القصص الآية رقم : ٤٦ .

(٩) سورة الطور الآيات رقم : ١ - ٣ .

(١٠) سورة التين الآيات رقم : ١ - ٢ .

روى البخاري بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور .

قال ابن جرير : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَرْقَؤُا الطُّورِ ﴾ وأما ﴿ الطُّورِ ﴾ فإنه الجبل في كلام العرب ، ومنه قول العجاج :

دانى جناحية من الطور فمر تقضى البازى إذا البازى كسر

وقيل : أنه اسم جبل بعينه وذكر أنه الجبل الذي ناجى الله عليه موسى . وقيل : أنه من الجبل ما أنبت دون ما لم ينبت .

وروى بسنده عن مجاهد قال : رفع الجبل فوقهم كالسحابة ، ف قيل لهم : لتؤمنن أو ليقعن عليكم فأمنوا . والجبل بالسريانية الطور .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ ، قال : الطور الجبل . اقتلعه فرفعه فوقهم ، فقال : ﴿ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ ﴾ فأقروا بذلك .

ويسنده عن عكرمة قال : الطور الجبل .

ويسنده عن ابن زيد : الجبل بالسريانية الطور .

وقال آخرون : ﴿ الطُّورِ ﴾ اسم للجبل الذي ناجى الله موسى عليه .

ويسنده عن ابن عباس : الطور الجبل الذي أنزلت عليه التوراة يعنى على موسى وكانت بنو اسرائيل أسفل منه .

وقال آخرون : الطور من الجبال ما أنبت خاصة .

ويسنده عن الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ الطُّور ﴾ قال :
الطور من الجبال ما أنبت ، وما لم ينبت فليس بطور .

قال ابن كثير : الطور : هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل
الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر
لا يسمى طورا ، وإنما يقال له جبل .

قال القرطبي : واختلف في الطور ، قيل : الطور اسم للجبل
الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون
غيره ، وروى ابن جريج عن ابن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور
ما أنبت من الجبال خاصة دون ما لم ينبت ، وقال مجاهد وقتادة : أى
جبل كان . إلا أن مجاهد قال : هو اسم لكل جبل بالسريانية ، وقاله
أبو العالية .

وقال القرطبي في موضع آخر من تفسيره : الطور اسم
الجبل الذي كلم الله عليه موسى ، أقسم الله به تشريفا له وتكريما
وتذكيرا لما فيه من الآيات ، وهو أحد جبال الجنة . وروى اسماعيل بن
اسحاق قال : حدثنا اسماعيل بن أويس قال : حدثنا كثير بن عبد
الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله ﷺ :
أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة ملاحم
من ملاحم الجنة قيل : فما الأربع ؟ قال : جبل أحد يحبنا ونحبه
والطور جبل من جبال الجنة ولبنان جبل من جبال الجنة والجودى
جبل من جبال الجنة وذكر الحديث .

قال مجاهد : الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سيناء .
وقاله السدي ، وقال مقاتل بن حيان : هما طوران يقال لأحدهما طور
سيناء والآخر طور زيتا ، لأنهما ينبتان التين والزيتون ، وقيل هو جبل

بمدين واسمه زبير ، قال الجوهري : والزبير الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام .

قال القرطبي : ومدين الأرض المقدسة وهي قرية شعيب عليه السلام .

وطور سيناء من أرض الشام وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، قاله ابن عباس وغيره .. وقال ابن زيد : هو جبل بيت المقدس ممدود من مصر الى أيلة ، واختلف في سيناء ، فقال قتادة : معناه الحسن ، وقال مجاهد : معناه مبارك . وقال معمر عن فرقة : معناه شجر . وقال الجمهور : هو اسم الجبل ، كما تقول جبل أحد .

وقال البكري : الطور : جبل بيت المقدس ، ممتد ما بين مصر وأيلة ، سمى بطور ابن اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي نودي منه موسى ، قال تعالى : ﴿ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ، وهو طور سيناء قال الله سبحانه : وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۖ وَطُورِ سِينِينَ ۖ ﴾ ، ومعناها واحد .

قال ابو الفدا : جبل الطور من المشترك : الطور في اللغة العبرانية اسم لكل جبل ، ثم صار علما لجبال بعينها : منها طور زيتا بلفظ الزيت علم لجبل معروف قرب رأس عين ، وطور زيتا أيضا : جبل بالقدس ، وطور جبل بعينه مطل على طبرية ، وطور سيناء : اختلفوا ف قيل هو جبل بقرب أيلة وقيل جبل بالشام ، وقيل سيناء حجارته وقيل شجر فيه ، وطور هارون : علم لجبل عال مشرف في قبلة القدس قبر هارون في رأسه .

وقال ايضاً : ومن بلاد مصر الطور وهو فرضة أهله وبها سوق ويقصدها التجار وهي بين القلزم وبين أيلة ، وعلى مرحلة من الطور المذكور طور سيناء ، وهو دير كبير هناك ، وجبال الطور داخلة في بحر القلزم حتى يصير بين الطور وبين بر مصر البحر ، وعلى طرف لسان البحر الداخل بين الطور وبين بلاد مصر مدينة القلزم .

وقال ياقوت : طور : بالضم ثم السكون ، وآخره راء ، والطور في كلام العرب : الجبل .. وقيل سمى طورا بطور ابن اسماعيل ، عليه السلام ويقال لجميع بلاد الشام الطور . وقال أهل السير : سميت بطور ابن اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وكان بملكها فنسبت اليه . وذكر بعض العلماء أن الطور هذا الجبل المشرف على نابلس ولهذا يحجة السامرة .. والطور : جبل بعينه مطل على طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ . والطور أيضاً جبل عند كورة تشتمل على عدة قرى تعرف بهذا الأسم بأرض مصر القبلية وبالقرب منها جبل فاران هذا ما بلغنا في الطور غير مضاف .

وطور زيتا : بلفظ الزيت من الأدهان وفي آخره ألف : علم مرتجل لجبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور ، على رأسه شجر زيتون يسقيه المطر ولذلك سمى طور زيتا .

وطور سيناء : بكسر السين ويروى بفتحها ، وهو فيهما ممدود ، قال الليث : طور سيناء جبل ، وقال أبو اسحاق قيل أن سيناء حجارة والله أعلم .

وهو جبل بقرب أيلة ، وعنده بليد فتح في زمن النبي ﷺ سنة تسع صلحا على أربعين دينارا ، ثم فارقوا على دينار كل رجل فكانوا ثلاثمائة رجل ، وقال الجوهري : طور سيناء جبل بالشام ، وهو طور

أضيف الى سيناء ، وهو شجر وكذلك طور سينين ، قال الأخفش :
السينين شجر واحدتها سينينة ، قال : وقرىء طور سيناء وسيناء
بالفتح والكسر ، والفتح أجود في النحو لأنه بنى على فعلاء والكسر
ردىء في النحو لأنه ليس في أبنية العرب فعلاء ممدود مكسور الأول
غير مصروف الا أن تجعله أعجمي .

قلت : وبما تقدم يتبين أن الطور اسم مشترك ، يشترك فيه عدد
من الأمكنة وقد اختلف العلماء في أى هذه الأمكنة عنى بالآيات
الكريمة من القرآن ، غير أنهم لم يختلفوا في أن الطور ، وطور سيناء ،
وطور سينين ، جبل واحد ويفهم من أقوال العلماء أن هذا الجبل واقع
في بلاد الشام ، أو فيما بينها وبين مصر .

طوى : بضم الطاء المهملة بعدها واو مفتوحة وآخره ألف
مقصور : واد في بلاد الشام .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ^(١) .
وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ^(٢) .

قال ابن جرير : قوله ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ فإنه يقول : انك
بالواد المطهر المبارك .

وروى بسنده عن ابن ابي نجيح ، عن مجاهد : طوى : قال اسم
الوادى .

(١) سورة طه الآية رقم : ١٢ .

(٢) سورة النازعات الآيات رقم : ١٥ - ١٦ .

قال البخاري في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوْى ﴾ ، قال ابن عباس : المقدس المبارك ، طوى اسم الوادى .

قال ابن كثير : طوى ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو اسم للوادى ، وكذل قال غير واحد .

وقال القرطبي : طوى : اسم الوادى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطوى ، وقرأ عكرمة : طوى ، والباقون طوى .

قال الجوهري : طوى : اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة ، طوى مرتين أى قدس .

وقال البكري : طوى : بضم أوله وكسره ، مقصورة : اسم واد في أصل الطور بالشام ، وهو المذكور في التنزيل ، وقيل : بل طوى : جبل هناك ، قال أبو عمر الزاهد : سئل محمد بن زيد ، وأنا أسمع عن طوى اسم واد أيصرف ؟ قال : نعم ، لأن إحدى العلتين قد انخرمت عنه ، وبالتنوين قرأ الكوفيون وابن عامر .

وقال ياقوت : طوى : اسم أعجمى للوادى المذكور في القرآن الكريم ، يجوز فيه أربعة أوجه : طوى بضم أوله بغير تنوين وبتنوين ، فمن نون فهو اسم الوادى وهو مذكور على فعل نحو حطم وصرد ، ومن لم ينونه ترك صرفه من جهتين أحدهما أن يكون معدولا عن طاو فيصير كعمر المعدول عن عامر فلا ينصرف كما لا ينصرف عمر ، والجهة الأخرى أن يكون اسما للبقعة كما قال : في البقعة

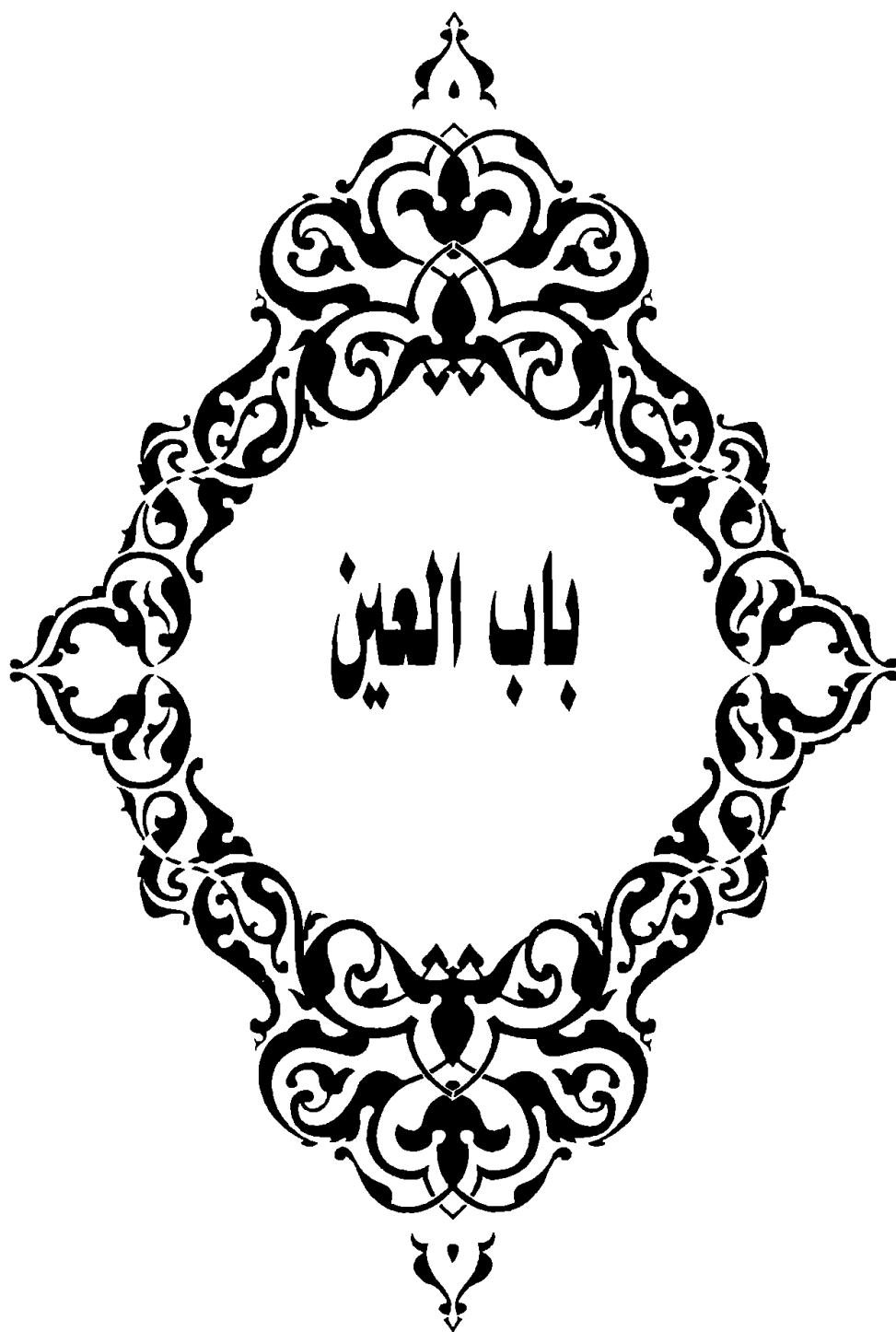
المباركة من الشجرة ، ويقراً بالكسر مثل معى وطفى فينون ، ومن ينون جعله اسماً للمبالغة ، وسئل المبرد عن واد يقال له طوى أتصرفه فقال : نعم ، لأن إحدى العلتين قد انخرمت عنه ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو طوى ، وقرأ الكسائي وحمزة وعاصم وابن عامر طوى منونا في السورتين .

وقال بعضهم : وطوى وطوى بمعنى وهو الشيء المثني ، ومنه قول عدى بن زيد :

أعاذل أن اللوم في غير كنهة على طوى من غيك المتردد
ويروى بالكسر والضم يعنى : أنك تلومنى مرة بعد مرة ،
فكانك تطوى غيك على مرة بعد مرة .. وقوله عز وجل : ﴿ بِاللَّوَادِ
الْمُقَدَّسِ طُوى ﴾ أي طوى أي : قدس ، وقال الحسن بن أبى الحسن :
ثبيت فيه البركة والتقديس مرتين ، فعلى هذا ليس الا صرفه : وهو
موضع بالشام عند الطور .

قلت : هذا ما ذكره العلماء في ضبط وتحديد موقعه ويرى
اختلاف بينهم في ضبط كلمة طوى وتحديد موقعه ويرى اختلاف
بينهم في ضبط طوى وفي اعرابها غير أنهم لم يختلفوا في تحديد
موقعه في بلاد الشام .

وذو طوى موضع في مكة ، استوفيت الحديث عنه في كتابي
(معجم الأمكنة الوارد ذكرها في البخاري) في رسمه .



العدوة : بعين مهملة مضمومة ودال مهملة ساكنة بعدها واو مفتوحة وآخره هاء : يقصد به عدوتا وادي بدر .

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾^(١).

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ ، يقول : بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة ﴿ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ ، يقول : وعدوكم من المشركين نزول بشفير الوادي الأقصى إلى مكة ، ﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ، يقول : والعر فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ ، قال : شفير الوادي الأدنى ، وهم بشفير الوادي الأقصى ، ﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ، قال : أبو سفيان وأصحابه أسفل منهم .

وبسنده عن ابن إسحاق : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ ، من الوادي إلى مكة ، ﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي عير أبي سفيان التي خرجتم لتأخذوها وخرجوا ليمنعوها ، من غير ميعاد منكم ولا منهم .

(١) سورة الأنفال الآية رقم : ٤٢ .

وقال ابن كثير : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ أي إذا أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ، وهم أي المشركون نزول ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ، ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي مما يلي سيف البحر .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ والعدوة : جانب الوادي ، فالدنيا كانت مما يلي المدينة ، والقصوى مما يلي مكة ، أي إذا أنتم نزول بشفير الوادي بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وعدوكم بالجانب الأقصى ، ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ أسفل منكم يعني ركب أبي سفيان وغيره ، كانوا في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة .

وقيل : هي الإبل التي كانت تحمل أمتعتهم ، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقا من الله عز وجل لهم ، فذكرهم نعمه عليهم .

وفي التاج : أعداء الوادي جوانبه ، وأيضا ﴿ شَطِئِ الْوَادِ ﴾ وشفيره وجانبه ، وفي الصحاح : العدو والعدوة جانب الوادي وحافته ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ ، وفي المصباح : ضم العين لغة قريش والكسر لغة قيس . وقال الراغب : العدو القصوى الجانب المتجاوز للقرب .

وقال ابن إسحاق : ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ، خلف العقنقل وبطن الوادي ، وهو ليليل بين بدر وبين

العقنقل ، الكتيب الذي خلفه قريش ، والقلب ببدر في العدو الدنيا من بطن ليل إلى المدينة .

قلت : مما تقدّم يتبيّن أن العدو اسم جنس ، بشفير الوادي ، أيّ واد كان ، وبدر قد مضى الحديث عنه وصفا وتحديدًا في رسمه في هذا الكتاب فانظره .

غير أن العدوتين اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم هما عدوتا وادي بدر (ليل) .

عرفات (عرفة) : أوله عين مهملة مفتوحة بعدها راء مهملة مفتوحة ثم فاء موحدة بعدها ألف وآخره تاء مثناة : مكان الوقوف في الحج .

ورد في القرآن الكريم بصيغة الجمع ، وورد في الأحاديث بصيغة المفرد والجمع .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ ﴾ ^(١) .

وروى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، دفع رسول ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء فقلت الصلاة يا رسول الله فقال الصلاة أمامك فركب فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلّى المغرب ثم أناخ كل إنسان بعيده في منزله .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ١٩٨ .

قال ابن جرير : واختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله قيل لعرفات : ﴿ عَرَفْتِ ﴾ فقال بعضهم : قيل لها ذلك من أجل أن إبراهيم خليل الله صلوات الله عليه ، لما رآها عرفها بنعتها الذي كان لها عنده ، فقال : قد عرفت . فسميت عرفات بذلك .

وروى بسنده عن السدي قال : لما أذن إبراهيم في الناس بالحج فأجابوه بالتلبية ، وأتاه من أتاه ، أمره الله أن يخرج إلى عرفات فخرج فلما بلغ الشجرة عند العقبة ، استقبله الشيطان يرده ، فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوق على الجمرة الثانية ، فصده أيضا فرماه وكبر ، فطار فوق على الجمرة الثالثة فرماه وكبر . فلما رأى أنه لا يطيقه ولم يدر إبراهيم أين يذهب ، انطلق حتى أتى ذا المجاز ، فلما نظر إليه فلم يعرفه جاز ، فلذلك سمى : (ذا المجاز) .

ثم انطلق حتى وقع بعرفات ، فلما نظر إليها عرف النعت ، قال : (قد عرفت) فسمى : ﴿ عَرَفْتِ ﴾ . فوقف إبراهيم بعرفات ، حتى إذا أمسى أزلف إلى جمع ، فسميت : (المزدلفة) ، فوقف بجمع .

قال ابن كثير : إنما عرفات وإن كان علما على مؤنث لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات ، سمى به بقعة معينة فروع في الأصل فصرف ، اختاره ابن جرير .

وعرفة : موضع الوقوف في الحج وهي عمدة أفعال الحج . قال ياقوت : عرفات : بالتحريك ، وهو واحد في لفظ الجمع ، قال الأخفش : إنما صرف لأن التاء صارت بمنزلة الياء والواو في مسلمين ، لا أنه تذكيره ، وصار التنوين بمنزلة النون فلما سمى به ترك على حاله ، وكذلك القول في أذرعات وعانات .

وقال الفرّاء : عرفات لا واحد لها بصحة ، وقول الناس اليوم
يوم عرفة مؤلّد ليس بعربي محض .

والذي يدل على ما قاله الفرّاء أن عرفة وعرفات اسم لموضع
واحد ، ولو كان جمعا لم يكن لمسمّى واحداً ويحسن أن يقال : أن
كل موضع منها اسم عرفة ثم جمع ولم يتنكر لما قلنا أنها متقاربة
مجتمعة فكأنها مع الجمع شيء واحد .

وقيل أن الاسم جمع والمسمّى مفرد فلم يتنكر ، والفصيح في
عرفات وأذرعات الصرف ، قال امرؤ القيس :

تنوّرتها من أذرعات

وإنما صرفت لأن التاء فيها لم تخصّص للتأنيث بل هي أيضا
للجمع فاشتبهت التاء ... وعرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم
وليس كما قال بعضهم أن عرفة مؤلّد ، وعرفة حدّها من الجبل
المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفة ، وقرية عرفة : موصل النخل
بعد ذلك بميلين ، وقيل في سبب تسميتها بعرفة أن جبرائيل ، عليه
السلام ، عرف إبراهيم ، عليه السلام ، المناسك فلما وقفه بعرفة قال
له : عرفت ؟ قال : نعم فسمّيت عرفة ويقال : بل سمّيت بذلك لأن
آدم وحواء تعارفا بها بعد نزولها من الجنة ، ويقال : إن الناس يعترفون
بذنوبهم في ذلك الموقف ، وقيل : بل سمّى بالصبر على ما يكابدون في
الوصول إليها لأن العرف الصبر ، قال الشاعر :

قل لابن قيس أخي الرقيّات ما أحسن العرف في المصيبات

وقال ابن عباس : حدّ عرفة من الجبل المشرف على بطن عرنة
إلى جبالها إلى قصر آل مالك ووادي عرفة ، وقال البشاري : عرفة
قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها

يوم عرفة ، والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطئ ، وبها سقايات وحياض وعلم قد بنى يقف عنده الإمام .

قلت : وبما أن عرفات مكان له شهرة إسلامية ومكانة في نفوس جميع المسلمين وأن موقعه معروف ومحدد يتف به المسلمون في كل عام في حجّهم ، وأن العلماء قد حدّدوا هذا المكان وكثرت المؤنّسات التي تحدّده وتصفه ، وتحدّث عن فضله وما يتعلق به من أحكام الحج ، فإنني أكتفي بما تقدّم لأن مقامنا لا يتسع لذكر ما قاله العلماء عن هذا المكان الطاهر وبالله التوفيق .

العزم (السدّ) : بعين مهملة مفتوحة وراء مهملة مكسورة وآخره ميم ، والسدّ القصد به سدّ مأرب .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْلِ ^(١) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ .

قال البخاري : قال مجاهد : العزم السدّ ماء أحمر أرسله الله في السدّ فشقه وهدّمه وحضر الوادي ولم يكن الماء أحمر من السدّ ولكن عذابا أرسله الله عليهم من حيث شاء .

روى ابن جرير بسنده عن وهب بن منبه اليماني قال : لقد بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيا ، فكذبوهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْلِ ﴾ يقول تعالى ذكره : فثقبنا عليهم حين أعرضوا عن تصديق رسلنا سيلهم الذي كان يحبس عنهم السيول .

(١) سورة سبأ الآية رقم : ١٦ .

والعرم : المسناة التي يحبس الماء ، واحدها : عرمة ، وإياه عنى
الأعشى بقوله :

ففي ذاك للمؤتسى أسوة ومأرب عفى عليه العرم
رجام بنته لهم حمير الى جاء مأوهم لم يرم

وكان العرم فيما ذكر مما بنته بلقيس .

وروى بسنده عن أبي ميسرة في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
سَيْلَ الْعَرْلِ ﴾ قال : المسناة بلحن اليمن .

وبسنده عن مجاهد في قوله ﴿ سَيْلَ الْعَرْلِ ﴾ قال : شديد .
وقيل : إن العرم : اسم واد كان لهؤلاء القوم .

وبسنده عن قتادة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْلِ ﴾ ذكر لنا أن
سيل العرم واد كانت تجتمع إليه مسایل من أودية شتى ، فعمدوا
فسدوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة ، وجعلوا عليه أبوابا ، وكانوا
يأخذون من مائة ما احتاجوا إليه ، ويسدّون عنهم ما لم يعنوا به من
مائة .

وبسنده عن ابن عباس ، قوله ﴿ سَيْلَ الْعَرْلِ ﴾ يقول : الشديد ،
وكان السبب الذي سبّب الله لإرسال ذلك السيل عليهم فيما ذكر
لي جرذا ابتعثه الله على سدّهم فتقبّ فيه ثقبا .

قال ابن كثير : وكان من أمر السدّ أنه كان الماء يأتيهم من
بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأود يتهم ، فعمد
ملوكهم الأقدام فبنوا بينهما سدّا عظيما محكما حتى ارتفع الماء

وحكم على حافات ذينك الجبلين ففرسوا الأشجار واستغلوا الثمار ،
في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من
السلف- منهم قتادة- أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى
رأسها مكمل أو زنبيل ، وهو الذي تخترف فيه الثمار فيتساقط من
الأشجار من الأشجار في ذلك ماء يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة
ولا قطاف لكثرتة ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب بدة
بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْلِ ﴾ : المراد بالعرم

المياه ، وقيل الوادي وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير .. وذكر غير واحد-
منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك- أن الله عز وجل لما
أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض ،
يقال لها : الجرذ نقبته ، قال وهب بن منبه ، وقد كانوا يجدون في
كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ ، فكانوا يرصدون عنده
السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير
وولجت إلى السد فنقبتة فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره : الجرذ هو الخلد نقبت أسافله حتى إذا ضعف
ووهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط ، فانساب الماء في
أسفل الوادي وخرّب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك
ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين- عن يمين وشمال فيبست
وتحطمت .

وقال السهلي : كان هذا السد من بناء سبأ بن يشجب بن
يعرب ، وكان ساق إليه سبعين واديا ، ومات قبل أن يستتمه فأنتمه
ملوك حمير بعده .

وقال المسعودي : بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخا ، وجعل له ثلاثين مثقبا .

- وقال الأعشى :

وفي ذاك للمؤتسى أسوة	ومأرب عفى عليه العرم
رخام بنته لهم حمير	إذا جاء موّاره لم يرم
فأروى الزروع وأعنا بها	على سعة ماؤهم إذ قسم
فصاروا أيادي ما يقدرو	ن منه على شرب طفل فطم

وقال القزويني : مأرب : كورة بين حضرموت وصنعاء ، لم يبق بها عامرا إلا ثلاث قرى يسمونها الدروب ، كل قرية منسوبة إلى قبيلة من اليمن ، وهم يزرعون على الماء الذي جاء من ناحية السد ، يسقون أرضهم سقية واحدة ويزرعون عليه ثلاث مرّات في كل عام ، فيكون بين زرع الشعير وحصاده في ذلك الموضع نحو شهرين وكان بها سيل العرم الذي جرى ذكره في سبأ .

وذكروا أن مياه جبالها تجتمع هناك وسيول كثيرة ، ولها مخرج واحد فالأوائل قد سدّوا ذلك المخرج بسدّ محكم ، وجعلوا لها متاعب يأخذون منها قدر الحاجة ، فاجتمعت المياه بطول الزمان وصار بحرا عظيما خارج السدّ ، وداخله عمارات وبساتين ومزارع ، فسلب الله الجرذ على السدّ يحضره بأنبيابه ويقلعه بمخاليبه حتى سدّ الوادي الذي نحو البحر وفتح مما يلي السدّ ، فغرقت البلاد حتى لم يبق إلا ما كان على رؤوس الجبال ، وذهبت الحقائق والجنان والضياع والقصور ، وجاء السيل بالرمل فطمّها ، وهي على ذلك إلى اليوم كما أخبر الله تعالى فجعلهم الله أحاديث ومزّقهم كل ممزّق .

وتحدّث يا قوت عن مأرب وعن سد مأرب حديثاً طويلاً ، لا يتسع مقامنا هذا لذكره ، وما فيه عن السدّ لا يخرج عما تقدم في هذا من أقوال العلماء .

قلت : هذا هو سد مأرب ، الواقع في بلاد سبأ ، وقد قص الله خبر هذا السدّ وما حلّ به من الدمار وما جرى لأهل تلك البلاد من التمزّق والتفرّق في البلاد ، عبرة للمعتبرين وعظة للمتّعظين والآيات التي تقصّ خبرهم في سورة (سبأ) .

العزّي : بعين مهملة مضمومة وزاي معجمة مشدّدة وآخره ألف مقصورة : صنم لقريش في بطن وادي نخلة الشامية فيما بين مكة والطائف .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۚ ﴾ (١)

قال ابن جرير : سمّى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره ، وتقدّست أسماؤه ، فقالوا من الله اللات ، ومن العزيز العزّي ، وزعموا أنهنّ بنات الله ، تعالى الله عما يقولون وافتروا ، فقال جلّ ثناؤه لهم : أفرايتم الزاعمون أن اللات والعزّي ومناة الثالثة بنات الله ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ ﴾ يقول أتختارون لأنفسكم الذكر من الأولاد ، وتكرهون له الأنثى ، وتجعلون له الأنثى التي لا ترضونها لأنفسكم ، ولكنكم تقتلونها كراهة منكم لهنّ .

وروى بسنده عن مجاهد ﴿ وَالْعُزَّىٰ ﴾ قال : العزّي : شجيرات .

(١) سورة النجم الآيات رقم : ١٩-٢٠ .

وقال آخرون : كانت العزى حجرا أبيض .
 وروى بسنده عن سعيد بن جبير قال : ﴿ وَالْعُزَّى ﴾ : حجر أبيض .
 وقال آخرون : كان بيتا بالطائف تعبده ثقيف .
 ويسنده عن ابن زيد في قوله ﴿ وَالْعُزَّى ﴾ قال : العزى : بيت
 بالطائف تعبده ثقيف .

وقال آخرون : بل كان في بطن نخلة .
 وقال ابن كثير : روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله
 عنهما في قوله ﴿ أَلَلَّتْ وَالْعُزَّى ﴾ قال كان اللات رجلا يلت
 السويق للحاج قال والعزى من (العزيز) وكانت شجرة عليها بناء
 وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها ،
 كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول
 الله (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) .

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ
 (من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ، ومن
 قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق) فهذا محمول على ما سبق في
 ذلك ، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية .

وروى النسائي بسنده عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ،
 قال : حلفت باللات والعزى فقال لي أصحابي بئس ما قلت ، قلت هجرا
 فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : (قل لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وانفض
 عن شمالك ثلاثا وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم لا تعد) .

قال القرطبي : العزى لقريش وبنى كنانة . وقال هشام ...
 وكانت بوادي نخلة الشامية فوق ذات عرق ، فبنوا عليها بيتا وكانوا

يسمعون منها الصوت . وعن ابن عباس قال : كانت العزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال : (انت بطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء إليه قال : (هل رأيت شيئا) قال : لا . قال : (فاعضد الثانية) فأتاها فعضدها ، ثم أتى النبي ﷺ فقال : (هل رأيت شيئا) قال : لا . قال : (فاعضد الثالثة) ، فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقيها تصرف بأنيابها ، وخلفها دبيّة السلمي وكان سادنها فقال :

يا عزى كفرانك لا سبحانك إنني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حممة ، ثم عضد الشجرة وقتل دبيّة السادن ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال : (تلك العزى ولن تعبد أبدا) .

وقال ابن جبير : العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه .

وقال قتادة : نبت كان ببطن نخلة .

قال السهيلي : كانت لقريش وبني كنانة : العزى بنخلة ، وكان سدنتها وحجّابها بنوا شيبان من سليم حلفاء بني هاشم .

وقال ياقوت : العزى : بضم أوله في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللَّتِ وَالْعُزَّى ﴾ العزى : سمرة كانت لغطفان يعبدونها وكانوا بنوا عليها بيتا وأقاموا لها سدنة ، فبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إليها فهدم البيت وأحرق السمرة .

وقال حبيب : العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبد به غطفان وسدنتها من بني صرمة بن مرة . قال أبو منذر بعد ذكر مناة

واللات ثم اتخذوا العزى وهي أحدث من اللات ومناة ، وذلك أتى سمعت العرب سمّت بها العزى فوجدت تميم بن مرّ سمى ابنه زيد مناة بن تميم ، وبسم اللات سمى ثعلبة بن عكابة ابنه تيم اللات ، وعبد العزى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم فهي أحدث من الأوليين ، وعبد العزى بن كعب من أقدم ما سمّت به العرب .

وكان الذي اتخذ العزى ظالم بن أسعد ، وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراض ، بايزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال ، فبنى عليها بستانا ، يريد بيتا وكانوا يسمعون فيه الصوت وكانت العرب وقريش تسمى به عبد العزى ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح .

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهنّ الغرائق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى ، وكانوا يقولون بنات الله عز وجلّ ، وهنّ يشفعنّ إليه .

فلما بعث رسول الله ﷺ أنزل عليه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ وكانت قريش قد حمت لها شعبا من وادي حراض يقال له سقام يضاهئنا به حرم الكعبة وكان لها منحريّنحرون فيه هداياهم يقال له : الغبغب ، وكانت قريش تخصّها بالإعظام ، فلذلك يقول زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان قد تألّها في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تركّت اللات والعزى جميعا	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها	ولا صنمي بنى عمرو أزور
ولا هبلا أزور وكان ربّا	لنا في الدهر ، إذ حلمي صغير

وكانت سدنة العزى بني شيبان بن جابر بن مرة بن عيس بن
رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور ، وكانوا حلفاء بني
الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وكان آخر من
سدنها منهم دبية بن حرمي السلمى ، وله يقول أبو فراس الهذلي
وكان قدم عليه فحذاه نعلين جيدتين فقال :

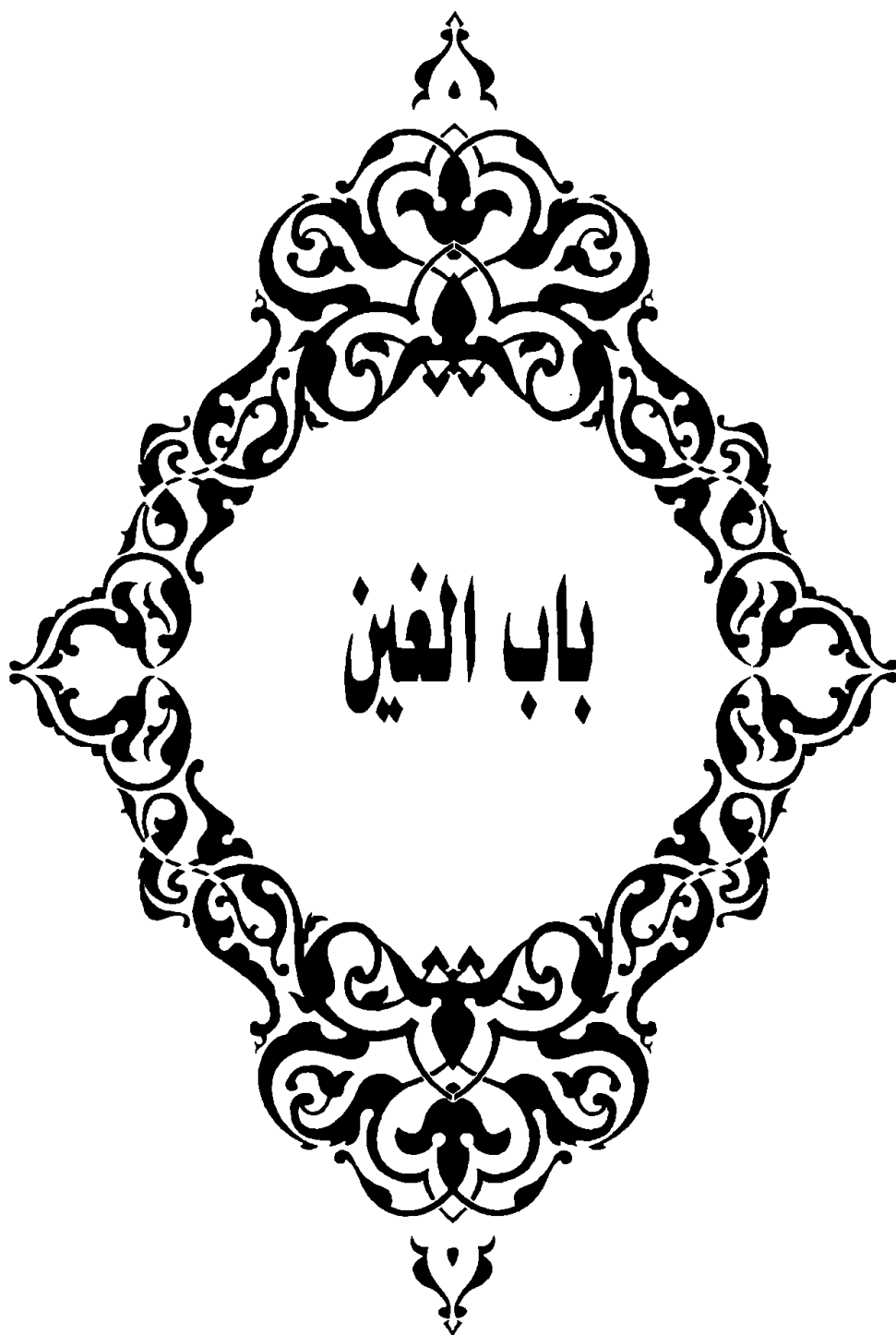
حذاني بعد ما خدمت نعلي دبية أنه نعم الخليل
مقابلتين من صلوى مشب من الثيران وصلهما جميل

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه ، ﷺ ، فعابها
وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ، ونزل القرآن فيها فاشتدّ

ذلك على قريش . ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب
يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة .

فأما العزى فكانت قريش تخصّها دون غيرها بالهدية والزيارة ،
وكانت ثقيف تخصّ اللات كخاصة قريش العزى ، وكانت الأوس
والخزرج تخصّ مناة كخاصة هؤلاء الآخرين .

قلت : فيما تقدّم نرى أقوالاً مختلفة في وصف العزى وتحديد
موقعها ، غير أن أرجح الأقوال في ذلك هو أنها كانت في بطن وادي
نخلة الشامية فيما بين مكة والطائف كما ورد ذلك في الحديث
المتقدّم الذي يتضمّن خبر ندب النبي ﷺ لخالد بن الوليد لتدميرها .



غار ثور : بغين معجمة بعدها ألف وآخره راء ، مضاف إلى ثور ،
 بئاء مثلثة مفتوحة بعدها واو ساكنة وآخره راء
 مهملة : غار في جبل ثور الواقع في أسفل مكة .

قال الله تعالى : ﴿ ثَانِيْ اَثْنَيْنِ اِذْ هُمَا فِي الْغَارِ اِذْ يَقُوْلُ
 لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ اِنَّ اِلَهَنَا مَعَنَا ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : قوله : ﴿ اِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ، يقول إذ رسول الله
 ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، في الغار . والغار النقب العظيم في الجبل .

وروى بسنده عن قتادة : وأما الغار فجبل بمكة يقال له : (ثور) .
 وقال القرطبي : ﴿ اِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ، الغار : ثقب في الجبل ،
 يعني غار ثور .

وجاء فيما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في هجرة
 النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه ، قالت
 فانطلقا حتى أتيا الغار وهو بثور فتواريا فيه فكان عامر بن فهيرة
 غلاما لعبد الله بن الطفيل بن سخبرة أخو عائشة لأمها وكانت لأبي
 بكر منحة فكان يروح بها ويغدو عليهم .. هـ

قال الأزرقى : ثور : جبل بأسفل مكة على طريق عرنة فيه الغار
 الذي كان رسول الله ﷺ مختبئا فيه هو وأبو بكر ، وهو الذي أنزل الله
 سبحانه فيه ، ﴿ ثَانِيْ اَثْنَيْنِ اِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ومنه هاجر النبي ﷺ
 وأبو بكر إلى المدينة . هـ

(١) سورة التوبة الآية رقم : ٤٠ .

قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج يعني من مكة إلى المدينة مهاجرا- أتى أبا بكر بن أبي قحافة ، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار ثور- جبل بأسفل مكة - فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يستمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهارا ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم ، أن الحسن بن أبي الحسن البصري قال : انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ ، فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية ، بقي رسول الله ﷺ بنفسه .

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثا ومعه أبو بكر رضي الله عنه . هـ

قال السهيلي : وهو غار في جبل ثور ، وهو الجبل الذي ذكره في تحريم المدينة ، وأنها حرام ما بين عير إلى ثور ، وهو وهم في الحديث ، لأن ثورا من جبال مكة ، وإنما لفظ الحديث عند أكثرهم ما بين عير إلى كذا ، كأن المحدث قد نسي اسم المكان ، فكنا عنه بكذا .

وذكر قاسم بن ثابت في الدلائل فيما شرح من الحديث أن رسول الله ﷺ لما دخل وأبو بكر معه أنبت الله على بابهِ الرءقن: قال قاسم : وهي شجرة معروفة فحجبت عن الغار أعين الكفار .

وفي مسند البزار : أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار وأرسل حمامتين وحشيتين فوقعتا على وجه الغار ، وأن ذلك ما صدّ المشركين عنه .

وفي الصحيح عن أنس : قال : قال أبو بكر رضي الله عنه -
 لرسول الله ﷺ وهما في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا ،
 فقال له رسول الله ﷺ : ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ، وروى أيضا أنه
 لما عمى عليهم الأثر جاءوا بالقافة ، فجعلوا يقفون الأثر ، حتى
 انتهوا إلى باب الغار وقد أنبت الله عليه ما ذكرناه في الحديث قبل
 هذا ، فعندما رأى أبو بكر رضي الله عنه القافة اشتد حزنه على رسول
 الله ﷺ وقال : إن قتلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت
 الأمة ، فعندها قال له رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا 》 . هـ

قال ياقوت : ثور : بلفظ الثور فحل البقر : اسم جبل بمكة فيه
 الغار الذي اختفى فيه النبي ﷺ : قال أبو طالب عم النبي ﷺ :

أعوذ بربّ الناس من كل طاعن علينا بشر أو مخلّق باطل
 ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ومن مفتر في الدين ما لم يحاول
 وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه وعير وراق في حراء ونازل

وقال الجوهري : ثور جبل بمكة وفيه الغار المذكور في القرآن ،
 يقال له أطحل ، وقال الزمخشري : ثور أطحل من جبال مكة بالمفجر
 من خلف مكة على طريق اليمن ، ...

وتحدث ابن جبير في رحلته عن جبل ثور في موضعين ،
 الأول حدد فيه الجبل وذكره باسم (أبي ثور) ، قال : ومن
 الجبال التي فيها أثر كريم ، ومشهد عظيم الجبل المعروف بأبي ثور ،
 وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد . وفيه الغار
 الذي آوى إليه النبي ﷺ ، مع صاحبه الصديق ، رضي الله عنه ،
 حسبما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز .

وفي الموضع الثاني وصف الغار وذكره باسم (جبل ثور) وقال :
 وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال صعدنا إلى جبل ثور ،

لمعاينة الغار المبارك الذي أوى إليه النبي ﷺ ، مع صاحبه الصديق ، رضي الله عنه ، حسبما جاء في محكم التنزيل العزيز ، وصفته أولا في هذا التقييد : وولجناه من الموضع الذي يعسر الولوج منه على البعض من الناس ... لأن مدخل النبي ﷺ ، كان منه .

وهذا الجبل صعب المرتقى جدا يقطع الأنفاس تقطيعا لا يكاد يبلغ منتهى إلا وقد ألقى بالأيدي إعياء وكلالا . وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال وطول الغار ثمانية عشر شبرا وسعته أحد عشر شبرا في الوسط منه أو في حافتيه ثلثا شبر وعلى الوسط منه يكون الدخول ، وسعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا لأن له بابين .

وفي مرآة الحرمين : وصف لجبل ثور وللغار قال مؤلفه : ولما بلغنا الغار وجدناه صخرة مجوفة في قنة الجبل ، أشبه بسفينة صغيرة ظهرها إلى أعلى ، ولها فتحتان في مقدمها واحدة وفي مؤخرها أخرى ، وقد دخلت من الغربية زاحفا على بطني ماذا ذراعي إلى الأمام ، وخرجت من الشرقية التي تتسع عن الأولى قليلا ، .. والفتحة الصغيرة عرضها ثلاثة أشبار في شبرين تقريبا ، وهي الفتحة الأصلية التي دخل منها النبي ﷺ ، وهي في ناحية الغرب ، أما الفتحة الأخرى فهي في الشرق ، ويقال : أنها محدثة ليسهل على الناس الدخول إلى الغار والخروج منه ، والغار من الجبل في الناحية الموالية لمكة .

وارتفاع جبل ثور يزيد على (٥٠٠) متر والواقف في أعلاه يشرف على ماحوله من الجبال ، ويرى مكة وما حولها واضحة ظاهرة .

قلت : هذا هو جبل ثور الذي بمكة ، الذي اختفى النبي ﷺ ورفيقه أبو بكر في غاره ، معروف باسمه هذا في مكة قديما ومازال معروفا به . أما جبل ثور الذي في المدينة فإن الحديث عنه سبق متسوفى في معجم أمكنة البخاري .

الغريسيّ : بغين معجمة مفتوحة بعدها راء مهملة ساكنة ، فباء
موحدة مكسورة وآخره ياء مثناة مشدّدة : المكان الذي
قضى الله فيه الأمر لموسى عليه السلام الرسالة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى
مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿ وَمَا
كُنْتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِجَانِبِ ﴾ غربي الجبل ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى
الْأَمْرَ ﴾ يقول : إذ فرضنا إلى موسى الأمر فيما ألزمناه وقومه وعهدنا
إليه من عهدنا .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ أي ما كنت يا
محمد ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أي بجانب الجبل الغربي .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي كما لم
تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم
تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين .

وقال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ
قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ يعني يا محمد ما كنت بجانب الجبل
الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على
شاطئ الوادي .

(١) سورة القصص الآية رقم : ٤٤ .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ ﴾
أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي ، فيكون من حذف
الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، واختاره الزجاج . وقال الكلبي :
(بجانب الوادي الغربي) : أي حيث ناجى موسى ربه ﴿ إِذْ قُضِيَْنَا إِلَى
مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة الى
فرعون وقومه .

قلت : هذا ما ذكره المفسرون في تفسير الآية الكريمة ﴿ وَمَا
كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ .

غيابة الجب : بغين معجمة مفتوحة وياء مثناة بعدها ألف وبعد الألف
باء موحدة مفتوحة وآخره هاء : ويقصد به البئر التي
ألقي إخوة يوسف فيها أخاهم يوسف عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبِ الْجُبِّ ﴾^(١) .

وروى ابن جرير بسنده عن قتادة في : ﴿ غَيْبِ الْجُبِّ ﴾ ، قال :
بئر بيت المقدس .

والغيابة : كل شيء غيب شيئاً فهو غيابة ، ﴿ الْجُبِّ ﴾ ، البئر
غير المطوية .

ويسنده عن قتادة في : ﴿ غَيْبِ الْجُبِّ ﴾ ، في بعض نواحيها في أسفلها .
ويسنده عن ابن عباس ، قال : والجب بئر بالشام .

قال القرطبي : قال الهروي : الغيابة شبه لجف أوطاق في البئر فوق الماء ، يغيب الشيء عن العين .

وقال ابن عزيز : كل شيء غيب عنك شيئاً فهو غيابة . ومنه قيل للقبر غيابة ، قال الشاعر :

فإن أنا يوما غيّبتني غيابة فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

والجبّ الركبة التي لم تطو ، فإذا طويت فهي بئر ، قال الأعشى :

لإن كنت في جبّ ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

وسميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً ، وجمع الجبّ جببة وجباب وأجباب ، وجمع بين الغيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه في موضع مظلّم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين ، قيل : هو بئر بيت المقدس ، وقيل : هو بالأردن ، قاله وهب بن منبه . وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

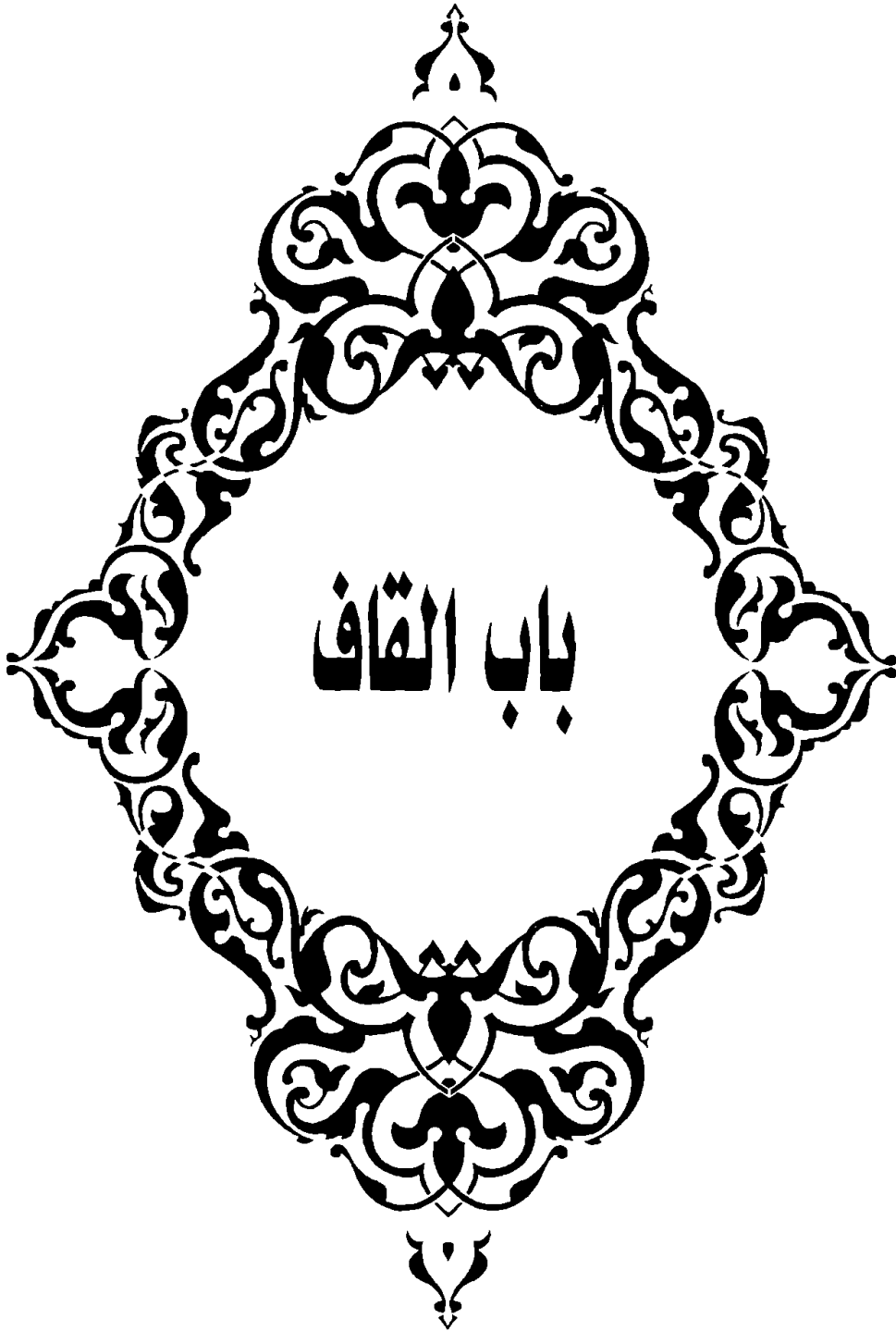
قال ياقوت : جبّ يوسف الصديق ، عليه السلام ، الذي ألقاه فيه إخوته ذكره الله عز وجل في كتابه العزيز ، وهو بالأردن الأكبر بين بانياس وطبرية على اثني عشر ميلاً من طبرية مما يلي دمشق ، قاله الاصطخري ، وقال غيره : كان منزل يعقوب بنابلس من أرض فلسطين ، والجبّ الذي ألقى فيه يوسف بين قرية من قراها ، يقال لها : سنجل وبين نابلس .

وفي التاج : جبّ يوسف المذكور في القرآن : وألقوه في غيابة الجبّ ، على اثني عشر ميلاً من طبرية وهي بلدة بالشام أو هو بين سنجل ونابلس ، على اختلاف فيه .

وفي القاموس الإسلامي : الجبّ البئر القليلة الماء ، جاء ذكرها مرتين بهذا المعنى في القرآن في سياق قصة يوسف وهي لا تختلف عن رواية التوراة ، ذلك أن إخوة يوسف اتفقوا على أن يتخلصوا منه لأن يلقوه في بئر على طريق القوافل بعد أن يعروه من قميصه ، قيل : إن هذا البئر كانت تقع في إقليم الأردن بين مدين ومصر . وقيل : بين طبرية والقدس ، وهي بئر ملحّة فجاءت قافلة في طريقها إلى مصر فأدلى واحد منها دلوّه في البئر فلما نزع الدلوّ يحسبها قد امتلأت فإذا غلام قد تعلق بها ، فاستبشر الرجل وحمله معه وباعه لرئيس الشرطة في مصر ، وفي ذلك تقول الآية : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيِّبِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ويطلق العامة في مصر على بئر بقلعة الجبل (المقطم) اسم بئر يوسف يعنون بها هذا الجبّ ، ولكن الإشارة إلى السلطان يوسف صلاح الدين .

قلت : يتبين ممّا تقدّم أن العلماء اختلفوا في تحديد مكان الجبّ الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام غير أنه لم يختلفوا في : أنه كان في بلاد الشام والله أعلم .



القرية : بقاف مثناة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وياء مثناة مفتوحة وآخره هاء : المقصود بذلك القرية التي أمر بنوا إسرائيل قوم موسى بدخولها .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ ^(٢) .

قال ابن جرير : القرية التي أمرهم الله جل ثناؤه أن يدخلوها ، فياًكلوا منها رغدا حيث شاءوا- فيما ذكر لنا : بيت المقدس .

وروى بسنده عن قتادة في قوله : ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ قال : بيت المقدس .

وروى بسنده عنه السدي : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ ، أما القرية ، فقريّة بيت المقدس .

ويسنده عن ابن وهب عن قوله : ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ قال : هي أريحاء ، وهي قريبة من بيت المقدس .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ وهي قرية بيت المقدس ، ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ يقول من ثمارها وحبوبها ونباتها .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية رقم : ١٦١ .

أما الباب الذي أمروا أن يدخلوه ، فإنه قيل : هو باب الحطة من بيت المقدس .

ويسنده عن مجاهد : ﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ، قال : باب الحطة من باب إيلياء ، من بيت المقدس .

ويسنده عن السدي : أما الباب فباب من أبواب بيت المقدس .
قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ أي المدينة ، سميت بذلك لأنه تقرت أي اجتمعت ، ومنه قرية الماء في الحوض ، أي جمعته ، واختلف في تعيينها ، فقال الجمهور : هي بيت المقدس . وقيل : أريحاء من بيت المقدس .

قال عمر بن شبة : كانت قاعدة ومسكن ملوك ابن كيسان - : الشام . الضحاك : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر .

والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم - (باب حطة) عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل .

وقال ابن كثير : كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس ، كما نص على ذلك السدي والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحد .

وقال الشوكاني : قال جمهور المفسرين : القرية هي بيت المقدس ، وقيل : إنها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس ، وقيل من قرى الشام ، والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة ، وقيل هو باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل .

قلت : هذا ما قاله المفسرون في التعريف بالقرية التي أمر بنو إسرائيل بدخولها و يترجح من أقوالهم أن المقصود بهذه القرية هي بيت المقدس .

القرية : كالذي قبله : هي بيت المقدس .

قال الله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل في الذي ﴿ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ فقال بعضهم : هو عزيز .

وروى بسنده عن ناجية بن كعب ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ ، قال : عزيز .

وبسنده عن سليمان بن بريدة في قوله : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ قال هو : عزيز .
وبسنده عن قتادة : مثله .

وبسنده عن عكرمة : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ ، قال : عزيز .
وبسنده عن ابن عباس : مثله .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٢٥٩ .

وقال آخرون : هو أوروميا بن حليقا ، وزعم محمد بن إسحاق أن أوروميا ، هو الخضر .

ويسنده عن ابن إسحاق قال : اسم الخضر فيما كان وهب بن منبه يزعم عن بني إسرائيل- أوروميا بن حليقا ، وكان من سبط هارون بن عمران .

ويسنده عن وهب بن منبه يقول في قوله : ﴿ أَنَّى يُحْيِ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، أن أوروميا لما خرب بيت المقدس وحرقت الكتب ، وقف في ناحية الجبل فقال : ﴿ أَنَّى يُحْيِ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

واختلف أهل التأويل في (القرية) التي مرّ عليها القائل : ﴿ أَنَّى يُحْيِ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فقال بعضهم هي بيت المقدس ، قاله وهب بن منبه .

ويسنده عن قتادة قال : ذكر لنا أنه بيت المقدس ، أتى عليه عزيز بعد ما خربه بختنصر البابلي .

ويسنده عن عكرمة قال : القرية بيت المقدس ، مرّ بها عزيز بعد إذ خربها بختنصر .

ويسنده عن الربيع : ﴿ أَوْ كَأَلَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ قال : القرية بيت المقدس مرّ عليها عزيز وقد خربها بختنصر .

قال ابن كثير : اختلفوا في هذا المرّ يعني على القرية- من هو ؟ فروى ابن أبي حاتم عن عصام بن داود عن آدم بن أبي إياس عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب

أنه قال : هو عزيز ، وحكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة ، وهذا القول هو المشهور .

وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مرّ عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أي ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوى خوية .

وقال القرطبي : قال سليمان بن بريدة وناجية بن كعب وقتادة وابن عباس والربيع وعكرمة والضحاك : الذي مرّ على القرية هو عزيز . وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الله بن بكر بن مضر : هو أروميا وكان نبياً .

والقرية المذكورة هي بيت المقدس ، في قول وهب بن منبه وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم .

وقال الشوكاني : والمشهور أن القرية هي بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها ، وقيل المراد بالقرية أهلها . وقوله ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة على عروشها ، أي سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه ، قاله السدي واختاره ابن جرير ، وقيل معناه خالية من الناس والبيوت قائمة ، واصل الخواء الخلو .

قلت : هذا هو خلاصة ما قاله المفسرون في تحديد ﴿ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ والتعريف بالذي مرّ عليها في زمن خوائها وقد اختلفوا في المارّ عليها ، فقال بعضهم : هو عزيز ، وقال آخرون إنه أروميا بن حليقة والله أعلم .

القرية : كالذي قبله : المقصود بالقرية في الآية الكريمة
الآية : مكة .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيرًا ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يعني بذلك أن هؤلاء المستضعفين من
الرجال والنساء والولدان ، يقولون في دعائهم ربهم بأن ينجيهم من
فتنة من قد استضعفهم من المشركين : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ .

والعرب تسمى كل مدينة (قرية) - يعني : التي قد ظلمتنا
وأنفسها أهلها - وهي في هذا الموضع ، فيما فسّر أهل التأويل ، (مكة) .

وروى بسنده عن مجاهد في قول الله : ﴿ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ
أَهْلُهَا ﴾ ، قال : أمر المؤمنين أن يقاتلوا عن مستضعفي المؤمنين ،
كانوا بمكة .

وبسنده عن السدي ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ يقول : وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي
المستضعفين ، وأما القرية فمكة .

(١) سورة النساء الآية رقم : ٧٥ .

وبسنده عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ هم أناس كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها ليهاجروا ، فعذرهم الله فهم أولئك ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ ، فهي مكة .

وبسنده عن ابن زيد ، قال و ﴿ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ مكة .
وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ القرية هنا مكة بإجماع المتأولين ، ووصفها بالظلم وإن كان الفعل للأهل لعلقة الضمير .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ يعني مكة .

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن عبيد الله قال سمعت ابن عباس قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين .

وحدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا ﴿ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ قال كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل .

وقال الشوكاني في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ فإنه يشعر باختصاص ذلك : بالمستضعفين الكائنين في مكة لأنه قد أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها مكة .

قلت : يتبين مما تقدم أن المقصود بالقرية التي جاء ذكرها في الآية الكريمة المتقدمة هي مكة ، وقد حكى بعض المفسرين إجماع أهل التفسير عليه .

قرية : كالذي قبله : المقصود به هذه الآية قرية قوم شعيب عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ ، يعني بالملأ الجماعة من الرجال ، ويعني بالذين استكبروا تكبروا عن الإيمان بالله ، والانتهاه إلى أمره ، واتباع رسوله شعيب ، لما أُنذره شعيب بأس الله ، على خلافهم أمر ربه وكفرهم به ، ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ ﴾ ، ومن تبعك وصدقك وآمن بك وبما جئت به معك ، ﴿ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ يقول : لترجعن أنت وهم في ديننا وما نحن عليه . قال شعيب مجيبا لهم : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ .

(١) سورة لأعراف الآية رقم : ٨٨ .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبا ومن معه من المؤمنين في وعده إياهم ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملّة ، وقوله ﴿ أَوْ لَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴾ يقول : أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنّا كارهين ما تدعوننا إليه فإنّا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله ، في جعل الشركاء معه أندادا وهذا تنفير منه عن اتباعهم .

قلت : سيأتي الحديث مستوفى عن مدين في رسمه إن شاء الله فانظره .

قرية : كالذي قبله : قيل : هي أيلة ، وقيل : مقنا ، وقيل : إيلياء ، وقيل : طبرية ، وقيل غير ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى ذكره : واسأل ، يا محمد ، هؤلاء اليهود وهم مجاوروك ، عن أمر ﴿ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ ، يقول : كانت بحضرة البحر ، أي : بقرب البحر وعلى شاطئه . واختلف أهل التأويل ، فقال بعضهم : هي (أيلة) .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : هي قرية يقال لها أيلة ، بين مدين والطور .

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ١٦٣ .

ويسنده عن عبد الله بن كثير قال : سمعنا أنها أيلة .
وينسده عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : هي قرية
على شاطئ البحر ، بين مصر والمدينة ، يقال لها (أيلة) .

ويسنده عن السدي قال : هم أهل أيلة القرية التي كانت
حاضرة البحر .

وقال آخرون : هي مقنا .

وروى بسنده عن ابن زيد في قوله : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي
كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ قال : هي قرية يقال لها (مقنا) بين مدين
وعينوني .

وقال آخرون : هي مدين .

وقال ابن كثير : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ ، هذه القرية هي
أيلة ، وهي على شاطئ بحر القلزم ، وقال بسنده عن ابن عباس في
قوله تعالى : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾
قال هي قرية يقال لها أيلة ، بين مدين والطور ، وكذا قال عكرمة
ومجاهد وقتادة والسدي . وقال عبد الله بن كثير القارئ : سمعنا
أنها أيلة ، وقيل : هي مدين وهو رواية عن ابن عباس ، وقال ابن زيد :
هي قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينوني .

وقال القرطبي : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ أي عن أهل القرية ،
فعبر عنهم بها لما كانت مستقرًا لهم أو سبب اجتماعهم .

واختلف في تعيين هذه القرية ، فقال ابن عباس وعكرمة
والسدي : هي أيلة . وعن ابن عباس أيضا أنها مدين بين أيلة والطور .

وعن الزهري : طبرية . وعن قتادة وزيد بن أسلم : هي ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونى ، يقال لها مقناة ، وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السبة عليهم .

وقال الشوكاني : ﴿ وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ اختلف أهل التفسير في هذه القرية : أي قرية هي ؟ ف قيل أيلة ، وقيل طبرية ، وقيل مدين ، وقيل إيلياء ، وقيل قرية من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر : أي كانت بقرب البحر .

قلت : فيما تقدم نرى اختلافا بين المفسرين في أي قرية كانت هذه القرية التي ورد ذكرها في الآية الكريمة ، فقال بعضهم : هي أيلة ، وأيلة مدينة كانت على رأس خليج العقبة وكانت لها شهرة تاريخية وقد اندرست ، وحلت مكانها مدينة (العقبة) في هذا العهد ، وقد استوفيت الحديث عنها في كتابي (معجم أمكنة البخاري) في رسم (أيلة) .

وقال بعضهم : هي مقنا وبلدة مقنا واقعة على ساحل خليج العقبة الشرقي ، جنوبا من العقبة . ومدينة أيلة وبلدة مقنا من البلدان التي صالحها النبي ﷺ أثناء غزوته إلى تبوك .

قال الواقدي : قالوا وكتب - يعني رسول الله ﷺ - لأهل مقنا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم ريع غزولهم وريع ثمارهم .

وقال ياقوت : مقنا : قرب أيلة صالحهم النبي ﷺ ، على ريع عروقهم ، والعروق حيث يصطاد عليه وعلى أن يعجل منه ريع كراعهم وخلفتهم ، وقال الواقدي : صالحهم على عروقهم وريع ثمارهم وكانوا يهودا .

أما طبرية فإنها مدينة معروفة ببلاد الشام ، وأما مدين فإنها تقع على ساحل البحر الأحمر وقد استوفيت الحديث عنها في كتابي هذا في رسم (مدين) .

أما إيلياء فإنني قد استوفيت الحديث عنها في كتابي (معجم أمكنة البخاري) في رسم (إيلياء) وهي في بلاد فلسطين .

هذا ما ذكره المفسرون والمؤرخون عن هذه القرية التي كانت حاضرة البحر .

القرية : كالذي قبله : المقصود به قرية نينوى في الموصل من أرض العراق .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾^(١) .

قال ابن جرير ، قال ابن عباس : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ ، يقول : لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذ نزل بها بأس الله ، إلا قرية يونس . قال ابن جرير ، قال مجاهد : فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها كما نفع قوم يونس إيمانهم إلا قوم يونس .

وذلك أنهم لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجزوا إلى الله أربعين ليلة .

(١) سورة يونس الآية رقم : ٩٨ .

فلما عرف الله الصّدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم . قال : وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل .

قال ابن كثير في تفسير الآية : والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس ، وهم أهل نينوى ، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه .

واختلف المفسّرون هل كشف عنهم العذاب الأخرويّ مع الدنيويّ أو إنّما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين : أحدهما ، إنّما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية . والثاني ، فيهما لقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخرويّ وهذا هو الظاهر والله أعلم .

وقال قتادة : وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل ، وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف .

وقال القرطبي : وروى في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسّرين : أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام فارسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا ، ف قيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم ، ف قيل له : أخبرهم أن العذاب مصبّحهم إلى ثلاث ففعل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك . فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا

ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرّقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردّوا المظالم في تلك الحالة .

وروى عن ابن عباس أنهم غشيتهم ظلّة وفيها حمرة فلم تزل تدنوا حتى وجدوا حرّها بين أكتافهم ، وقال ابن جبير : غشيتهم العذاب كما يغشى الثوب القبر ، فلما صحّت توبتهم رفع الله عنهم العذاب .

وقال ابن الأثير : يونس بن متى : كان أمره من الأحداث أيام ملوك الطوائف . قيل : لم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمّه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متى ، وهي أمّه ، وكان في قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى ، وكان قومه يعبدون الأصنام فبعثه الله إليهم بالنهي عن عبادة الأصنام والأمر بالتوحيد ، فأقام فيهم ثلاثا وثلاثين سنة يدعّوهم فلم يؤمن غير رجلين ، فلما أيس من إيمانهم دعا عليهم ، فقليل له : ما أسرع ما دعوت على عبادي (ارجع إليهم فادعهم أربعين يوما فدعاهم سبعة وثلاثين يوما ، فلم يجيبوه فقال لهم : إنّ العذاب يأتيكم إلى ثلاثة أيام . وآية ذلك أن ألوانكم تتغيّر ، فلما أصبحوا تغيّرت ألوانهم فقالوا : قد نزل بكم ما قال يونس ولم نجرب عليه كذبا فانظروا فإن بات فيكم فآمنوا من العذاب ، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب يصبّحكم .

فلما كان ليلة الأربعين أيقن يونس بنزول العذاب ، فخرج من بين أظهرهم . فلما كان الغد تغشاهم العذاب فوق رؤوسهم ، خرج عليهم غيم أسود هائل يدخن دخّانا شديدا ثم نزل إلى المدينة فاسودّت منه سطوحهم ، فلما رأوا العذاب أيقنوا بالهلاك ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فألهمهم الله توبة فأخلصوا النية في ذلك وقصدوا شيئا وقالوا له : قد نزل بنا ما ترى فما نفع ؟ فقال : آمنوا بالله وتوبوا وقولوا : يا حيّ يا قيّوم ، يا حيّ حين لا حيّ ، يا حيّ محيي

الموتى ، يا حيّ لا إله إلا أنت . فخرجوا من القرية إلى مكان رفيع في
براز من الأرض وفرّقوا بين كلّ دابة وولدها ثم عَجّوا إلى الله
واستقالوه وردّوا المظالم جميعا ، حتى إن كان أحدهم ليقلع الحجر
من بنائه فيردّه إلى صاحبه .

وقال القزويني : نينوى بلاد وقرى كانت بشرقي دجلة عند
الموصل . في قديم الزمان بعث الله تعالى إليهم يونس النبي ، عليه
السلام ، فدعاهم إلى الله تعالى فكذبوه ، فخوّفهم بعذاب الله في وقت
معين وفارقهم .

فلما دنا ذلك الوقت وشاهدوا آثار عذاب الله خرجوا بالنساء
والذراري إلى تلّ هناك في شرقي دجلة ، وكشفوا رؤوسهم وتابوا وآمنوا ،
فكشف الله عنهم العذاب ، والتلّ باق إلى الآن ويسمّى تلّ التوبة وعليه
مشهد مقصود ينذر له ويقصده الناس كلّ ليلة جمعة .

قلت : نينوى مدينة من الموصل في شمال العراق ما زالت معروفة
بهذا الاسم ، وترسم به على الخرائط الجغرافية لدولة العراق .

القرية : كالذي قبله : المراد به في هذه الآيات قرية قوم لوط
(سدوم) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ ^(١) .
وقال تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغُرَيَّةِ
الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ٨٢ .

(٢) سورة الأنبياء الآية رقم : ٧٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوَاءِ أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلْ لُوطِ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٣).

قال ابن جرير : يقول تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ يقول تعالى ونجينا من عذابنا الذي أحللناه بأهل القرية التي كانت تعمل الخبائث وهي قرية (سدوم) التي كان لوط بعث إلى أهلها ، وكانت الخبائث التي يعملونها : إتيان الذكران في أدبارهم ، وخذفهم الناس ، وتضارطهم في أنديتهم ، مع أشياء آخر كانوا يعملونها من المنكر ، فأخرجه الله حين أراد هلاكهم إلى الشام .

وروى بسنده عن السدي ، قال : أخرجهم الله ، يعني لوطا وابنتيه زيثا زعرثا إلى الشام حين أراد إهلاك قومه .

وقال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوَاءِ ﴾ يقول تعالى ذكره : ولقد أتى هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجورا على القرية التي أمطرها الله مطر السوء ، وهي سدوم قرية قوم لوط .

(١) سورة الفرقان الآية رقم : ٤٠ .

(٢) سورة النمل الآية رقم : ٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت الآية رقم : ٣٤ .

وروى بسنده عن ابن جريج : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي
أَمْطَرْتُ مَطَرًا سَوِيًّا ﴾ قال : حجارة وهي قرية قوم لوط واسمها سدوم .

وقال ابن عباس : خمس قريات فأهلك الله أربعة ، وبقيت
الخامسة واسمها صعوة ، لم تهلك ، صعوة كان أهلها لا يعملون
ذلك العمل ، وكانت سدوم أعظمها ، وهي التي نزل بها لوط ومنها
بعث ، وكان إبراهيم عليه السلام ينادي نصيحة لهم : يا سدوم يوم
لكم من الله ، أنهاكم أن تعرضوا لعقوبة الله ، وزعموا أن لوطا ابن
أخي إبراهيم صلوات الله عليهما .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى
الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرًا سَوِيًّا ﴾ يعني قرية قوم لوط ، وهي سدوم
التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل ، كما
قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .

وقال القرطبي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ﴾ يعني
مشركي مكة ، والقرية قرية قوم لوط . ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾
أي في أسفارهم ليعتبروا .

قال ابن عباس : كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمداين
قوم لوط ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ .

وقال ياقوت : سدوم : فعول من السدم ، وهو الندم مع غم ، قال
أبو منصور : مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له : سدوم ،
وقال أبو حاتم في كتاب المزال والمفسد : إنما هو سدوم ، بالذال المعجمة ،
قال : والذال خطأ . قال الأزهري : وهو الصحيح أعجمي ، وقال الشاعر .

كذلك قوم لوط حين أضحوا كعصف في سدومهم رميم

وهذا يدل على أنه اسم البلد لا اسم القاضي ، إلا أن قاضيه يضرب فيه المثل فيقال : أجور من قاضي سدوم . وذكر الميداني في كتاب الأمثال أن سدوم هي سمرين بلدة من أعمال حلب معروفة عامرة عندهم ، وكان من جوره أنه حكم على أنه إذا ارتكبوا الفاحشة من أحد أخذ منه أربعة دراهم ثم أورد ياقوت شعر أمية ابن أبي الصلت . - وسيأتي .

وقال ابن الأثير في خبر قوم لوط وما حلّ بهم من العذاب : مضت الملائكة نحو سدوم قرية لوط ، فلما انتهوا إليها لقوا لوطاً في أرض له يعمل فيها ، وقد قال الله تعالى لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فأتوه فقالوا : إننا متضيّفوك الليلة ، فانطلق بهم فلما مشى ساعة التفت إليهم فقال لهم : أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ والله ما علم على ظهر الأرض إنساناً أخبث منهم ، حتى قال ذلك أربع مرّات ... ونجى الله لوطاً وأهله إلا امرأته . وذكر أنه كان فيها أربعمائة ألف . وكان إبراهيم يشرف عليها ويقول : سدوم يوماً هالك . ومدائن قوم لوط خمس : سدوم وصبعة وعمرة ودوما وصعوة ، وسدوم هي القرية العظمى .

وقال القزويني : سدوم . قصبة قرى قوم لوط . وهي بين الحجاز والشام ، كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياها وأشجاراً وحبوباً وثماراً ، والآن عبرة للناظرين ، وتسمّى المقلوبة لا زرع بها ولا ضرع ولا حشيش وبقيت بقعة سوداء فرشت فيها حجارة ، ذكر أنها الحجارة التي أمطرت عليهم وعلى عامتها الطابع ، قال أمية بن أبي الصلت :

ثم لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا : قد نهيناك أن تقيم قراها

عرض الشيخ عند ذاك بنات
غضب القوم عند ذاك وقالوا:
عزم القوم أمرهم وعجوز
أرسل الله عند ذاك عذابا
ورماها بحاصب ثم طين
كضباء بأجرع ترعاها
أيها الشيخ خطبة نأبأها
خيَّب الله سعيها ورجأها
جعل الأرض سفلها أعلاها
ذي حروف مسوّم رماها

وفي الروض المعطار : سدوم : مدينة من مدائن قوم لوط ،
وهي وما حولها المؤتفكات وكان خمس قريات ، وسدوم هي القرية
العظمى ، وهي كلها خراب لا أنيس بها ، وإلى أهلها أرسل الله
سبحانه نبيه لوطا عليه السلام ، والحجارة الموسومة موجودة فيها
يراها السفر سوداء برّاقة . وكان في كلّ قرية منها مائة ألف ،
ويضرب المثل بجور أحكام قاضي سدوم وهي بأرض الشام .

وسدوم هذه هي القرية التي أمطرت مطر السوء المذكور في
سورة الفرقان ، لأنها رجمت .

قالوا : أدخل جبريل عليه السلام جناحه الواحد تحت مدائن
قوم لوط فقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق
الحمير ونباح الكلاب وصراخ الديكة ، ثم قلبها دفعة واحدة وضرب بها
على الأرض وأمطرت عليهم حجارة من سجيل .

وكانت هذه القرى بين المدينة والشام ومنها صبعة وصعوة
وعمرة وسدوم ودوما وهي المدينة العظمى ، وقال بعض المفسرين :
سدوم هي القرية التي كانت تعمل الخبائث ، وسدوم موضع بالشام
كان قاضيه يضاف إلى الجور فيقال في المثل : أجور من قاضي سدوم ؛
ويقال أيضا : أجور من سدوم ، قال عمرو بن ذراك العبدي - :

وَأَنِّي إِن قَطَعْتَ حَبَالَ قَيْسٍ وَحَالَفْتَ الْمَزُونَ عَلَى تَمِيمٍ
لَأَعْظِمَ فَجْرَةً مِنْ أَبِي رِغَالٍ وَأَجُورَ فِي الْحُكُومَةِ مِنْ سَدُومٍ

أَهْلَكَهَا اللَّهُ فِيمَا أَهْلَكَ مِنْهَا ، وَقِيلَ : كَانَ سَدُومُ مَلَكًا وَبِهِ
سَمَّيَتِ الْمَدِينَةَ ، وَكَانَ مِنْ أَجُورِ النَّاسِ .

وَفِي نَخْبَةِ الدَّهْرِ : وَمِنَ الْبَحِيرَاتِ الْمَالِحَةِ بَحِيرَةُ زَغَرِ الْمُنْتَنَةِ ،
وَبَقَعَتَهَا بَيْنَ جَانِبِي الْغُورِ مِنَ الشَّامِ ، وَلَا حَيَوَانَ وَاحِدَ بِهَا ، وَطَوَّلُهَا
سَبْعَ فَرَاسِخَ ، وَعَرْضُهَا الْأَعْرَاضُ نَحْوَ ثَلَاثِ فَرَاسِخَ ، وَيُخْرَجُ مِنْهَا قَضِرُ
الْيَهُودِ وَهُوَ الْحَمْرُ ، وَقِيلَ : إِنْ طَوَّلُهَا سِتُونَ مِيلًا وَعَرْضُهَا اثْنِي عَشَرَ
مِيلًا وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَكَانَ لَهَا خَمْسُ مَدَنٍ أَسْمَاؤُهُمْ : صَعْدَةُ ، صَعْبَةُ ، عَمْرَةُ ، دُومَا ،
سَدُومٌ وَسَدُومٌ أَكْبَرُهُمْ وَهِيَ أَصْلُهُمْ فِي الْفُسَادِ .

قُلْتُ : وَفِيمَا قَالَهُ صَاحِبُ نَخْبَةِ الدَّهْرِ نَجِدُ أَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْبَحِيرَةَ
الْمَالِحَةَ (بَحِيرَةُ زَغَرٍ) الْبَقْعَةُ الَّتِي أَهْلَكَ فِيهَا قَوْمُ لُوطَ ، وَهَذِهِ
الْبَحِيرَةُ تَذَكَّرُ بَعْدَ أَسْمَاءَ : الْبَحِيرَةُ الْمَالِحَةُ ، بَحِيرَةُ زَغَرٍ ، بَحِيرَةُ
لُوطَ ، الْبَحْرُ الْمَيِّتُ ، الْبَحِيرَةُ الْمُنْتَنَةُ .

وَقَالَ ابْنُ خَرْدَاذِبَةَ : وَمِنَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِلَى الْبَحِيرَةِ الْمُنْتَنَةِ بَلَا
شَكٍّ أَرْبَعَةُ أَمْيَالٍ ، وَيُخْرَجُ مِنَ الْبَحِيرَةِ الْمُنْتَنَةِ مِلْحٌ يَصْلُحُ لِلصَّاعَةِ
وَفِيرٌ يَسْمَى الْحَمْرُ وَهُوَ قَضِرُ الْيَهُودِ ، وَيُقَالُ لِلنَّهْرِ الَّذِي يَصُبُّ فِي
الْبَحِيرَةِ الْمُنْتَنَةِ الْأُرْدُنِ .

وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ : وَزَغَرٌ مِنْ أَرْضِ الْغُورِ ، وَهِيَ أَرْضُ الْبَحِيرَةِ
الْمُنْتَنَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْغُرْقَى ، وَلَا يَتَكَوَّنُ فِيهَا ذُو رُوحٍ مِنْ سَمَكٍ وَلَا

غيره .. وإليها ينتهي ماء بحيرة طبرية ، وهو الأردن .. فإذا انتهى مصب نهر الأردن إلى البحيرة المنتنة خرقها وانتهى إلى وسطها متميزاً عن مائها ، فيغوص في وسطها ، وهو نهر عظيم فلا يدري أين غاص من غير أن يزيد في البحيرة ولا ينقص منها ، ولهذا البحيرة - أعني المنتنة - أخبار عجيبة وأقاصيص طويلة .

قلت : فيما تقدّم من أقوال المفسّرين والمؤرخين نرى أنهم لم يختلفوا في موقع بلاد قوم لوط وأنها واقعة بين نهاية الجزيرة العربية من الشمال الغربي وبين بلاد الشام ويرجح بعضهم أن (البحر الميت) المعروف بين الأردن وفلسطين هو البقعة التي أهلك الله بها قوم لوط .

وفي القاموس الإسلامي ، قال : بحر لوط ، وأطلق على البحر الميت كما عرف بالبحيرة الميتة أو المنتنة ، وأشارت بعض كتب التفسير إلى أن هذا البحر لم يكن موجوداً قبل الأحداث التي جرت لقوم لوط ، وأنه تكوّن نتيجة للزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها .

وقال عفيف طيارة : ولما حلّ العذاب الذي قدره الله وقضاه ، جعل عالي القرية التي كان يعيش بها قوم لوط سافلها ، وأمطر عليهم في أثناء ذلك حجارة من طين متحجّر صلب . قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٧﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

والبقعة التي أصابها العذاب هي البقعة التي تعرف اليوم بالبحر الميت أو بحيرة لوط ، ويرى بعض العلماء أن البحر الميت لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر .

وقد جاءت الأخبار في السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت .

وقال الصابوني : لوط عليه السلام أرسله الله تعالى إلى أهل (سدوم) في دائرة الأردن ، وليس في قومه الذين أرسل إليهم نسب لأنه ليس من القبيلة ، ولعل التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ يدل على ذلك حيث لم يذكر أنه أرسل منهم .

وكان لوط عليه السلام قد نزح من محلة عمّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، بأمره وأذنه فنزل بمدينة (سدوم) في أطراف شرق الأردن وكان قومها من أفجر الناس وأكثرهم وأخبثهم طويًا ، وأقبحهم سيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ... فأهلكهم الله بأنواع العذاب .

ويقول بعض المؤرخين : أن البحر الميت ، المعروف الآن ببحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث ، وإنما حصل من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمئة متر .

وقد أثبتت الاكتشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت .

قلت : وهكذا نجد أن المتأخرين من المفسرين والمؤرخين يتفقون على أن (البحر الميت) هو البقعة التي أهلك الله فيها قوم لوط ونزل بهم عذابه فيها وفي رسم (المؤتفكة) مزيد من الإيضاح .

القريّة : كالذي قبله : المقصود بالآية الكريمة مصر أو إحدى قراها .

قال تعالى : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ ﴾ ^(١).

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾ حققوا بها شهادتهم عنده ، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لثلاثتهم ، فقولهم : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾ أي أهلها فحذف ، ويريدون بالقرية مصر .

وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها .
وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ قيل : المراد مصر ، قاله قتادة ، وقيل غيرها .

وقال ابن جرير : (فسأل القرية التي كنا فيها) ، وهي مصر ، يقول : سل من فيها من أهلها .

وروى بسنده عن قتادة قوله : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ وهي مصر .

وبسنده عن ابن عباس قال : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ قال : يعنون مصر .

وقال الشوكاني : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ هذا من تمام قول كبيرهم لهم : أي قولوا لأبيكم اسأل القرية التي كنا فيها أي : مصر ، والمراد أهلها : أي اسأل أهل القرية . وقيل : هي قرية من

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٨٢ .

قرى مصر نزلوا فيها ومتاروا منها ، وقيل المعنى : واسأل القرية نفسها وإن كانت جمادا فإنك نبي الله ، والله سبحانه سينطقها فتجيبك .

قال ابن الأثير : قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ ﴾ العير عن مصر حملت الريح إلى يعقوب ، ريح يوسف ، وبينهما ثمانين فرسخا . يوسف بمصر ويعقوب بأرض كنعان ، قال يعقوب : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ .

قال : ثم ارتحل يعقوب وولده ، فلما دنا من مصر خرج يوسف يتلقاه ومعه أهل مصر ، وكانوا يعظمونه ، فلما دنا أحدهما من صاحبه نظر يعقوب إلى الناس والخيول ، وكان يعقوب يمشي ويتوكأ على ابنه يهودا ، فقال له : يا بني هذا فرعون مصر . قال : لا ، هذا ابنك يوسف . فلما قرب منه أراد يوسف أن يبدأه بالسلام ، فمنع من ذلك ، فقال يعقوب : السلام عليك يا مذهب الأحزان ، لأنه لم يفارقه الحزن والبكاء مدة غيبة يوسف عنه .

قال : فلما دخلوا مصر رفع أبويه ، يعني أمه وأباه ، وقيل : كانت خالته ، وكانت أمه قد ماتت ، وخر له يعقوب وأمّه وإخوته سجداً ، وكان السجود تحية الناس للملوك ، ولم يرد بالسجود وضع الجبهة على الأرض ، فإن ذلك لا يجوز إلا لله تعالى ، وإنما أراد الخضوع والتواضع والانحناء عند السلام ، كما يفعل الآن بالملوك ، والعرش : السرير .

وكان بين رؤيا يوسف ومجيء يعقوب أربعون سنة ، وقيل : ثمانون سنة .

قلت : يتضح مما تقدم من أقوال المفسرين والمؤرخين أن القرية المقصودة في هذه الآية الكريمة هي مصر أو إحدى قراها وقد اتفق عليه .

القرية : كالذي قبله : والمقصود به مكة المكرمة ، وقيل : المدينة .

قال الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى ذكره : ومثل الله مثلاً لمكة التي سكانها أهل شرك بالله هي القرية التي كانت آمنة ، مطمئنة ، وكان أمنها أن العرب كانت تتعادي ، ويقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً ، وأهل مكة لا يغار عليهم ولا يحاربون في بلدهم ، فذلك كان أمنها .

وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ يعني : قارة بأهلها لا يحتاج أهلها إلى النجى ، كما كان سكان البوادي يحتاجون إليها ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ يقول : يأتي أهلها معاشهم واسعة كثيرة ، وقوله ﴿ مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يعني : من كل فجٍّ من فجاج هذه القرية ، ومن كل ناحية فيها .

وينحو الذي قلنا في أن القرية التي ذكرت في هذا الموضع أريد بها مكة ، قال أهل التأويل :

وروى بسنده عن ابن عباس ، في قوله ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يعني : مكة .
وروى بسنده عن مجاهد ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ قال : مكة .

(١) سورة النحل الآية رقم : ١١٢ .

وروى بسنده عن قادة في قوله ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ قال : ذكرنا أنها مكة .

وروى بسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾ قال : هذه مكة .

وقال آخرون : بل القرية التي ذكر الله في هذا الموضع مدينة الرسول .

وروى بسنده أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي ، حدث أنه سمع مشرح بن عاهان ، يقول : سمعت سليم بن نمير يقول : صدرنا من الحجّ مع حفصة زوج النبي ﷺ ، وعثمان محصور بالمدينة ، فكانت تسأل عنه ما فعل ، حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما ، فقالا : قتل ، فقالت حفصة : والذي نفسي بيده إنها القرية ، تعني المدينة التي قال الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ قرأها .

قال أبو شريح : وأخبرني عبد الله بن المغيرة عمّن حدثه ، أنه كان يقول : إنها المدينة .

وقال ابن كثير في تفسير الآية : هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرّة ، يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمناً لا يخاف كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِّنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجَبَّىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ هكذا قال ههنا

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أي هنيئًا سهلاً ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿ ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافهما فقال ﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافة فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العهْلز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه ، وقوله ﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم لرسول الله ﷺ الذي بعثه فيهم منهم وامتن به عليهم .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال : (اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) ، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، ووجه إليهم رسول الله ﷺ طعاماً ففرق فيهم . ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾ لا يهاج أهلها ، ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر ، نظيره ، ﴿ يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الآية ، ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ الأنعم : جمع نعمة ، وقيل : جمع نعمى . وهذا الكفران تكذيب

بمحمد ﷺ ، ﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ ﴾ أي أذاق أهلها ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾
سمّاه لباساً لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما
هو كاللباس . ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي من الكفر والمعاصي .

وقد قيل : إنها المدينة ، آمنت رسول الله ﷺ ، ثم كفرت بـ نعم
الله لقتل عثمان بن عفان ، وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن ،
وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي ﷺ .

وقيل : إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من
سائر القرى .

قلت : هذا ما قاله المفسرون عن القرية ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ
كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وقد اختلف في هذه القرية ، أهي مكة المكرمة أم إنها المدينة ؟
ويترجح من أقوالهم أن المقصود بالآية الكريمة مكة حرسها الله . ويرى
بعضهم أن ذلك مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة .

قريّة : كالذي قبله : قيل : الأبلّة ، وقيل : أيلة ، وقيل :
باجروان ، وقيل غير ذلك .

قال الله تعالى في خبر موسى والخضر : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا
أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا
يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (١) .

قال ابن جرير : قيل : إن القرية التي استطعما أهلها موسى
وصاحبه فأبوا أن يضيّفوهما : الأيلة .

وروى بسنده عن محمد بن سيرين ، قال : انتابوا الأيلة ، فإنه قلّ من يأتيها فيرجع منها خائبا ، وهي الأرض التي أبوا أن يضيّفوها ، وهي قلّ من يأتيها فيرجع منها خائبا ، وهي أبعد أرض الله من السماء .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وتلا إلى قوله : ﴿ لَتَّخَذَتْ عَلَيْهِ جَرًّا ﴾ شرّ القرى التي لا تضيّف الضيف ، ولا تعرف لابن السبيل حقّه .

وقوله : ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ يقول : قال موسى لصاحبه : لو شئت لم تقم لهؤلاء القوم جدارهم حتى يعطوك على إقامتك أجرا ، فقال بعضهم إنما عنى موسى بالأجر الذي قال له ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ القرى : أي حتى يقرونا فإنهم قد أبوا أن يضيّفوها .

وقال القرطبي : واختلف العلماء في القرية ، فقليل : هي أبلّة ، قال قتادة ، وكذلك قال محمد بن سيرين وهي أبخل قرية وأبعدّها من السماء . وقيل : أنطاكية . وقيل : بجزيرة الأندلس ، روي ذلك عن أبي هريرة وغيره ، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء .

وقالت فرقة : هي باجروان وهي بناحية أذربيجان . وحكى السهيلي وقال : إنها برقة . قال الثعلبي : هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة ، وإليها تنسب النصارى ، وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصّة موسى . والله أعلم بحقيقة ذلك .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ روى ابن جرير عن ابن سيرين أنها الأيكة .

وقال القزويني : شروان : ناحية قرب باب الأبواب ، وهي ناحية مستقلة بنفسها يقال لملكها اخستان . ذهب بعضهم إلى أن قصّة موسى والخضر ، عليهما السلام كانت بها ، وأن الصخرة التي نسي يوشع عليه السلام ، الحوت عندها بشروان ، والبحر بحر الخزر ، و القرية التي لقيها فيها غلاما فقتله قرية جيران ، والقرية التي استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيه جدارا يريد أن يذغذغ فأقامه باجروان ، وهذه كلها من نواحي أرمينية قرب الدربند ، ومن الناس من يقول إنها كانت بأرض أفريقية .

قلت : فيما قاله المفسّرون والمؤرخون اختلاف واسع في تحديد القرية التي استضاف موسى والخضر عليهما السلام ، أهلها أبوا أن يضيّفوهما . أهى الأيلة ، أم هي الأبلّة ، أم أنها باجروان ، أم أنها بلدة في أفريقية؟ أو أنها غير ذلك، وفي رسم ﴿ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ ﴾ ورسم ﴿ الصَّخْرَة ﴾ مزيد من الإيضاح بشأن سفر موسى والخضر عليهم السلام.

قرية : كالذي قبله : لم أر قرية مقصودة بذلك فيما قاله المفسّرون .

قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ^(١).

قال ابن كثير : يقول تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس وجب يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، هكذا صرح به ابن عباس وأبو

(١) سورة الأنبياء الآية رقم : ٩٥ .

جعفر الباقر وقتادة وغير واحد ، وفي رواية عن ابن عباس أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الأول أظهر والله أعلم .

وقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فلا يرجع منهم راجع ، ولا يتوب منهم تائب .

وبسنده عن عكرمة ، قال : لم يكن ليرجع منهم راجع حرام عليهم ذلك .

قلت : هذا ما قاله المفسرون في تأويل هذه الآية الكريمة ، ويبدو لي أن (القرية) في هذه الآية اسم جنس لا يختص بقرية معينة وإنما يراد به كل قرية أهلكها الله بعذابه .

القرية : كالذي قبله : هي مدينة أنطاكية ، وقيل غيرها .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿ ١٤ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ومثل يا محمد لمشركي قومك مثلاً أصحاب القرية ، ذكر أنها أنطاكية ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ اختلف أهل العلم في هؤلاء الرسل ، وفيمن كان أرسلهم إلى أصحاب القرية ، فقال بعضهم : كانوا رسل عيسى ابن مريم ، وعيسى الذي أرسلهم إليهم .

(١) سورة يسن الآية رقم : ١٣-١٤ .

وروى بسنده عن قتادة ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿ قال : ذكرنا لنا أن عيسى ابن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية مدينة بالروم فكذبوهما ، فأعزَّهما بثالث ، ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ .

وروى بسنده عن السدي عن عكرمة ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ قال : أنطاكية .

وقال آخرون : بل كانوا رسلا أرسلهم الله إليهم .

وروى بسنده عن ابن عباس وعن كعب الأحبار ، وعن وهب بن منبه ، قال : كان بمدينة أنطاكية ، فرعون من الضراعنة يقال له أبطيخس ابن أبطيخس يعبد الأصنام ، صاحب شرك ، فبعث الله المرسلين ، وهم ثلاثة : صادق ومصدق وسلوم ، فقدم إليه وإلى أهل مدينته منهم اثنان فكذبوهما ، ثم عزَّز الله بثالث ، فلما دعت الرسل ونادته بأمر الله ، وصدعت بالذي أمرت به وعابت دينه وما هم عليه ، قال لهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ يقول تعالى ذكره : حين أرسلنا إليه فكذبوهما فشددناهما بثالث ، وقويناهما به . واختاره ابن جرير .

قال ابن كثير : يقول تعالى : واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار

ووهب ابن منبه أنها مدينة أنطاكية وكان بها ملك يقال له أنطيوخس ابن أنطيوخس ابن أنطيوخس وكان يعبد الأصنام فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم وهكذا روى بريدة ابن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهري أنها أنطاكية ؛ وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ، وفي ذلك نظر من وجوه أحدها : أن ظاهر القصة على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ إلى أن قالوا : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿ ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بباركة ، وهنّ (القدس) لأنها بلد المسيح (وأنطاكية) لأنها أول بلد آمنت بالمسيح عن آخر أهلها (والإسكندرية) لأنها فيها اصطلحوا على اتخاذ البطاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين ثم (رومية) لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده ، ولما إبتنى القسطنطينية نقلوا البتريك من رومية إليها ذكره غير واحد ممن ذكروا تواريخهم كسعيد ابن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين .

فإذا تقرّر أن أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من

السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، وذكره عند قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ فعلى هذا يتبين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما ادّملق ذلك غير واحد من السلف أيضا ، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

قلت : فيما تقدّم نرى أن ابن كثير استدرك على الذين أجمعوا من المفسرين على أن (أنطاكية) هي القرية التي ورد ذكرها في الآية الكريمة (واضرب مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) وقد بنى استدراكه هذا على استنتاجات جيدة وساق حديثه فيها ببراعة والله أعلم .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ خطاب للنبي ﷺ ، أمر أن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين ، فيما ذكر الماوردي . نسب إلى أهل أنطبيس وهو اسم الذي بناها ثم غير لما عرب ، ذكره السهيلي ويقال فيها : أنطاكية بالتاء بدل الطاء .

أمر النبي ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحلّ بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل .

وتحدّث ياقوت عن أنطاكية حديثا طويلا شاملا لا يتسع مقامنا هذا لكل ما ورد فيه ، قال فيه : أنطاكية بالفتح ثم السكون ، والياء مخففة ، وليس في قول زهير :

علون بأنطاكية فوق عقمة وراة الحواشي ، لونها لون عناء

وقول امرئ القيس :

علون بأنطاكية فوق عقمة كجرمة نخل أم كجنة يثرب

أليل على تشايد الياء لأنها للنسبة وكانت العرب إذا أعجبها شيء نسبته إلى أنطاكية ، قال الهيثم ابن عدي : أول من بنى أنطاكية أنطيوخس وهو الملك الثالث بعء الإسكندر ، وذكر يحيى ابن جرير المتطبب التكريتي : أن أول من بنى أنطاكية أنطيفونيا في السنة السادسة من موت الإسكندر ولم يتمها ، فإتمها بعءه سلوقوس ، وهو الذي بنى اللاذقية وحلب والرها وأفامية .

وقيل : إن أول من بناها وسكنها أنطاكية بنت الروم ابن اليقن (اليغز) ابن سام بن نوح ، عليه السلام ، أخت أنطاكية باللام ، ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية ، وهي من أعيان البلاد وأمهااتها ، وموصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهوى وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير .

وأما فتحها فإنّ أبا عبيدة بن الجراح سار إليها من حلب وقد تحصّن بها خلق كثير من أهل جند قنّسرين فلما صار بمهرويه على فرسخين من مآينة أنطاكية لقيه جمع من العءو ففضّهم وألجأهم إلى المآينة ، وحاصر أهلها من جميع نواحيها ، وكان معظم الجيش على باب فارس والباب الذي يءعى باب البحر ، ثم إنهم صالحوه على الجزية أو الجلاء فجلى بعضهم وأقام بعض منهم فأمنّهم ، ووضع على كل عالم ديناراً وجربياً ثم نقضوا العهد فوجه إليهم أبو عبيدة عياض ابن غنم وحبیب ابن مسلمة ففتحها على الصلح الأول .

ويقال : بل نقضوا بعد رجوع أبي عبيدة إلى فلسطين فوجه عمرو بن العاص من إيلياء ففتحها ورجع ، ثم لم تزل بعد ذلك أنطاكية في أيدي المسلمين وثغرا من ثغورهم إلى أن ملكها الروم في سنة (٣٥٣) واستمرت في أيديهم إلى أن استنقذها منهم سليمان بن قتلنس السلجوقي جد ملوك آل سلجوق في سنة (٤٧٧) فاستقام أمرها وبقيت في أيدي المسلمين إلى أن ملكها الافرنج من واليها بغيسفان التركي بحيلة تمت عليه وخرج منها فندم ومات من الغبن قبل أن يصل إلى حلب ، وذلك سنة (٤٩١) .

قرية : كالذي قبله : المقصود بهذه القرية مكة حرسها الله .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وكم يا محمد من قرية هي أشد قوة من قريتك ، يقول : أهلها أشد بأسا وأكثر جمعا ، وأعد عديدا من أهل قريتك ، وهي مكة . وأخرج الخبر عن القرية ، والمراد به أهلها .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ قال : هي مكة .

وروى بسنده عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار ، أراه قال : التفت إلى مكة ، فقال : أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلي ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك . فأعتى الله الأعداء من عتا على الله في حرمه ، أو قتل غير

(١) سورة محمد الآية رقم : ١٣ .

قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية ، فأنزل الله جل ثناؤه ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ وقال جل ثناؤه : أخرجتك ، فأخرج الخبر عن القرية ، فلذلك أنث ثم قال أهلكناهم ، لأن المعنى في قوله أخرجتك ، ما وصفت من أنه أريد به أهل القرية ، فأخرج الخبر مرة على اللفظ ، ومرة على المعنى .

وقال القرطبي : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ ﴾ معناه وكم من أهل قرية ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ ﴾ أي أخرجك أهلها . ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس : لما خرج النبي ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأنت أحب البلاد إلي ولولا المشركون أهلك أخرجوني لما خرجت ، فنزلت الآية .

وقال ابن كثير : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ ﴾ يعني مكة ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وهو سيّد الرسل وخاتم الأنبياء .

قلت : يتبين من سياق الآية الكريمة ومن أقوال المفسرين في تفسيرها : أن المخاطب بهذه الآية النبي محمد ﷺ وأن المقصود بالقرية (مكة) البلد الحرام .

القرى : بضم القاف المثناة وآخره ألف مقصور ، جمع قرية : قيل هي مكة وما حولها ، وقيل غير ذلك .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿ ١٧ ﴾ أَوَإِنِ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿ ١٨ ﴾

قال ابن جرير : ويقول تعالى ذكره : أفأمن ، يا محمد ، هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ، ويجحدون آياته ، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش ، كما استدرج الذين قصّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم ، فإنّ مكر الله لا يأمنه- يقول : لا يأمن من ذلك أن يكون استدراجا ، مع مقامهم على كفرهم ، وإصرارهم على معصيتهم ﴿ إِلَّا أَلْقَوْهُمُ الْخَسِرُونَ ﴾ وهم الهالكون .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ﴾ يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها . من قرئت الماء إذا جمعته . ﴿ ءَامِنُوا ﴾ أي صدقوا . ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ أي الشرك ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعني المطر والنبات . وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم . إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرا لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿ ١٠٠ ﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ . وعن هود ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ فوعدهم المطر والخصب على التخصيص . يدل عليه

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ .

﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي كذبوا الرسل . والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٧) أو أمن أهل القرى أن يأتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف . نظيره : (أفحكم الجاهلية) والمراد بالقرى مكة وما حولها ، لأنهم كذبوا محمداً ﷺ . وقيل : هو عام في جميع القرى .

قال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض ، قال تعالى ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ، ثم قال تعالى مخوفاً ومحدّثاً من مخالفة أوامره والتجري على زواجه ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ أي الكافرة ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا ونكالنا ﴿ بَيِّنًا ﴾ أي ليلاً ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٧) أو أمن أهل القرى أن يأتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أي في حال شغلهم وغفلتهم ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ﴾ التي أرسلنا إليها رسلنا آمنوا بالرسل المرسلين إليهم ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ ما صمموا عليه من الكفر ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي يسرنا لهم خير السماء والأرض .
وقيل : المراد بخير السماء : المطر ، وخير الأرض النبات .

والمراد : لو أن أهل القرى أين كانوا وفي أي بلاد سكنوا آمنوا واتقوا إلى آخر الآية ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا ﴾ بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب بسبب ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الذنوب الموجبة لعذابهم ، والاستفهام في ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وأهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله ، والفاء للعطف .

وقيل : المراد بالقرى مكة وما حولها لتكذيبهم النبي ﷺ ، والحمل على العموم أولى .

قلت : تبين من أقوال المفسرين أن المراد بالقرى مكة وما حولها وقيل : أهل القرى هم أهل القرى التي قص الله أخبارهم فيما قبل من الآيات فيقتضي ذلك العموم ، وهو اختيار الشوكاني ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ١٠١ .

قال الشوكاني : قوله : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى ﴾ أي التي أهلكناها وهي قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب المتقدم ذكرها - أي في السورة - ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نتلوا عليك ﴿ مِنْ أَنْبَاءِهَا ﴾ أي من أخبارها وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ وآله وللمؤمنين .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى ﴾ أي هذه القرى التي أهلكناها ، وهي قرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب ﴿ نَقُصُّ ﴾ أي نتلوا . ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ﴾ أي من أخبارها .

وهي تسليّة للنبي ﷺ وللمسلمين ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أي فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم . قاله مجاهد . نظيره ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ﴾ وقال ابن عباس والربيع . كان في علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسول . ﴿ بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرها لا طوعا .

وقال ابن كثير في تفسير الآية : لما قصّ الله تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ﴾ أي يا محمد من أخبارها ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج على صدقهم فيما أخبروا به .

قلت : هذا خلاصة ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة التي أشار الله فيها إلى أخبار الأمم التي ذكرها في الآيات قبلها ، وقد قص الله من أخبارهم على نبيه محمد ﷺ تسليية له تجاه ما لقيه من قومه من التكذيب برسالته والعتو عن الانقياد على ما دعاهم إليه .

القرى : بضم القاف المثناة ، جمع قرية ، كالذي قبله : والمقصود به قرى عاد و ثمود وأصحاب الأيكة وغيرهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وتلك القرى من عاد و ثمود وأصحاب الأيكة أهلكناهم لما ظلموا ، فكفروا بالله وآياته ، ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ يعني ميقاتا وأجلا ، حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به ، يقول : فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدا موعدا ، إذا جاءهم ذلك الموعد أهلكناهم ، سننتنا في الذين خلوا من قبلهم من ضربائهم .

وروى بسنده عن مجاهد ، قوله ﴿ لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ قال : أجلا . وقال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية ، أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي جعلناه إلى مدة

معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعز علينا منهم ، فخافوا عذابي ونذر .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي وتلك القرى التي قصصنا عليك نبأهم نحو قرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكتناهم لما ظلموا وكفروا . ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا ﴾ أي وقتا معلوما لم تعده .

وقال الشوكاني : وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى ﴾ أي قرى عاد وثمود وأمثالهم ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي أهل القرى أهلكتناهم ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ أي وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا ﴾ أي وقتا معينًا .

قلت : هذا ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة ، ولم يقع فيه اختلاف بينهم ، بل إن أقوالهم متفقة على تعريف أهل القرى التي قص الله خبرهم في هذه الآية الكريمة .

القرى المباركة : جمع قرية ، موصوفة بالبركة : المقصود به الشام .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظُهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (١) .

(١) سورة سبأ الآية رقم : ١٨ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبرا عن نعمته التي كان أنعمها على هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم : وجعلنا بين بلدهم وبين القرى التي باركنا فيها وهي الشام ، قرى ظاهرة .

وروى بسنده عن مجاهد قوله : ﴿ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : الشام .

وقيل : عنى بالقرى التي بورك فيها بيت المقدس .
وروى بسنده عن ابن عباس ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَةَ ﴾ قال : الأرض التي باركنا فيها : هي الأرض المقدسة ، وقوله ﴿ قُرَى ظَهْرَةَ ﴾ يعني قرى متصلة ، وهي قرى عربية .

وروى بسنده عن الحسن في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَةَ ﴾ قال : قرى متواصلة ، قال : كان أحدهم يغدو فيقيل في قرية ، ويروح فيأوي إلى أخرى . وكانت المرأة تضع زمبيلها على رأسها ، ثم تمتهن بمغزلها ، فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ من كل الثمار .

وبسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ قُرَى ظَهْرَةَ ﴾ يعني قرى عربية بين المدينة والشام .

وبسنده عن الضحّاك ، يقول في قوله : ﴿ قُرَى ظَهْرَةَ ﴾ يعني : قرى عربية ، وهي بين المدينة والشام .

قال ابن جرير : وقوله ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ يقول تعالى ذكره : وجعلنا بين قراهم والقرى التي باركنا فيها سيرا مقدرا من

منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ، لا ينزلون إلا في قرية ، ولا يغدون إلا في قرية .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظُهْرَةً ﴾ قال الحسن : يعني بين اليمن والشام ، والقرى التي بورك فيها : الشام والأردن وفلسطين . والبركة : قيل : إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية ، بورك فيها بالشجر والثمر والماء . ويحتمل أن يكون ﴿ بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ بكثرة العدد ﴿ قُرًى ظُهْرَةً ﴾ قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام . وقال قتادة : معنى ظاهرة : متصلة على طريق ، يغدون فيقبلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية ، وقيل : كان على كل ميل قرية بسوق ، وهو سبب أمن الطريق .

وقال المبرد : وقيل : إنما قيل لها ﴿ ظُهْرَةً ﴾ لظهورها ، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى ، فكانت قرى ظاهرة أي معروفة ، يقال : هذا أمر ظاهر أي معروف ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أي جعلنا السَّيْر بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيرا مقدرا من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ، أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيـل في قرية والمبيت في قرية أخرى .

وقال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال وهب بن منبه هي قرى بصنعاء ، وكذا قال أبو مالك ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبـير ومالك عن زيد بن أسلم وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد وغيرهم : يعني قرى الشام ، يعنون أنهم كانوا يسـيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ﴿ قُرًى ظُهْرَةً ﴾ أي بيـنة واضحة يعرفها المسافرون يقبلون

في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ هذا معطوف على قوله - لقد كان لسبأ أي وكان من قصبتهم : أنا جعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها بالماء والشجر ، وهي قرى الشام ﴿ قُرَى ظَهْرَةَ ﴾ أي متواصلة ، وكان متجرهم من أرضهم التي هي مأرب إلى الشام ، وكانوا يببتون بقرية ويقلون بأخرى حتى يرجعوا ، وكانوا لا يحتاجون إلى زاد يحملونه من أرضهم إلى الشام . قال الحسن : هذه القرى هي بين اليمن والشام ، وقيل : إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية ، وقيل : هي المدينة والشام .

قلت : يتبين مما تقدم من أقوال المفسرين : أن القرى التي بارك الله فيها هي بلاد الشام ، وأن القرى الظاهرة : هي قرى منتظمة في الطريق بين بلاد اليمن وبلاد الشام .

القرى : بضم القاف المثناة ، كالذي قبله : جمع قرية ؛ والمقصود به : القرى التي أهلك الله أهلها ، كعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الأحقاف الآية رقم : ٢٧ .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَى ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزّة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرّون بها أيضا .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لكفار قريش محدّثهم بأسه وسطوته ، أن يحلّ بهم على كفرهم ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ﴾ أيها القوم من القرى ما حول قريبتكم ، كحجر ثمود ، وأرض سدوم ، ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثلوات ، وخرّبنا ديارها فجعلناها خاوية على عروشها .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَى ﴾ يريد حجر ثمود ، وقرى لوط ونحوها ، ممّا كان يجاور بلاد الحجاز وكانت أخبارهم متواترة عندهم . ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ يعني الحجج والدلالات وأنواع البينات والعظات ، أي بيّناها لأهل تلك القرى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلم يرجعوا .

وقيل : أي صرّفنا آيات القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَى ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بما حولهم من القرى : قرى ثمود ، وقرى لوط ونحوهما ممّا كان مجاوراً لبلاد الحجاز ،

وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي بينا الحجج ونوعناها لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا ، ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر فقال : ﴿ فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ﴾ أي فهلاً نصرهم آلهتهم التي تقرّبوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا- هؤلاء شفعاؤنا عند الله ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم .

وقال عبد الرحمن بن سعدي : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ ٦٧ ﴾ فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذّبين الذين هم حول ديارهم ، بل كثير منهم في جزيرة العرب ، كعاد وثمود ونحوهم ، وأن الله تعالى صرف لهم الآيات أي نوعها من كلّ وجه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب ، فلما لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ، ولهذا قال هنا ﴿ فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ﴾ أي يتقرّبون إليهم ويتألّهونهم لرجاء نفعهم ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ فلم يجيبوهم ولا دفعوا عنهم ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الكذب الذي يمتّون به أنفسهم حيث يزعمون أنهم على الحق .

قلت : اتفقت أقوال المفسّرين على التعريف بهذه القرى التي أشار الله إليها في الآية الكريمة ، كما هو متقدّم من أقوالهم .

القرى : بضم القاف المثناة - كالذي قبله - جمع قرية : هي قريظة والنضير ، وهما بالمدينة ، وفدك وخيبر ، وقرى عرينة وينبع .

قال الله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ^(١) .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ قال ابن عباس : هي قريظة والنضير ، وهما بالمدينة ، وفدك وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخيبر ، وقرى عرينة وينبع جعلها الله لرسوله ، ويُن في ذلك المال الذي خصّه بالرسول عليه السلام سهمانا لغير الرسول نظرا منه لعباده .

وقال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير .

روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو رضي الله عنه قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ ، خالصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته .

وقال الشوكاني : قال الله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ هذا بيان لمصارف الضيئ بعد بيان أنه لرسول الله

(١) سورة الحشر الآية رقم : ٧ .

خاصة . والتكرير لقصد التقرير والتأكيد . ووضع أهل القرى موضع قوله ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم .

بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحا ، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب .

قيل : والمراد بالقرى بنو النضير وفدك وقريظة وخيبر .

وقال الشوكاني : وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير ، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري ، فقال : هم بنو قريظة ، وهو غلط فإن بني قريظة ما حشروا ، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة .

قلت : هذا خلاصة ما قاله المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة ولم يقع فيه اختلاف بينهم .

وقد استوفيت الحديث عن أحداث هذه القرى كاملاً في كتابي (معجم أمكنة البخاري) .

القريتان : بفتح القاف المثناة وسكون الراء المهملة وياء مثناة مفتوحة بعدها تاء مثناة ثم ألف وآخره نون ، مثني قرية : مكة والطائف .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الزخرف الآية رقم : ٣١ .

قال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أي هلاً كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد وقد ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي .

وقال مالك عن زيد بن أسلم والضحاك والسدي : يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عروة الثقفي .

وعن مجاهد يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي ، وعنه أيضاً : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما جبّاراً من جبابرة قريش . وعنه رضي الله تعالى عنه أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وعن مجاهد يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف . وقال السدي : عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي .

والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان . قال تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض : ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أي ليس الأمر مردوداً إليهم بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وقال القرطبي : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ أي هلاً نزل ﴿ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أي من إحدى القريتين ، أو على أحد رجلين من القريتين .

القريتان : مكة والطائف ، والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عمّ أبي جهل ، والذي من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي ، قاله قتادة . وقيل : عمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ، وهو قول مجاهد .

وعن ابن عباس: أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي . وقال السدي : كنانة بن عبد بن عمرو . وروى أن الوليد بن المغيرة- وكان يسمى ربحانة قريش- كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل علي أو علي أبي مسعود ، فقال تعالى : ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ يعني النبوة فيضعونها حيث شاؤوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي أفقرنا قوماً وأغنينا قوماً ، فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبوة إليهم . قال قتادة : تلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عي اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتر عليه . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أي فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرؤوس ، قاله مقاتل .

وقيل : بالحرية والرق ، فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل : بالغنى والفقر ، فبعضهم غني وبعضهم فقير . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال ابن جرير : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . يقول تعالى ذكره : وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله : هذا سحر ، فإن كان حقاً فهلاً نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف ؟

واختلف في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم ، فقالوا : هلاً نزل عليه هذا القرآن ، فقال بعضهم هلاً نزل على الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة ، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف ؟

وروى بسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال : يعني بالعظيم الوليد بن المغيرة القرشي ، أو حبيب بن عمير الثقفي ، وبالقريتين مكة والطائف .

وروى بسنده عن مجاهد ﴿ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال : عتبة بن ربيعة من أهل مكة ، وابن عبد ياليل الثقفي من الطائف .

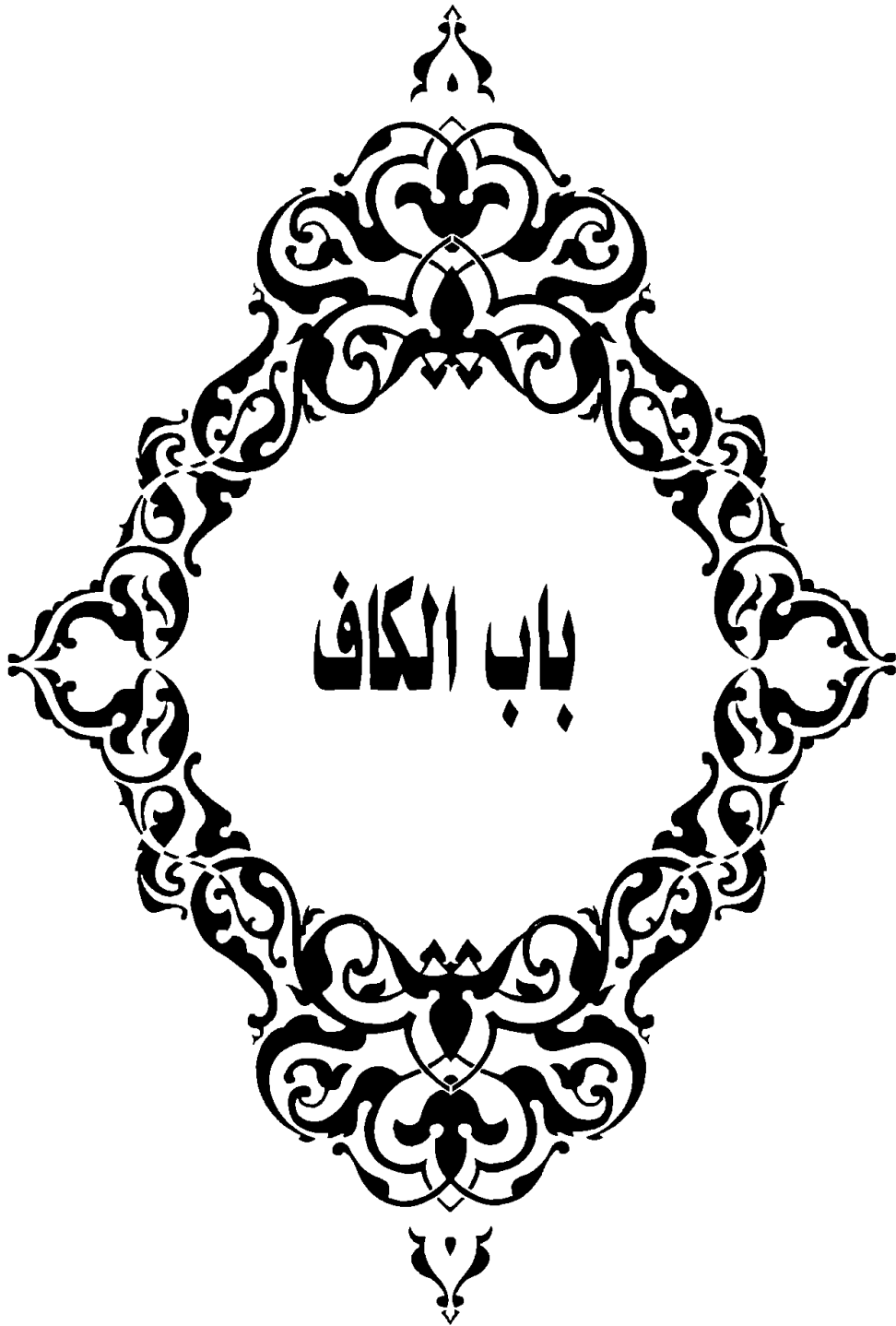
وروى بسنده عن قتادة ، في قوله : ﴿ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال : الرجل الوليد بن المغيرة ، قال : لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل عليّ هذا ، أو على ابن مسعود الثقفي ، والقريتان الطائف ومكة ، وابن مسعود الثقفي من الطائف اسمه عروة بن مسعود .

وروى بسنده عن قتادة أيضاً قوله : ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ والقريتان : مكة والطائف ، قال : قد قال ذلك مشركوا قريش ، قال : بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادّعته ، وقالوا : هو منا ، فكنا نحدث أن الرجلين : الوليد بن المغيرة ، وعروة الثقفي بن مسعود ، يقولون : هلاً أنزل على أحد هذين الرجلين .

وروى بسنده عن السدي ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال : الوليد بن المغيرة القرشي ، وكنانة بن عبد بن عمرو بن عمير ، عظيم أهل الطائف .

وأولى الأقوال في ذلك الصواب أن يقال كما قال جل ثناؤه
مخبراً عن هؤلاء المشركين ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى
رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ إذ كان جائزاً أن يكون بعض هؤلاء ، ولم
يضع الله تبارك وتعالى لنا الدلالة على الذين عنوا منهم في كتابه ،
ولا على لسان رسوله ﷺ ، والاختلاف فيه موجود على ما بيّنت .

قلت : مما تقدم يتبين لنا الاختلاف بين المفسرين في الرجل
العظيم الذي اراده المشركون في قولهم ، ولم ينته المفسرون إلى اتفاق
نهائي في هذا الموضوع ، وقد قال ابن جرير القول الأولي في ذلك ،
والله أعلم .



الكهف : بكاف مفتوحة وهاء ساكنة وآخره فاء موحدة : المقصود به : الكهف الذي ذكر في الآية الكريمة الآتية :

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۖ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا ، فإن ما خلقت من السماوات والأرض ، وما فيهن من العجائب أعجب من أمر أصحاب الكهف ، وحجتي بكل ذلك ثابتة على هؤلاء المشركين من قومك وغيرهم من سائر عبادي .

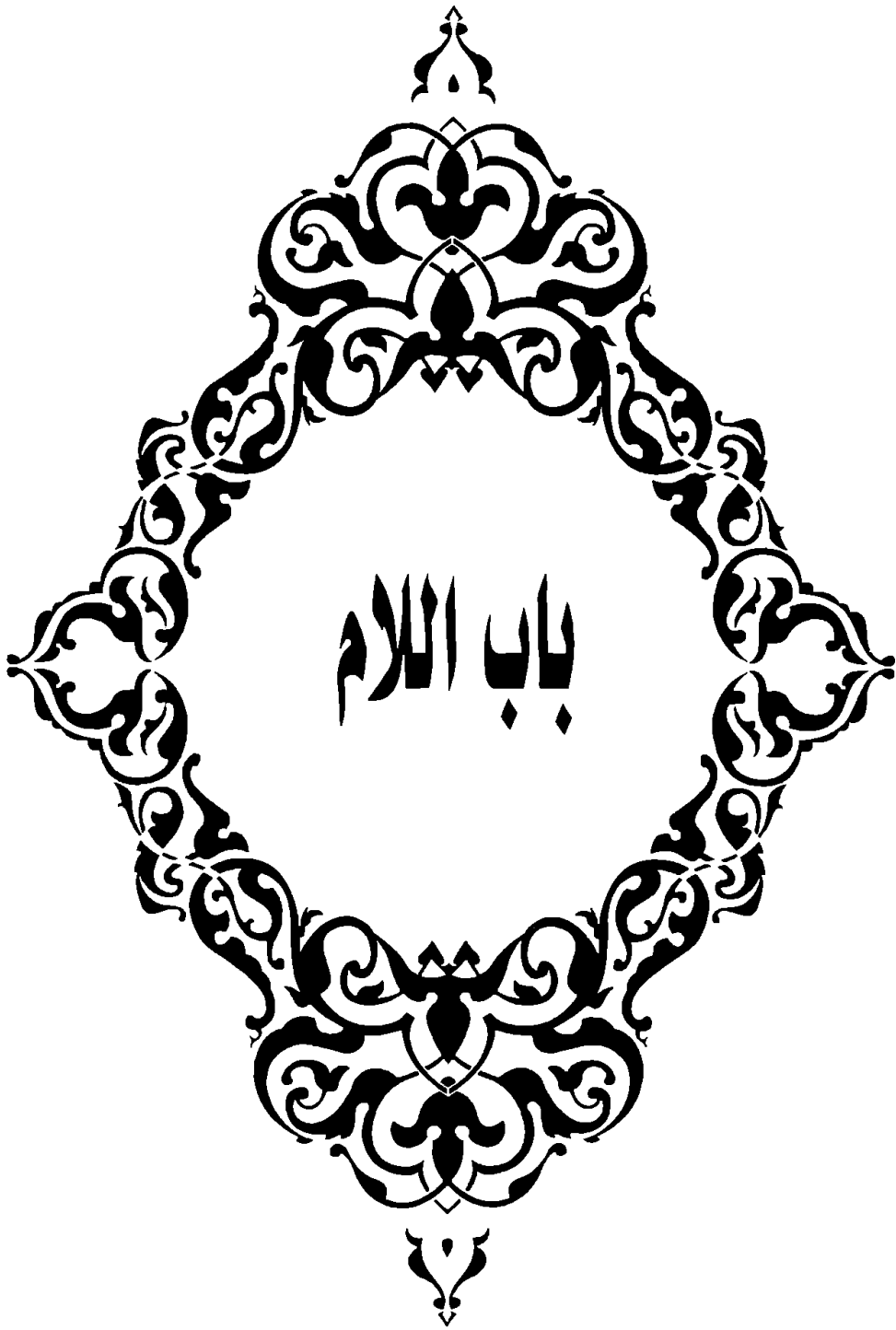
وأما الكهف ، فإنه كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قص الله شأنهم في هذه السورة .

وروى بسنده عن الضحاك يقول : أما الكهف فهو غار الوادي ، والرقيم اسم للوادي .

وروى بسنده عن شعيب الجبلي أن اسم جبل الكهف بنجالوس ، واسم الكهف حيزم ، والكلب خمران .

وقال ابن كثير : وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون .

قلت : اختلف المفسرون في أمر أصحاب الكهف والرقيم - وفي تعريف الرقيم ، وموقعه ، وكذلك في أصحاب الكهف اختلافا كثيرا ، وقد استوفيت ما يخص الحديث عن الكهف والرقيم في رسم ﴿الرَّقِيمِ﴾ بما فيه كفاية إن شاء الله .



الَّلَّتْ : بلام مثقلة بعدها ألف وآخره تاء : وهو صنم لثقيف .
وكان في الطائف .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ آلَ اللَّتِّ وَالْعُزَّىٰ ﴾^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : أفرايتم أيها المشركون اللات وهي من الله ألحقت فيه التاء فأنثت ، فكذلك سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه ، فقالوا : من الله اللات ، ومن العزيز العزى وزعموا أنهن بنات الله ، تعالى الله عما يقولون وافترؤا .

واختلف القرّاء في قراءة قوله : اللات ، فقرأته عامّة قرّاء الأنصار بتخفيف التاء على المعنى الذي وصفت ، وذكر أن اللات بيت كان بنخلة تعبدّه قريش ، وقال بعضهم : كان بالطائف .

وروى بسنده عن قتادة : أما اللات فكانت بالطائف .
ويسنده عن ابن زيد قال : اللات بيت كان بنخلة تعبدّه قريش .
وقرأ ذلك ابن عباس ومجاهد وأبو صالح ﴿ آلَ اللَّتِّ ﴾ بتشديد التاء وجعلوه صفة للوثن الذي عبدوه ، وقالوا : كان رجلا يلتّ السوق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه .

وروى بسنده عن مجاهد قال : كان يلتّ السوق للحجاج فعكف على قبره .

وروى بسنده ، عن أبي صالح قال : آلَ اللَّتِّ : الذي كان يقوم على ألتهم يلتّ لهم السوق وكان بالطائف .

(١) سورة النجم الآية ١٩ .

وأولى القرائين بالصواب عندنا في ذلك قراءة من قرأه
بتخفيف التاء على المعنى الذي وصفت لقارئه كذلك لإجماع
الحجة من قرأه الأنصار عليه . هـ

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله
تعالى : ﴿ أَلَلَّتْ وَالْعُرَى ﴾ كان اللات رجلا يلت سويق الحاج .

وروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله
ﷺ من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ومن
قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق .

وقال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ أَلَلَّتْ وَالْعُرَى ﴾ كانت
اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ،
وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها .

وقال القرطبي : كانت اللات لثقيف بالطائف وهي أحدث من
مناة وكانت صخرة مربعة وكان سدنتها من ثقيف ، وكانوا قد بنوا
عليها بناء فكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب
تسمى زيد اللات وتيم اللات فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف ،
فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبه فهدمها وحرّقها بالنار .

وقال الكلبي : كان رجلا من ثقيف يقال له صرمة بن غنم ،
وقيل : إنه عامر بن ضرب العدواني . قال الشاعر :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصركم من ليس ينتصر

قال القرطبي : والقراءة الصحيحة ﴿ أَلَلَّتْ ﴾ بالتخفيف
اسم صنم . هـ

قال ابن هشام في حديثه عن إسلام ثقيف : وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ، وهي اللات ، لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى .

وانما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وضراريهم ، ويكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها .

قال ابن إسحاق : بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، في هدم الطاغية فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال أدخل أنت على قومك وأقام أبو سفيان بماله بذني الهدم ، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول ، وقام قومه دونه بنو معتب ، خشية أن يرمى أو يصاب ، فخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها ويقلن :

لتبكين دَفَاعاً أسلمها الرضّاع
لم يحسنوا المصاع

وقال السهيلي : وأقبلت عجائز ثقيف تبكي حولها ، وتقول : أسلمها الرضّاع ، إذ كرهوا المصاع . أي أسلمها اللثام حين كرهوا القتال^(١) .

(١) سميت (دفاع) لأنها كانت تدفع عنهم فيما زعموا ، والرضاع اللثام ، والمصاع المضاربة بالسيوف .

وقال ياقوت : اللات : اسم صنم كانت تعبدّه ثقيف ، وهو صخرة كان يجلس عليها رجل كان يبيع السمن واللبن للحجاج في الزمن الأول ... وكان اللات رجلا من ثقيف فلما مات قال لهم عمرو بن لحيّ : لم يمت ولكن دخل في الصخرة ، ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنيانا يسمّى باللات .

وقيل : كانت صخرة بيضاء مربعة بنت عليها ثقيف بنية ، وأمرهم النبي ﷺ بهدمها عند إسلام ثقيف ، وكان أبو سفيان بن حرب أحد من وكل إليه فهدمها .

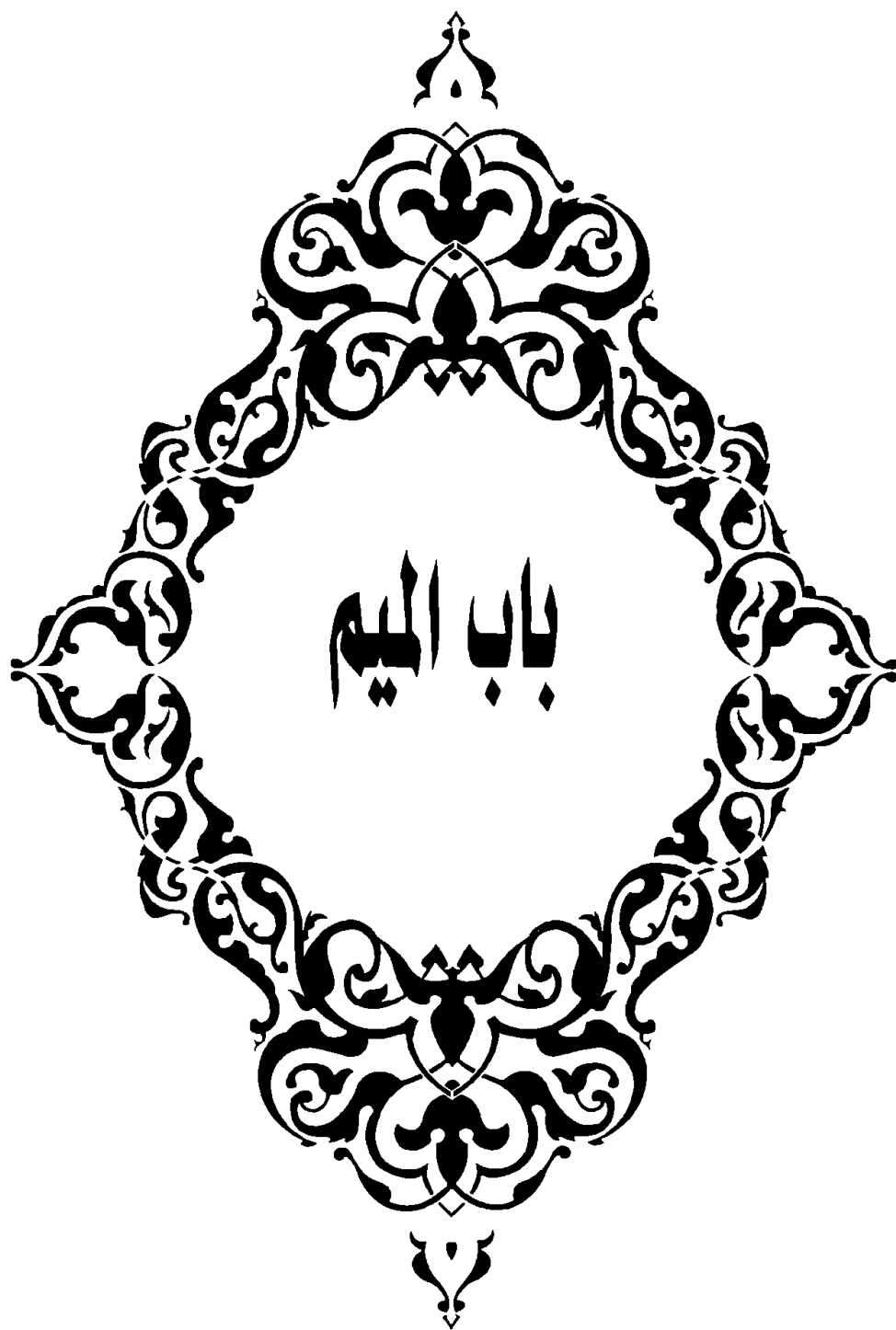
وقال شدّاد بن عارض الجشمي حين هدمت وحرّقت ينهى ثقيفا من العود إليها والغضب لها :

لا تنصروا اللات إن الله يهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر؟
إن التي حرّقت بالنار واشتعلت ولم يقاتل لدى أحجارها هدرُوا
إن الرسول متى ينزل بساحتكم يظعن وليس لها من أهلها بشر

وقد ذكر ياقوت في حديثه عن اللات أقوالا وأشعارا لا يتسع مقامنا هذا لذكرها والتعليق عليها .

قال ابن حبيب : وكانت تلبية من نسك ﴿ أَلَلَّتْ ﴾ لبّيك اللهم لبّيك ، لبّيك كفى ببيتنا بنية ، ليس بمهجور ولا بليّة ، ولكنه من تربة زكيّة ، وأريابه من صالح البريّة .

قلت : وبما تقدّم يتبيّن أن اللات كانت صنما لثقيف ، ومن والاها من القبائل ، وأنه كان في الطائف ، وأن النبي ﷺ بعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدمه وإحراقه بعد إسلام ثقيف ، وأن المغيرة بن شعبة هو الذي باشر هدمه بالمعول وإحراقه .



المؤتفكة : بميم مضمومة وهمزة ساكنة وتاء مثناة مفتوحة بعدها فاء موحدة مكسورة وكاف مفتوحة وآخره هاء ، والمقصود به : قري قوم لوط .

قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ۖ ﴾ ^(١) .
وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ قِرْعُونَ وَمَنْ قَبْلَهُ ۚ وَالْمُؤْتَفِكَةُ بِالْخَاطِئَةِ ۖ فَعَصَوُا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ۖ ﴾ ^(٢) .

قال ابن جرير : قوله ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ ﴾ يقول تعالى : والمخسوف بها المقلوب أعلاها أسفلها ، وهي قرية سدوم قوم لوط أهوى الله ، فأمر جبريل ، فرفعها من الأرض السابعة بجناحه ثم أهواها مقلوبة .

وروى بسنده عن مجاهد في قول الله ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ ﴾ قال : أهواها جبريل ، قال : رفعها إلى السماء ثم أهواها .

وبسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ ﴾ قال قرية لوط .
وبسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ ﴾ قال : قرية قوم لوط أهواها من السماء ثم أتبعها ذلك الصخر ، اقتلعت من الأرض ، ثم أهوى بها في السماء ثم قلبت .

قال ابن جرير : قوله ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ۖ ﴾ يقول تعالى ذكره : فغشى الله المؤتفكة من الحجارة المنضودة المسمومة ما غشاها فأمطرها إياه من سجيل .

(١) سورة النجم الآية رقم : ٥٣ - ٥٤ .

(٢) سورة الحاقة الآية رقم : ٩ - ١٠ .

وقال : قوله تعالى ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةُ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ يقول والقرى التي اتتفتك بأهلها فصار عاليها سافلها ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ يعني بالخطيئة . وكانت خطيئتها : إتيانها الذكران في أدبارهم . وعن قتادة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةُ ﴾ هم قوم لوط اتتفتك بهم أرضهم .

وقال ابن كثير : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَى ﴾ يعني مدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال : ﴿ فَعَشَلَهَا مَا غَشَّى ﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .

قال القرطبي : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَى ﴾ يعني مدائن قوم لوط عليه السلام اتتفتك بهم ، أي انقلبت وصار عاليها سافلها ﴿ أَهْوَى ﴾ أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ، رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض . ﴿ فَعَشَلَهَا مَا غَشَّى ﴾ أي ألبسها ما ألبسها من الحجارة ، قال الله ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴾ .

قلت : اتفق المفسرون على أن المقصود بالمؤتفكة هي قرى قوم لوط التي أهلك الله فيها قومه ، وقد استوفيت الحديث عن قرى قوم لوط في رسم (القرية) في هذا الكتاب بما فيه كفاية ، إن شاء الله .

وتحدثت المسعودي عن المؤتفكة : وحدد موقعها تحديدا دقيقا ، فقال : أصحاب المؤتفكة : أرسل الله لوطا إلى المدائن الخمس ، وهي سدوم ، وعمورا ، وأدمونا ، وصاعورا ، وصابورا ، وإن قوم لوط هم أصحاب المؤتفكة ، وهذا الاسم مشتق من الإفك ، وهو الكذب على رأى من ذهب إلى الاشتقاق ، وقد ذكرهم الله في كتابه بقوله :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ وهذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز مما يلي الأردن وبلاد فلسطين ، إلا أن ذلك في حيز الشام ، وهي مبقاة إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة خرابا لا أحد بها ، والحجارة المسمومة موجودة فيها يراها الناس السفار وسوداء براقية ، فأقام فيهم لوط بضعا وعشرين سنة يدعوهم إلى الله فلم يؤمنوا ، فأخذهم العذاب على حسب ما أخبر الله من شأنهم .

مبوءاً صدق : بضم الميم وفتح الباء الموحدة وتشديد الواو المفتوحة وآخره همزة ، المقصود به : بيت المقدس أو بلاد الشام أو مصر .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءاً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل صدق . قيل : عنى بذلك الشام وبيت المقدس ، وقيل : عنى به الشام ومصر .

وروى بسنده عن الضحاك : ﴿ مَبُوءاً صِدْقٍ ﴾ ، قال : منازل صدق ، مصر والشام .

وبسنده عن قتادة : ﴿ مَبُوءاً صِدْقٍ ﴾ ، قال : بوأهم الله الشام وبيت المقدس وقوله : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ، يقول : ورزقنا بني إسرائي من حلال الرزق ، وهو (الطيب) .

وقوله : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يقول جل ثناؤه : فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل ، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين . وذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد النبي ﷺ مجمعين على نبوة محمد والإقرار به وبمبعثه ، غير مختلفين فيه بالنعمة الذي كانوا يجدونه مكتوباً عندهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به بعضهم وأمن به بعضهم ، والمؤمنون به منهم كانوا عدداً قليلاً . فذلت قوله : فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الذي كانوا يعلمونه نبياً لله .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأً صَدَقٍ ﴾ أي منزل صدق محمود مختار ، يعني مصر . وقيل : الأردن وفلسطين . وقال الضحاك : هي مصر والشام . ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي من الثمار وغيرها .

وقال ابن عباس : يعني قريظة والنضير وأهل عصر النبي ﷺ من بني إسرائيل ، فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ وينتظرون خروجه ، ثم لما خرج حسدوه ، ولهذا قال : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ أي في أمر محمد ﷺ ، ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أي القرآن ومحمد ﷺ .

والعلم بمعنى العلوم ، لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه ، قاله ابن جرير الطبري . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم بينهم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا ، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأً صَدَقٍ ﴾ يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية

والدنيوية وقوله ﴿مُبَوَّأٌ صِدْقٍ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه ، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ .

وقال الشوكاني : قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل ، ومعنى بَوَّأْنَا : أسكنَّا ، يقال : بَوَّأت زيدا منزلا : أسكنته فيه ، والمبَوَّأ اسم مكان أو مصدر ، وإضافته إلى الصَّدَق على ما جرت عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئا أضافوا إلى الصَّدَق ، والمراد به ههنا المنزل المحمود المختار ، قيل هو أرض مصر ، وقيل الأردن وفلسطين ، وقيل الشام ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي المستلذات من الرزق ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر ربهم وتشعبوا فيه شعبا بعدما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي لم يقع منهم اختلاف في الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها ، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوة محمد ﷺ وقيل المعنى : إنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم ، وهو القرآن النازل على نبينا ﷺ ، فاختلفوا في نعتة وصفته ، وآمن به من آمن منهم

وكفر به من كفر . فيكون المراد بالمختلفين على القول الأول هم اليهود بعد أن نزلت عليهم التوراة وعلموا بها ، وعلى القول الثاني هم اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، والمحق بعمله بالحق ، والمبطل بعمله بالباطل .

قلت : اتفق المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة ولم يجر بينهم اختلاف في تحديد المبدأ ، وفي فئة اليهود المقصودين في هذه الآية ، كما هو مبين في تفسيرهم لهذه الآية فيما تقدم والله أعلم .

مجمع البحرين : بميم مفتوحة وجيم معجمة ساكنة بعدها ميم مفتوحة وآخره عين مهملة ، والبحرين مثني بحر أضيف إليه : موضع اختلف العلماء في تحديده .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أْبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ ^(١) .

وروى البخاري بسنده عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : قام موسى النبي ﷺ خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا أعلم فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك .

قال ابن كثير : قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد بن كعب القرظي : مجمع البحرين عند طنجة ، يعني في أقصى بلاد المغرب .

وقال القرطبي : ﴿ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي ملتقاهما ، قال قتادة : وهو بحر فارس والروم ، وقال مجاهد ، قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان ، فالركن الذي لا اجتماع البحرين مما يلي بر الشام هو مجمع البحرين على هذا القول .

وقيل : هما بحر الأردن وبحر القلزم ، وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ، قاله محمد بن كعب ، ويروى عن أبي بن كعب : أنه بأفريقية .

وقال السدي : الكر والرّس بأرمينية ، وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط ، وحكاه النقاش ، وهذا مما يذكر كثيرا .

وقال فرقة : إنّما هما موسى والخضر ، وهذا قول ضعيف . وحكى عن ابن عباس ولا يصحّ قال : الأمر بين من الأحاديث أنه إنّما وسم له بحر ما .

وقال ابن جرير : وقيل : عني بقوله ﴿ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ ﴾ اجتماع بحر فارس والروم ، والمجمع : مصدر من قولهم : جمع يجمع .

وروى بسنده عن قتادة وقوله ﴿ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ والبحران : بحر فارس وبحر الروم . وبحر الروم مما يلي المغرب ، وبحر فارس مما يلي المشرق .

وروى بسنده عن مجاهد ﴿ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ ﴾ قال : بحر الروم ، وبحر فارس أحدهما قبل المشرق والآخر قبل المغرب .

ويسنده ، عن محمد بن كعب في قوله ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ قال طنجة .

وقال ابن سعدي : ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي لا أزال مسافرا وإن طالت عليّ الشقة ولحققتني المشقة حتى أصل إلى مجمع البحرين ، وهو المكان الذي أوحى الله إليه أنك ستجد فيه عبدا من عباد الله العالمين ، عنده من العلم ما ليس عندك ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أي مسافة طويلة .

المعنى أن الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاة هذه المقالة ، وهذا عزم منه جازم ، فلذلك أمضاه ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾ أي هو وفتاه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان ، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فثمّ ذلك العبد الذي قصدته ، فاتخذ ذلك الحوت سبيله أي طريقه في البحر سرّيا ، وهذا من الآيات .

قال المفسّرون : إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر فانسرب بإذن الله في البحر وصار مع حيواناته حيا ، فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين قال موسى لفتاه ﴿ ءَاتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ أي لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط ، وألا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لن يجدا من التعب فيه ، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه .

قلت : فيما قاله المفسّرون في تحديد موقع مجمع البحرين اختلاف كبير بينهم غير أن بعض أقوالهم تشير إلى أن مجمع

البحرين : هو ملتقى نهر الكرّ ونهر الرّس بأرمينية ، قاله السّدّي ، وقال ابن عطية : هو من وراء أذربيجان ، وملتقى الرّس والكرّ وراء أذربيجان بينه وبين أرمينية ، وهذا ما اتجه إليه المؤرخون .

قال ابن الفقيه : وحدّ أذربيجان إلى الرس والكرّ بأرمينية ، ومخرج الرّس من قاليقلاء ، ويمرّ بأرّان فيصبّ فيه نهر أرّان ، ثم يمرّ بورثان ، ويمرّ بالمجمع فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، ويمرّان جميعاً فيصبّان في بحر جرجان .

وقال الشيخ الربوة : ومدينة أرميّة ، وبها كان الجدار الذي أقامة موسى بن عمران مع العبد الصالح الذي في صحبه . ومدينة موقان وتسمّى موغان وبها نسي نبينا موسى الحوت وهو ببحر الخزر ، ويقال إنها من بناء موقان بن كاشح بن يافث بن نوح .

وقال ابن خرداذبة : وفي قصص موسى عليه السلام ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ والصخرة صخرة شروان ، والبحر بحر جيلان ، والقرية قرية باجروان ﴿ حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ في قرية خيران . وخراج أرمينية أربعة آلاف درهم ، وقال : ومخرج الرّس نهر أرمينية من قاليقلا ، ويمرّ بأرّان ويصبّ فيه نهر أرّان ، ثم يمرّ بورثان حتى يبلغ المجمع وهو مجمع البحرين الذي ذكره الله جلّ وتقدّس ، فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، فإذا اجتمعا مرّاً حتى يصبّا في بحر جرجان .

وقال ياقوت : الرّس وادي أذربيجان ، وحدّ أذربيجان ما وراء الرّس ، ومخرج الرّس من قاليقلاء ، ويمرّ بأرّان ثم يمرّ بورثان ثم يمرّ بالمجمع هو والكرّ ، وبينهما مدينة البيلقان ويمرّ الكرّ والرّس جميعاً فيصبّان في بحر جرجان .

قلت : هذا ما قاله المؤرخون في تحديد موقع مجمع البحرين الذي التقى فيه موسى بالخضر عليهما السلام ، غير أننا لا نجد اتفاقاً بين العلماء على تحديد هذا المكان ، وإن كان الوضع الجغرافي لنهر الرّس ونهر الكرّ وملتقاهما ومصبتهما في بحر الخزر (قزوين) يكاد يوحى بأن هذا المكان هو المراد بالآية الكريمة .

وفهم من مدلول الآية الكريمة ﴿ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أن سفر موسى عليه السلام وعلامه كان سفراً طويلاً نائياً عن البلاد التي انطلق منها لسفره ، وأنه كان سفراً شاقاً .

هذا يؤيد قول بعض العلماء أن مجمع البحرين كان في منطقة قزوين والله علم ، وفي رسم (الرّس) مزيد من المعلومات عن هذا الموضع .

مديـن : بميم مفتوحة ودال مهملة ساكنة ، بعدها ياء مثناة مفتوحة ، وآخره نون موحدة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ۖ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ۖ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِم نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ۖ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ٨٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية رقم : ٨٨ .

(٣) سورة التوبة الآية رقم : ٧٠ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَلْقَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ ۖ ﴾ ^(١).

وقال تعالى : ﴿ كَانَ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا
بَعِدَتْ ثَمُودُ ۖ ﴾ ^(٢).

وقال تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ
قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ۖ ﴾ ^(٣).

وقال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ
لِلْكَافِرِينَ ۖ ﴾ ^(٤).

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن
يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۖ ﴾ ^(٥).

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
النَّاسِ يَسْقُونَ ۖ ﴾ ^(٦).

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ
ءَايَاتِنَا ۖ ﴾ ^(٧).

وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ ۖ ﴾ ^(٨).

- (١) سورة هود الآية رقم : ٨٤ .
- (٢) سورة هود الآية رقم : ٩٥ .
- (٣) سورة طه الآية رقم : ٤٠ .
- (٤) سورة الحج الآية رقم : ٤٤ .
- (٥) سورة القصص الآية رقم : ٢٢ .
- (٦) سورة القصص الآية رقم : ٢٣ .
- (٧) سورة القصص الآية رقم : ٤٥ .
- (٨) سورة العنكبوت الآية رقم : ٣٦ .

قال ابن كثير : يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبا من معان . بلادا تعرف بهم يقال لها : مدين ، فأرسل الله إليهم شعبيا وكان من أشرفهم نسبا .

وقال البخاري : قوله تعالى : وإلى مدين أخاهم شعبيا . إلى أهل مدين لأن مدين بلد .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ ﴾ قيل في مدين : اسم بلد وقطر ، وقيل : اسم قبيلة كما يقال : بكر وتميم ، وقيل : هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، فمن رأى أن مدين اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي ، ومن رآه اسما للقبيلة أو الأرض فهو أحرى ألا يصرفه ، قال المهدوي : ويروى أنه كان ابن بنت لوط . وقال مكي كان زوج بنت لوط .

واختلف في نسبه ، فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما : وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام .. وأمه ميكائيل بنت لوط .

قال ياقوت : مدين : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون ، قال أبو زيد : مدين على بحر قلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك ، وبها البئر التي مغطاة قد بنى عليها بيت وماء أهلها من عين تجري ، ومدين اسم القبيلة وهي مدينة قوم شعيب سميت بمدين بن إبراهيم عليه السلام .

وقال الحازمي : بين وادي القرى والشام ، وقيل : مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام على ست مراحل وبها استقى موسى ، عليه السلام ، لبنات شعيب وبها بئر قد بنى عليها بيت .

وقيل : مدين اسم القبيلة ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وقيل : مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية ، وعندها أيضا البئر والصخرة ، قال كثير :

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العقاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعاً وسجودا

وقال كثير أيضا :

يا أم خرزة ما رأينا مثلكم في المنجد ين ولا بغور الغائر
رهبان مدين لو رأوك تنزلوا والعصم في شعف الجبال الفادر

وقال ابن هرمة يمدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك :

ومعجب بمديح الشعر يمنعه من القبيح ثواب المدح والشفق
لأنت والمدح كالعذراء يعجبها مسّ الرجال ويشنى قلبها الفرق
لكن بمدين من مفضى سويمرة من لا يذم ولا يشنى له خلق
أهل المدائح تأتيه فتمدحه والمادحون إذا قالوا له صدقوا
يكاد بابك من جود ومن كرم من دون بؤابة للناس يندلق

وفي الروض المعطار : مدين : بالشام على ساحل بحر القلزم ، وهي أكبر من تبوك ، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ ، ويحكى أنها بئر مغطاة ، وسميت مدين بالقبيلة التي كان منها شعيب عليه السلام وفيها معاش ضيقة وتجارات كاسدة ومن مدين إلى أيلة خمس مراحل .

ومدين الذي سميت به البلدة هو مدين بن إبراهيم عليه السلام
وفي القرآن : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وقال بعضهم : لم
يكن شعيب عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وإنما هو من
ذرية بعض من آمن به ، وهم أصحاب الأيكة من ولد مدين بن إبراهيم
وسلط الله على قومه حراً شديداً أخذ بأنفاسهم ، ثم بعث الله سبحانه
فوجدوا لها برداً فلما صاروا تحتها جميعاً أرسلها عليهم ناراً فذلك
قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ فاحترقوا كما يحترق
الجراد في المقل ، وكانوا أهل كفر بالله وبخس في المكيال والميزان .

وزعم قوم أن أهل مدين بعث الله إليهم شعيباً من العرب العاربة
والأمم الدائرة وليسوا من ولد مدين بن إبراهيم .

ومدين في الطريق من مدينة الرسول ﷺ إلى مصر ، وهي بين
جبال شامخة متكائدة ، ويقرب مدين البئر التي استقى منها موسى
عليه السلام ، وقد بنى على أسها بيت من صخر فيه قناديل معلقة ،
وبها كهف شعيب كان يؤوى إليه غنمه وفي الجبال التي هناك بيوت
منقورة في صخر صم قد حفر في البيوت قبور ، وفي تلك القبور عظام
بالية كأمثال عظام الإبل ، يكون مقدار كل بيت عشرين ذراعاً أو
نحوها ولتلك البيوت روائح خبيثة لا يدخل الداخل فيها حتى يضع
يده على أنفه من شدة النتن ، يقال أنهم لما أخذهم عذاب يوم الظلة
دخلوا فيه فهلكوا ، ويقرب هذه البيوت تلال تراب عظيمة قيل إنها
كانت مواضعهم عامرة فخسف بها .

ومع يهود مدين كتاب يزعمون أن النبي ﷺ كتبه لهم وهم
يظهرونه للناس حتى الآن ، وهو في قطعة أديم قد اسودت لطول
الزمن عليها إلا أن خطه بين وفي آخره وكتبه علي بن أبي طالب ،
غير معرب ، وقال قوم أنه بخط معاوية بن أبي سفيان ولم يذكر علياً

وهو عند أهل قرية من ساحل مدين يقال لها مسمى ، ومن هناك لاتزال تسير والجبال تيامنك والبحر بيسارك حتى تفضى إلى أيلة .

قلت : ويبدو من أقوال العلماء أن مدين منزل قوم شعيب كانت واقعة في شمال الحجاز- بين المدينة والشام- ويحددها بعضهم بمحاذاة منطقة تبوك من الشمال على بحر القلزم وهذا هو أرجح الأقوال ، ويرى بعضهم أن مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية ، غير أن الأخبار لم تختلف في تحديدها في شمال غرب الجزيرة العربية .

وقال ابن جرير : عن ابن إسحاق من خبر قصة شعيب وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن . كانوا أهل بخس للناس في مكائيلهم وموازينهم مع كفرهم بالله ، وتكذيبهم نبيهم . وكان يدعوهم إلى الله وعبادته ، وترك ظلم الناس وبخسهم في مكائيلهم وموازينهم فقال نصحا لهم وكان صادقا : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ ﴾ .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة ، إذا ذكر شعيبا قال : ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه فيما يراد بهم فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم ، وعتوا على الله ، أخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم .

فبلغني أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلهاء ، لما رآها قال :

يا قوم ، إن شعيبا مرسل فذرنا	عنكم سميرا وعمران بن شداد
إنني أرى غيبة يا قوم قد طلعت	تدعو بصوت على صمانة الوادي
وانكم لن تروا فيها ضحاء غد	إلا الرقيم يمشي بين أنجاد

و (سمير) و (عمران) ، كاهنهم ، و (الرقيم) كلبهم .
وعن ابن إسحاق قال : فبلغني ، والله أعلم ، أن الله سلط عليهم
الحرّ حتى أنضجهم ثم أنشأ لهم الظلة كالسحابة السوداء فلما
رأوها ابتدروها يستغيثون ببردها مما هم فيه من الحرّ ، حتى إذا
دخلوا تحتها أطبقت عليهم ، فهلكوا جميعا ونجى الله شعيبا والذين
آمنوا معه برحمته .

المدينة : بميم مفتوحة ودال مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة
ساكنة ثم نون موحدة مفتوحة وآخره هاء : المقصود
به المدينة المنورة مهاجر النبي ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ
أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ ^(١) .
وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ
الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .
وقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ لِمَنِئِهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ^(٣) .
وقال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لِمَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا
الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ ^(٤) .

- (١) سورة التوبة الآية رقم : ١٠١ .
- (٢) سورة التوبة الآية رقم : ١٢٠ .
- (٣) سورة الأحزاب الآية رقم : ٦٠ .
- (٤) سورة المنافقون الآية رقم : ٨ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره ومن القوم الذين حول
مدينتكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل مدينتكم . أيضا أمثالهم
أقوام منافقون . ﴿ مَرَدُّوْا عَلٰى النِّفَاقِ ﴾ ، يقول مرنوا عليه ودربوا به .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول قال
رسول الله ﷺ أمرت بقرية تأكل القرى تقولون يثرب وهي المدينة
تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد .

وروى بسنده عن أبي حميد رضي الله عنه قال أقبلنا مع النبي
ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة فقال هذه طابة .

وروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها .

وروى بسنده عن سعد رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ
يقول لا يكيد أهل المدينة أحد إلا ينماع كما ينماع الملح في الماء .

وروى بسنده عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال لا
يدخل المدينة رعب المسيح الدجال لها يومئذ سبعة أبواب على كل
باب ملكان .

قال ابن القيم : ولما قدم النبي ﷺ المدينة واسمها يثرب لا
تعرف بغير هذا الاسم ، غيّر بطيبة ، لما زال عنها ما في لفظ يثرب من
التثريب بما في معنى طيبة من الطيب ، واستحقت هذا الاسم وازدادت
طيبا آخر فأثر طيبها في استحقاق الاسم ، وزادها طيبا إلى طيبها .

وروى ابن شبة بسنده عن زيد بن أسلم قال : قال النبي ﷺ
للمدينة عشرة أسماء : هي ، المدينة ، وطيبة ، وطابة ، ومسكينة ،
وجبار ، ومجبورة ، ويندد ، ويثرب .

وروى بسنده عن جعفر بن أبي طالب قال : سمى الله المدينة : الدار والإيمان ، قال فجاء في الحديث الأول ثمانية أسماء ، وجاء في هذا اسمان فالله أعلم أهما تمام العشرة الأسماء التي في الحديث الأول أم لا .

قال ابن يحيى : لم أزل أسمع للمدينة عشرة أسماء في التوراة كما يقال والله أعلم ، قال : هي : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والطيبة ، والمسكينة ، والعذراء ، والجابرة ، والمجبورة ، والمحبة ، والمحبوبة .

وقال ابن النجار : قال ابن زبالة عن عبد العزيز بن محمد بن موسى بن عقبة عن عطاء بن مروان عن أبيه عن كعب ، قال نجد في كتاب الله الذي نزل على موسى أن الله تعالى قال للمدينة : يا طيبة يا طابة يا مسكينة لا تقبلي الكنوز ارفعي أجاجيرك على أجاجير القرى ، قال عبد العزيز بن محمد ، وبلغني أن لها في التوراة أربعين اسما ، وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال أن الله تعالى سمى المدينة طابة ، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال : هي المدينة يثرب ، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يثرب اسم أرض ، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها ، وقال ابن زبالة : كانت يثرب أم قرى المدينة وهي ما بين طرف قناة إلى طرف الجوف ، وما بين المال الذي يقال له البرناوي إلى زبالة .

وكانت زهرة من أعظم قرى المدينة ، قيل كان فيها ثلاثمائة صانع من اليهود ، وقيل : أن تبعا لما قدم المدينة بعث رائدا ينظر إلى مزارع المدينة فأتاه فقال : قد نظرت فأما قناة فحب ولا تبين وأما الحرار فلا حب ولا تبين وأما الجوف فالحب والتبن .

وقال أهل السير : كان أول من نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قوم يقال لهم صعل وفالج فغزاهم داود النبي عليه السلام فأخذ منهم مائة ألف عذراء وقال : وسلط الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا ،

فقبورهم هذه التي في السهل والجبل قال : وكانت العماليق قد انتشروا في البلاد فمكثوا بمكة والمدينة والحجاز كله وعتوا عتوا كبيرا فبعث الله إليهم موسى - على نبينا وعليه السلام - جندا من إسرائيل فقتلوهم بالحجاز وأفنوهم .

وقال ابن النجار : وإنما كان سكن اليهود بلاد الحجاز أن موسى عليه السلام لما أظهره الله على فرعون وأهلكه وجنوده وطئ الشام وأهلك من بها وبعث بعثا من اليهود إلى الحجاز وأمرهم ألا يستبقوا من العماليق أحدا بلغ الحلم فقدموا عليهم فقتلوهم وقتلوا ملكهم (نبنما) وكان يقال له الأرقم بن أبي الأرقم وأصابوا ابنا له شابا من أحسن الناس فظنوا به عن القتل وقالوا نستحيه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم : فلما سمع الناس بقدومهم تلقوهم فسألوهم عن أمرهم فأخبروهم بفتح الله عليهم وقالوا لم نستبق منهم أحدا ألا هذا الفتى فإننا لم نر شابا أحسن منه فاستبقيناه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه فقالت لهم بنو إسرائيل إن هذه لعصية لمخالفتكم نبيكم ، لا والله لا يدخلوا علينا بلادنا ، فحالوا بينهم وبين الشام ، فقال الجيش : ما بلد إن منعتم بلدكم خير من البلد الذي خرجتم منه ، قال وكانت الحجاز بعد العماليق ، وهم يجدون في التوراة أن نبيا يهاجر من العرب إلى بلد فيه نخل بين حرتين فأقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد ، فنزل طائفة تيماء وتوطنوا نخلا ومضى طائفة فلما رأوا خيبر ظنوا أنها بالبلدة التي يهاجر إليها فأقام بعضهم بها ومضى أكثرهم وأشرفهم فلما رأوا يثرب سبخة وحرّة ونخلا قالوا : هذا البلد الذي يكون له مهاجر النبي إليها فنزلوه فنزل النضير بمن معه بطحان ، فنزلوا منها حيث شاءوا وكان جميعهم بزهرة ، وهي محل بين الحرّة والسافلة مما يلي القف وكانت لهم الأموال بالسافلة ، ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب

بمجتمع السيول ، سيل بطحان والعقيق وسيل قناة مما يلي زغابة ، قال : وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هذيل وهذيل وعمرو أبناء الخزرج بن الصريح بن التوم بن السبط بن اليسع بن العتين بن عيد بن خيبر بن النجار ناحوم بن عازر بن هارون بن عمران ، والنصر بن النجار بن الخزرج بن الصريح بعد هؤلاء فتبعوا آثارهم فنزلوا بالعلية ، على واديين يقال لهما مذ ينب ومهزور فنزلت بنو النضير على مذ يرب واتخذوا عليه الأموال ونزل قريظة وهذيل على مهزور واتخذوا عليه الأموال وكانوا من احتفر بها الآبار واغترس الأموال وابتنوا الآطام والمنازل ، قالوا : فجميع ما بنى اليهود في المدينة تسعة وخمسين أطما .

قالوا : وكان بالمدينة قرى وأسواق من يهود بني إسرائيل وكان قد نزلها عليهم أحياء من العرب فكانوا معهم ، وابتنوا الآطام والمنازل قبل نزول الأوس والخزرج وهم بنو أنيف من حي من بلى ويقال إنهم من بقية العماليق وبنو مزيد من بلى وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان وبنو الجلعاء حي من اليمن قالوا : وكانت الآطام عز أهل المدينة ومنعتهم التي يتحصنون فيها من عدوهم فكان منها ما يعرف اسمه ومنها ما لا يعرف اسمه ومنها ما يعرف باسم سيده ومنها ما لا يدري لمن كان ومنها ما ذكر في الشعر ومنها ما لم يذكر ، وكان ما بنى من الآطام للعرب بالمدينة ثلاثة عشر أطما .

قالوا : فلم تزل اليهود العالية بها الظاهرة عليها حتى كان من سيل العرم ما كان وما قص الله في كتابه فلحقت بنو عمرو بن ثعلبة وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بيثرب وهي المدينة ، وقالوا فأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود ، ووجدوا العدد والقوة معهم فمكث الأوس والخزرج معهم ما شاء الله ، ثم إنهم

سألوهم أن يعقدوا بينهم وبينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ويمنعون به من سواهم فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا فلم يزالوا على ذلك زمناً طويلاً وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوا على دورهم وأموالهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم وكانت قريظة والنضير أعدوا وأكثروا فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود حتى نجم مالك بن العجلان أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج .

قالوا : ولما نجم مالك بن العجلان سدّد الحيان عليهما فبعث هو قومه إلى من وقع بالشام من قومهم يخبرونهم حالهم ويشكون إليهم غلبة اليهود عليهم ، وكان رسولهم الدمق بن زيد بن امرئ القيس أحد بني سالم بن عوف بن الخزرج وكان قبيحاً ذميماً شاعراً بليغاً فمضى حتى قدم الشام على ملك من ملوك غسان الذين ساروا من يثرب إلى الشام يقاتلون له أبو جبيلة من ولد حفنة بن عمرو بن عامر ، وقيل كان أحد بني جشم بن الخزرج وكان قد أصاب ملكاً بالشام وشرفاً فشكى إليه الدمق حالهم وغلبة اليهود عليهم وما يتخوفون منهم ، وأنهم يخشون أن يخرجوهم ، فأقبل أبو جبيلة في جمع كبير لنصرة الأوس والخزرج وعاهد الله لا يبرح حتى يخرج من بها من اليهود أو يذلهم ويصيرهم تحت يد الأوس والخزرج فساروا وأظهر أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة وهي يومئذ يثرب فلقى الأوس والخزرج وأعلمهم ما جاء به ، فقالوا إن علم القوم ما تريد تحصنوا في أطامهم فلم تقدر عليهم ولكن تدعوهم للقائك وتتلطف بهم حتى يأمنوك ويطمئنوا فتتمكن منهم ، فصنع لهم طعاماً وأرسل إلى وجوهم ورؤسائهم فلم يبق من وجوهم أحد إلا أتاه ، وجعل الرجل منهم يأتي بخاصته وحشمه ، رجاء أن يحبوهم الملك وقد كان بني لهم حيزاً وجعل فيه قوماً وأمرهم من دخل عليهم منهم أن يقتلوه حتى أتى

على وجوههم ورؤسائهم ، فلما فعل ذلك عزّت الأوس والخزرج في المدينة واتخذوا الديار والأموال وانصرف أبو جبيلة راجعاً إلى الشام وتفرقت الأوس والخزرج في عالية المدينة وسافلتها وبعضهم جاء إلى عفاء من الأرض لا ساكن فيه فنزل منهم من لجأ إلى قرية من قراها واتخذوا الأموال والأطام فكان ما ابتنوا من الأطام مائة وتسعة وعشرين أطماً ، وأقاموا كلمتهم وأمرهم مجتمع ثم دخلت بينهم حروب عظام وكانت لهم أيام ومواطن وأشعار فلم تزل الحروب بينهم إلى أن بعث الله نبيّه ﷺ وأكرمهم باتباعه .

قال ابن النجار في خبر فتح المدينة : قالت عائشة رضي الله عنها : كل البلاد فتحت بالسيف وافتتحت المدينة بالقرآن ، قال ابن النجار وذلك أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه في كل موسم على قبائل العرب ويقول : (ألا رجل يحملني- إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربّي حتى لقي في بعض السنين عند العقبة نفرًا من الأوس والخزرج قدموا في المنافرة التي كانت بينهم ، فقال لهم من أنتم ؟ قالوا : نفر من الأوس والخزرج قال : من موالي اليهود ؟ قالوا : نعم قال أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى) ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، وكانوا أهل شرك وأوثان وكان إذا كان بينهم وبين اليهود الذين معهم بالمدينة شيء ، قالت اليهود لهم وكانوا أصحاب كتاب قد علمنا أن نبياً يبعث الآن قد أظلّ زمانه فنتبعه ونقتلكم قتل عاد وارم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلّموا والله إنه للنبي الذي وعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه فاغتنموه وآمنوا به فأجابوه فيما دعاهم إليه وصدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم وقالوا : إنّنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشرّ ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم

فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا وكانوا ستة ... فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ وما جرى لهم ودعوهم إلى الإسلام ففشى فيهم حتى لم يبق بيت ولا دار من دور الأنصار إلا ورسول الله ﷺ فيها ذكر فلما كان العام المقبل وافى منهم اثني عشر رجلاً فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوه فلما انصرفوا بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير إلى المدينة وأمره أن يقرأهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، وكان منزله على أسعد بن زارة ، ولقيه في الموسم الآخر سبعون رجلاً من الأنصار ومعهم امرأتان فبايعوه وأرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى المدينة ثم خرج إلى الغار بعد ذلك وتوجه هو وأبو بكر إلى المدينة .

وروى ابن النجار بسنده عن محمد بن عبد الله بن خزيمة بن ثابت أن تبعاً لما قدم المدينة وأراد إخراجها جاءه حبران يقال لهما تحيت ومنبه من قريظة فقالا : أيها الملك انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة وإنها مهاجر نبي من بني إسماعيل اسمه أحمد يخرج آخر الزمان فأعجبه ما سمعه وصدقهما وكفّ عن أهل المدينة .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : رأيت في المنام أنني مهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهمي إلى اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب ، وذكر البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لما ذكر هذا المنام لأصحابه هاجر من هاجر منهم قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة . فقال له رسول الله ﷺ : (على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي) فقال له : أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي ؟ قال : نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين

كانتا عنده الخبط أربعة أشهر ، قالت عائشة رضي الله عنها بينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر ، هذا رسول الله ﷺ متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، قال أبو بكر : فدا له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر ، قالت فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر إنما هم أهلک بأبي أنت يا رسول الله ، قال : إني قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر : الصحابة بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ نعم ، قال أبو بكر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين قال رسول الله ﷺ : بالثمن ، قالت عائشة فجهرزناهما أحث الجهاز ، ووضعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فقال رسول الله ﷺ : إن لها به نطاقين في الجنة فبذلك سميت ذات النطاقين قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ، فیدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكاد أن به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من لبن فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الدئل هاديا ماهرا بالهداية ، وهو على دين كفار قريش فأمنّاه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل أسفل من عسفان ثم عارض الطريق على أمج ثم لقي الطريق بناحية فنزل في خيام أمّ معبد بنت الأشقر الخزاعية بأسفل ثنية لفت ، وواصل السير حتى انتهى إلى بني عمرو بن عوف بظاهر قباء ، فنزل عليهم على كلثوم بن الهدم بن امرئ

القيس بن الحارث وكان سيّد الحيّ ، وقد اختلف في اليوم الذي نزل فيه ، ولقي رسول الله ﷺ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض ، وسمع المسلمون بالمدينة خروج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة ينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة فانقلبوا يوما بعد أن طال انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم رقى رجل من اليهود أطما من أطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبّيضين فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدّكم الذي تنتظرونه فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتا فطفق من جاء من الأنصار ممّن آمن برسول الله ﷺ يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلّ عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ ، عند ذلك ولما أقبل النبي ﷺ إلى المدينة كان مردفاً لأبي بكر وأبو بكر شيخ يعرف ونبي الله شاب لا يعرف قال فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك فيقول هذا الرجل الذي يهديني السبيل ، فيحسب الحاسب أنه يعني الطريق وإنما يعني سبيل الخير ، ولبت رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة ، وأسّس المسجد الذي أسّس على التقوى وصلى فيه ثم ركب راحلته فصار يمشي معه الناس عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مريدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته هذه إن شاء الله المنزل ، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله

فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً .

وعن ابن عباس أقام رسول الله ﷺ بقاء يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وركب من بقاء يوم الجمعة فجمع في بني سلمة فكانت أول جمعة جمعها في الإسلام وكان سرّ بدور الأنصار دارا دارا فيدعونه إلى المنزل والمواساة فيقول لهم خيرا ويقول خلوها فإنها مأمورة حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم وكان المسلمون قد بنوا مسجدا يصلون فيه ، فبركت ناقته ونزل وجاء أبو أيوب الأنصاري فأخذ رحله وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فلما خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد تعلقت به الأنصار فقال المرء مع رحله فنزل على أبي أيوب الأنصاري خالد بن يزيد بن كليب ومنزله في بني غنم بن النجار .

- قلت : هكذا تم سفر رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة .
- قال ياقوت : مدينة يثرب : هي مدينة الرسول ﷺ ، نبأ أولاً بصفتها مجملاً ثم تفصّل ، أمّا قدرها فهي في مقدار نصف مكة ، وهي في حرّة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه ، ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار عليها العبيد ، وللمدينة سور والمسجد في نحو وسطها ، وقبر النبي ﷺ في شرقي المسجد وهو بيت مرتفع ليس بينه وبين سقف المسجد إلا فرجة وهو مسدود لا باب له وفيه قبر النبي ﷺ وقبر أبي بكر وقبر عمر والمنبر الذي كان يخطب عليه رسول الله ﷺ قد غشى بمنبر آخر ، والروضة أمام المنبر بينه وبين القبر ومصلّى النبي ﷺ الذي كان يصلى فيه الأعياد في غربي المدينة داخل الباب وبقيع الغرقد خارج المدينة من شرقيها ، وبقاء خارج المدينة على نحو ميلين مما يلي القبلة ، وهي شبيهة بالقرية ، وأحد جبل في شمال

المدينة وهو أقرب الجبال إليها مقدار فرسخين ، وبقربها مزارع فيها نخيل وضياح لأهل المدينة ، ووادي العقيق فيما بينهما وبين الفرع ، والفرع من المدينة على أربعة أيام في جنوبها ، وبها مسجد جامع غير أن أكثر هذه الضياح خراب وكذلك حوالي المدينة ضياح كثيرة أكثرها خراب وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق .

وللمدينة تسعة وعشرون اسماً ، وهي : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكينة ، والعذراء ، والجابرة ، والمحبة ، والمحبة ، والمجبورة ، ويثرب ، والناحية ، والموفية ، وأكالة البلدان ، والمباركة ، والمحفوفة ، والمسلمة ، والمجنة ، والقدسية ، والعاصمة ، والمرزوقة ، والشافية ، والخيرة ، والمحبوبة ، والمرحومة ، وجابرة ، والمختارة ، والمحرمة ، والقاصمة ، وطابة .

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حين توجه إلى الهجرة : اللهم إنك قد أخرجتني من أحب أرضك إليّ فأنزلني أحب أرض إليك فأنزله المدينة .

- قلت : هذا موجز لما وصف به ياقوت المدينة وقد أطل في حديثه عنها إطالة لا يتسع مقامنا هذا لذكر ما جاء فيها .

والحديث عن المدينة طيبة الطيبة- حديث ذو شجون وشجون لا يتسع له مقامنا هذا ، وقد ألف عنها علماء المسلمين مؤلفات كثيرة خاصة ، تتحدث عن تاريخها من كل جوانبه قديماً وحديثاً .

وفي هذا العهد امتد عمران المدينة واتسعت مرافقها ، وشملها النمو الاجتماعي والعمراني والاقتصادي الذي شمل كثيراً من مدن المملكة العربية السعودية ، وكثر سكانها وعبدت إليها الطرق من أنحاء البلاد وازدهرت مرافقها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وقد ألف في ذلك كله كتب خاصة بها وذلك فإني أكتفي بهذا

القدر من الحديث عن هذه المدينة المقدسة وقد مرّ الحديث مفصلاً عن كل معالمها الجغرافية كل منها في رسمه في هذا الكتاب .

المدينة : كالذي قبله : مدينة صالح ، وهي حجر ثمود .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : وكان في مدينة صالح ، وهي حجر ثمود تسعة أنفس يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وكان إفسادهم في الأرض : كفرهم بالله ، ومعصيتهم إياه ، إنما خصّ الله جلّ ثناؤه هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض ، ولا يصلحون ، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين ، لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقر الناقة ، وتعاونوا عليه ، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود .

ويسنده عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ قال : من قوم صالح .

ويسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ هم الذين عقروا الناقة ، وقالوا حين عقروها : نبيّت صالحاً وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً وما لنا به علم فدمرهم الله أجمعين .

وقال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أي مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي تسعة نفر ﴿ يُفْسِدُونَ فِي

الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ، لأنهم كانوا كباراً وهم ورؤساءهم .

قال العوفي عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبّحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك .

وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دُعْمَى ، ودُعَيْم ، وهرما ، وهريم ، وداب ، وصواب ، ورياب ، ومسطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة ، أي الذي باشر ذلك بيده ، قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم ، قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

وقال القرطبي : قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد ، والرهط اسم للجماعة ، مكانهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . والجمع أرهط وأراهط ، وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار عاقر الناقة ، ذكره ابن عطية .

قلت : وقد استوفيت الحديث عن خبر قوم صالح وما أصابهم من عذاب الله في رسم (الحجر) في هذا الكتاب فانظره .

المدينة : كالذي قبله : مدينة منف من مصر .

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ ^(١).

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: ﴿ وَدَخَلَ ﴾ موسى ﴿ الْمَدِينَةَ ﴾ مدينة منف من مصر ﴿ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ وذلك عند القائلة نصف النهار .

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله دخل موسى هذه المدينة في هذا الوقت فقال بعضهم : دخلها متبعا أثر فرعون ، لأن فرعون ركب وموسى غير شاهد ، فلما حضر علم بركوبه فركب واتبع أثره ، وأدركه المقييل في هذه المدينة .

ويسنده عن السدي ، قال : كان موسى حين كبر يركب مراكب فرعون ، ويلبس مثل ما يلبس ، وكان إنما يدعى موسى ابن فرعون ، ثم إن فرعون ركب مركبا وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى قيل له : إن فرعون قد ركب ، فركب في أثره فأدركه المقييل بأرض يقال لها منف ، فدخلها نصف النهار ، وقد تغلقت أسواقها ، وليس في طرقها أحد ، وهي التي يقول الله : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

وقال آخرون : بل دخلها مستخفيا من فرعون وقومه ، لأنه كان قد خالفهم في دينهم ، وعاب ما كانوا عليه . قال : واختلفوا في الوقت الذي عني بقوله : ﴿ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فقال بعضهم : ذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس ، قال : يقولون في القائلة ، قال : وبين المغرب والعشاء .

(١) سورة القصص الآية رقم : ١٥ .

قال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء . وقال ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار ، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة .

وقال ياقوت : منف بالفتح ثم السكون وفاء : اسم مدينة فرعون بمصر ، قال عبدالرحمن بن عبد الله بن عبد الحكيم بإسناده : أول من سكن مصر بعد أن أغرق الله قوم نوح ، عليه السلام ، بيصر بن حام بن نوح فسكن منف وهي أول مدينة عمرت بعد الغرق وولده وهم ثلاثون نفساً ، فبذلك سميت مافة ، ومعنى مافة بلسان القبط ثلاثون ، ثم عرّبت فقليل منف ، وهي المرادة بقوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

وبمنف آثار الحكماء والأنبياء وبها كان منزل يوسف الصديق عليه السلام ، ومن كان قبله ومنزل فرعون موسى وكانت له عين شمس ، والفسطاط اليوم بين منف وعين شمس في منتهى جبل المقطم ومنقطعه .

قلت : وبما أن مدينة منف ما زالت عامرة مأهولة بالسكان معروفة من خلال تاريخها العريق فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنها .

المدينة : كالذي قبله : أنطاكية في مصر ، وقيل غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى يَلْقَاكُمْ تَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .

قال ابن جرير : وقوله ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ يقول : وجاء من أقصى مدينة هؤلاء القوم الذين أرسلت إليهم هذه الرسل رجل يسعى إليهم ، وذلك أن أهل المدينة هذه عزموا ، واجتمعت آراؤهم على قتل هؤلاء الرسل الثلاثة فيما ذكر ، فبلغ ذلك الرجل ، وكان منزله أقصى المدينة ، وكان مؤمنا ، وكان اسمه فيما ذكر (حبيب بن مري) .

قلت : الخبر الذي ورد في تفسير هذه الآية متصل بتفسير الآيات التي قبلها من قوله تعالى : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ^(١) .

وقد تقدم في الحديث عن هذه القرية أن المقصود بها أنطاكية ، والحديث عن هذه القرية مستوفى رسم هذه الآية وقد تقدم فانظره .

المدينة : المقصود بهذا مدينة قوم لوط (سدوم) .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾  قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفَى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ ^(٢) .

قال ابن كثير : قال السدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأتوها نصف النهار ، فلما بلغوا سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان : اسم الكبرى ريثا والصغرى زغرتا ، فقالوا لها : يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت لهم :

(١) سورة يس الآية رقم : ١٣ .

(٢) سورة الحجر الآية رقم : ٦٧ - ٦٨ .

نعم ، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فأنت أباها فقالت : يا أبتاه ، أراك فتیان على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فقالوا : خل عنا فلنضف الرجال .

فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ؟ فقالت : إن في بيت لوط رجلا ما رأيت مثل وجوههم قط ، فجاءه قومه يهرعون إليه .

وقال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يقول : وجاء أهل مدينة سدوم وهم قوم لوط لما سمعوا أن ضيفا قد ضاف لوطا مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا منهم في ركوب الفاحشة .

قلت : وقد استوفيت الحديث عن قوم لوط وما حل بهم وبمدينتهم سدوم من العذاب في رسم القرية (سدوم) في هذا الكتاب فانظره .

المروة : المقصود هنا المروة التي هي شعيرة من شعائر الله ، في مكة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : وإنما عنى الله تعالى ذكره بقوله : ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ ﴾ ، في هذا الموضع الجبلين المسميين اللذين في حرمة ، دون سائر الصفا والمروة ، ولذلك أدخل فيهما (الألف واللام) ليعلم عباده أنه عنى بذلك الجبلين المعروفين بهذين الاسمين ، دون سائر الأصفاء والمروة .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .

وأما قوله : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ، فإنه يعني : من معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعباده معلما ومشعرا يعبدونه عندها ، إما بالدعاء وإما بالذكر ، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها . ومنه قول الكميت :

نقتلهم جيلا فجيلا ، تراهم شعائر قربان بهم يـ فـرب

وقال القرطبي : وعن ابن عباس قال : كان في الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة ، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون : يا رسول الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة فإنهما شرك ، فنزلت . وقال الشعبي : كان على الصفا في الجاهلية صنم يسمّى (اسافا) وعلى المروة صنم يسمّى (نائلة) فكانوا يمسخونها إذا طافوا ، فامتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك ، فنزلت الآية .

وقال ياقوت : المروة : واحدة المرو ، .. : جبل بمكة يعطف على الصفاء قال عزام : ومن جبال مكة المروة جبل مائل إلى الحمرة ، أخبرني أبو الربيع سليمان بن عبد الله المكي المحدث أن منزله في رأس المروة وأنها أكمة لطيفة في وسط مكة تحيط بها وعليها دور أهل مكة ومنزلهم . قال : وهي من جانب مكة الذي يلي قعيقعان ، وقد ثناه جرير وهو واحد في قوله :

فلا يقربن المروتين ولا الصفا ولا مسجد الله الحرام المطهرا

قلت : وبما أن الصفا والمروة لهما شأن كبير في نفوس المسلمين وأن العلماء قد تحدّثوا عنها وصفا وبيانا لما يتصل بهما من أحكام الحج وأن لهما شهرة تغنى عن الإطالة في الحديث عنهما فإنني أكتفي بهذا القدر فيما يخص المروة ، وقد تقدّم في رسم (الصفا) مزيد من الإيضاح فانظره .

المسجد الأقصى : (بيت المقدس)

قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ ^(١).

روى ابن جرير بسنده عن قتادة ، في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ . أسرى بنبي الله عشاء من مكة إلى بيت المقدس ، فصلى نبي الله فيه ، فأراه الله من آياته وأمره بما شاء ليلة أسري به ، ثم أصبح بمكة .

قال ابن كثير : ﴿ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أي في جنح الليل ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلّتهم ودارهم ، فدلّ على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ أي محمداً ﴿ مِّنْ ءَايَاتِنَا ﴾ أي العظام .

وقال ياقوت : إيلياء : بكسر أوله واللام ، وياء وألف ممدودة : اسم مدينة بيت المقدس ، قيل : معناه بيت الله . وحكى الحفصي فيه القصر ، وفي لغة ثالثة حذف الياء الأولى فيقال : إلياء بسكون اللام والمد ، قال أبو علي : وقد سمى البيت المقدس إيلياء بقول الفرزدق :

(١) سورة الأسراء الآية رقم : ١ .

وبيتان بيت الله نحن ولاته وقصر بأعلى إيلياء مشرف

وقيل : إنما سميت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ، وهو أخو دمشق وحمص وأردن وفلسطين ، قال بعض الأعراب :

فلو أن طيرا كلّفت مثل سيره إلى واسط من إيلياء لكنت
سما بالمهاري من فلسطين بعدما دنا الفيئ من شمس النهار فولّت
فما غاب ذاك اليوم حتى أناخها بميسان قد حلّت عراها وكلّت
كأن قطاميا من الرّحل طاويا إذا غمّرة الظلماء عنه تجلّت

وتحدّث ياقوت عن المقدس فقال : المقدس في اللغة المنزّه ، قال المفسّرون في قوله تعالى : ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك ، قال الزجاج : معنى نقدّس لك أي نظهر أنفسنا لك وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدّسه أي نظهره ، قال : ومن هذا بيت المقدس . كذا ضبطه بفتح أوله وسكون ثانيه ، ويتخفيف الدال وكسرهما ، أي البيت المقدّس المطهر الذي يتطهّره من الذنوب ، قال مروان :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس
ودع المدينة أنها محذورة والحق بمكة أو ببيت المقدس

وقال قتادة : المراد بأرض المقدس أي المبارك ، وإليه ذهب ابن الأعرابي ، ومنه قيل للراهب مقدّس ، ومنه قول امرئ القيس :

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدّس

وصبيان النصارى يتبرّكون به وبمسح مسحة الذي هو لابسه وأخذ خيوطه منه حتى يتمزّق عنه ثوبه .

وفضائل بيت المقدس كثيرة ، تحدث يا قوت عنها وأطال في ذكرها وقال : ولا بد من ذكر شيء هنا حتى يستحسنه المطلع عليه ، قال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى : ﴿ وَجَنِّنَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) ، قال هي بيت المقدس .

وقوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ ^(٢) ، يعني بيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا أَبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ^(٣) . قال : البيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ ^(٤) ، هو بيت المقدس .
وقوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ ^(٥) ، البيت المقدس .

وعن النبي ﷺ : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد بيت المقدس .

ثم استرسل يا قوت في ذكر فضائل بيت المقدس وفي وصفه وذكر طائفة من الزهاد والفقهاء الذين ينسبون إليه .

- (١) سورة الأنبياء الآية رقم : ٧١ .
- (٢) سورة طه الآية رقم : ٨٠ .
- (٣) سورة المؤمنون الآية رقم : ٥٠ .
- (٤) سورة الأسراء الآية رقم : ١ .
- (٥) سورة النور الآية رقم : ٣٤ .

وأما فتحها في أول الإسلام .. فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفذ عمرو بن العاص إلى فلسطين ثم نزل البيت المقدس فامتنع عليهم فقدم أبو عبيدة بن الجراح بعد أن فتح قنسرين وذلك في سنة ١٦ للهجرة فطلب أهل بيت المقدس من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول في ما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولى للعقد لهم عمر بن الخطاب ، فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر فقدم عمر ونزل الجابية من دمشق ثم صار إلى بيت المقدس فأنفذ صلحه وكتب لهم به كتابا وكان ذلك في سنة ١٧هـ .

وقال ياقوت : ورؤي عن كعب أنه قال : لا تسمّوا بيت المقدس إيلياء ولكن سمّوه باسمه فإن إيلياء امرأة بنت المدينة .

وتحدث البلاذري عن فتح إيلياء وقال : وقدم أبو عبيدة بعد أن فتح قنسرين ونواحيها سنة ١٦هـ - على عمرو بن العاص وهو محاصر إيلياء وإيلياء مدينة بيت المقدس . فيقال إنه وجهه إلى أنطاكية من إيلياء وقد غدر أهلها ، ففتحها ثم عاد فأقام يومين أو ثلاثة . ثم طلب أهل إيلياء من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولى للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه . فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك ، فقدم عمر فنزل الجابية من دمشق ، ثم صار إلى إيلياء ، فأنفذ صلح أهلها وكتب لهم به . وكان فتح إيلياء في سنة سبع عشرة .

وقال الحميري : إيلياء : ويقال أيلياء بفتح الهمزة ، مدينة بالشام وهي بيت المقدس ، وهي مدينة قديمة جليلة على جبل يصعد إليها من كل جانب وهي طويلة من المغرب إلى المشرق .

... مدينة إيلياء مسورة في نشز من الأرض ، والجبال محيطة بها ، وتحدث عن وصفها ثم قال : وكان أبو عبيدة بن الجراح رضي

الله عنه أمير الجيش قد كتب إلى بطارقة إيلياء يدعوهم إلى الإسلام أو أداء الجزية فالتوا عليه فنزل عليهم وحاصرهم حصارا شديدا فلما رأوا أنه غير مقلع عنهم واشتد عليهم الحصار سألوه أن يصالحهم على أن يعطوه الجزية فأجابهم إلى ذلك ، فقالوا : فأرسل إلى خليفتك فيكون هو الذي يعطينا العهد ويكتب لنا الأمان فإننا لا نرضى إلا به ، فاستوثق منهم أبو عبيدة ... ثم خاطب عمر رضي الله عنه بما دعوا إليه .. فسار عمر رضي الله عنه نحو إيلياء وخرج المسلمون يستقبلونه ، فخرج أبو عبيدة رضي الله عنه بالناس وأقبل عمر رضي الله عنه على جمل له عليه ورحل ملبس جلد كبش حولي حتى انتهى إلى مخاضة ، فأقبلوا يتبادرونه حتى نزل عن بعيره وأخذ بزمامه وهو من ليف ، معهم برذون يجنبونه قالوا : يا أمير المؤمنين اركب هذا البرذون فإنه أحبابك أهون عليك في ركوبه ولا نحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة ، واستقبلوه بثياب بيض فركب البرذون ، فلما هملج به نزل عنه وقال : خذوه هذا عني فإنه شيطان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين لو لبست هذه الثياب البيض وركبت هذا البرذون لكان أجمل في المروءة وأحسن في الذكر فقال عمر رضي الله عنه : ويحكم لا تعتزوا بغير ما أعزكم الله به فتدلوا .

قلت : والحديث عن بيت المقدس ، صفاته وفضائله وما تعرض له خلال القرون الغابرة طويل جدا ، وذو شجون ، وهو اليوم واقع تحت الاحتلال الصهيوني المجرم البغيض .

وأسأل الله أن يعز دينه ويعلي كلمته ولو كره المجرمون .

المسجد الحرام : المقصود به المسجد الحرام الذي في مكة .

قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : وأما قوله ﴿ مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فإنه اختلف فيه وفي معناه فقال بعضهم : يعني من الحرم ، وقال : الحرم كله مسجد .

وقد ذكر لنا أن النبي ﷺ كان ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان نائماً في بيت أم هانئ ابنة ابي طالب .

وقال ابن كثير : ﴿ الَّذِي أُسْرِيَ بِعَبْدِهِ ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أي في جنح الليل ﴿ مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلّتهم ودارهم ، فدل على أنه الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ أي محمداً ﴿ مِنْ ءَايَاتِنَا ﴾ أي العظام . كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ^(٢) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : لقد صدق الله رسوله محمداً رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين ، لا يخافون أهل الشرك مقصراً بعضهم رأسه ، ومحلقاً بعضهم .

(١) سورة الفتح الآية رقم : ٢٧ .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال :
ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا
بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ قال هو
دخول محمد ﷺ البيت والمؤمنون ، محلّقين رؤوسهم ومقصرين .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ،
وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن
أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله ﴿ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ﴾ قال : أرى
بالحديثة أنه يدخل مكة وأصحابه محلّقين .

وقال القرطبي : ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروى
عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر
النقاش ممن رواه عشرين صحابيا . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن
رسول الله ﷺ قال : (أتيت بالبراق وهو دابر أبيض طويل فوق الحمار ودون
البغل يضع حافره عند منتهى طرفه) قال- فركبته حتى أتيت بيت
المقدس- قال- فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء- قال- ثم
دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه
السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت
الفطرة قال- ثم عرج بنا إلى السماء ..) .

قلت : وبما أن المسجد الحرام والمسجد الأقصى لهما شهرة تاريخية
 واجتماعية إلى جانب شهرتهما ومكانتهما الكبيرة في نفوس المسلمين ،
 وأن علماء المسلمين قد ألفوا عن كل واحد منهما كتبا خاصة به قديما
 وحديثا ، فإنني أكتفي بهذا القدر عن الحديث عنهما ، وقد تقدّم
 الحديث عن المسجد الأقصى في رسمه في هذا الكتاب .

مسجد الضّرار : الضّرار : بضاد معجمة مكسورة وراء مهملة
بعدها ألف وبعد الألف راء : مسجد بني ضرارا
لمسجد رسول الله ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ وهم
فيما ذكر اثنا عشر نفسا من الأنصار .

وروى بسنده عن ابن حميد عن سلمة ، عن ابن إسحاق عن
الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر
وقتادة وغيرهم قالوا : أقبل رسول الله ﷺ يعني : من تبوك- حتى
نزل بذي أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار . وكان أصحاب
مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول
الله ، إنّنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة
العاتية ، وإنّا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه فقال : إنّني على جناح
سفر وحال شغل- أو كما قال رسول الله- ولو قد قدمنا آتيناكم إن
شاء الله ، فصلينا لكم فيه . فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبر المسجد ،
فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، أخا بني سالم بن عوف ،
ومعن بن عدي- أو أخاه : عاصم بن عدي- أخا بني العجلان فقال :
انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاها ، فخرجا
سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ،
فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل

إلى أهله ، فأخذ سعفا من النخل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه . ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ .

وقال أبو جعفر : فتأويل الكلام : والذين ابتنوا مسجدا ضارا لمسجد رسول الله ﷺ ، وكفرا بالله لمحدثهم بذلك رسول الله ﷺ ، ويفرقوا به المؤمنين ، ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا ، ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، يقول : واعدادا له لأبي عامر الكافر ، الذي خالف الله ورسوله ، وكفر بهما ، وقاتل رسول الله ، ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد . وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزب الأحزاب - يعني : حزب الأحزاب لقتال رسول الله - فلما خذله الله ، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله ، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه ، فيما ذكر عنه ، ليصلي فيه ، فيما يزعم ، إذا رجع إليهم . ففعلوا ذلك . وهذا معنى قول الله جل ثناؤه : ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ . ﴿ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ يقول جل ثناؤه : وليحلفن بانوه : ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ ، ببنائنا ، إلا الرفق بالمسلمين ، والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعدة ومن عجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ ، للصلاة فيه ، وتلك هي الفعلة الحسنة ، ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، في حلفهم ذلك ، وقيلهم : " ما بنيناها إلا ونحن نريد الحسنى " ولكنهم بنوه يريدون ببنائهم السّوآي ، ضارا لمسجد رسول الله ، وكفرا بالله ، وتفريقا بين المؤمنين ، وإرصادا لأبي عامر الفاسق .

وقال ابن كثير : كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق أبو عامر بريقه وبرز بالعداوة وظهر بها ، وخرج فإلى كفار مكة من مشركي قريش يحالفهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان ، وكانت العاقبة للمتقين .

وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالت هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنهم سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه وأمرهم أن يتخذوا معقلاً يقدم عليهم فيه من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلّي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بيوه للضعفاء منهم وأهل العلة ، في الليلة العاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : (أنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله) فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر

مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ، هم أناس من الأنصار بنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإنني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتي بجنود من الروم وأخرج محمدا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه ، وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ إلى قوله ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال ابن القيم : وأقبل رسول الله ﷺ من تبوك ، حتى نزل بذي أوان ، وبينها وبين المدينة ساعة ، وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، إننا قد بنينا مسجد الذي العلة والحاجة ، والليلة المطيرة العاتية ، وإننا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : (إني على جناح سفر ، حال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه) ، فلما نزل بذي أوان جاءه خبر المسجد من السماء ، فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سلمة بن عوف ، ومعن بن عدي العجلاني ، فقال : (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه ، وحرّقا ، فخرجا مسرعين ، حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، ودخل إلى أهله ، فأخذ سعفا من النخل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشندان حتى دخلاه وفيه أهله فحرّقا وهدماه ، فتفرّقا عنه ، فأنزل الله فيه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، إلى آخر القصة .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي ، حدثنا عبد الله بن صالح ،
حدثني معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في
قوله : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ ، هم أناس من
الأنصار ابتنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم ،
واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك
الروم ، فأتي بجند من الروم ، فأخرج محمدا وأصحابه ، فلما فرغوا من
مسجدهم ، أتوا النبي ﷺ فقالوا : إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا ،
فنحب أن تصلي فيه ، وتدعو بالبركة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تَقُمْ
فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ يعني مسجد
قباء : ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾
يعني قواعده ، ﴿ لَا يَزَالُ بُنِينَهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني :
الشك ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني بالموت .

وقال الواقدي : حدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن
رومان ، قال : أقبل رسول الله ﷺ يعني من تبوك - حتى نزل بذي
أوان ، وقد كان جاءه أصحاب مسجد الضرار فقالوا يا رسول الله ، إنا
رسل من خلفنا من أصحابنا ، إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة
والحاجة ، والليلة المطيرة ، والليلة العاتية ، ونحن نحب أن تأتينا
فتصلي بنا فيه ، ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك ، قال رسول الله ﷺ :
إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله آتيناكم
فصلينا بكم فيه ، فلما نزل رسول الله ﷺ بذي أوان راجعا من تبوك
أتاه خبره وخبر أهله من السماء ، وكانوا إنما بنوه ، قالوا بينهم :
يأتينا أبوعامر فيتحدث عندنا فيه ، فإنه يقول : لا أستطيع آتي مسجد
بني عمرو بن عوف ، إنما أصحاب رسول الله ﷺ يلحظوننا بأبصارهم . يقول

الله تعالى : ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني أبا عامر . فدعا رسول الله ﷺ عاصم بن عدي العجلاني ، ومالك بن الدخشم السامي ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه ثم حرّقاه فخرجا سريعين على أقدامهما حتى أتيا مسجد بني سالم ، فقال مالك بن الدخشم لعاصم بن عدي : أنظرني حين أخرج إليك بنار من أهلي . فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه النار . ثم خرجا سريعين يعدوان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعشاء ، وهم فيه ، وإمامهم فيه يومئذ مجمع بن جارية فقال عاصم : ما أنسى بين تشرفهم إلينا كأن أذانهم أذان السرحان ، فأحرقناه حتى احترق ، وكان الذي ثبت فيه من بينهم زيد بن جارية بن عامر حتى احترقت أليته ، فهدمناه حتى وضعناه بالأرض . وتفرّقوا .

قلت : وقد اتفقت أقوال العلماء والمؤرخين على خبر (مسجد الضرار) وسبب نزول الآية الكريمة في خبره على رسول الله ﷺ والغرض من بنائه ، وفي تحديد مكانه وإحراقه وهدمه ، ولم يختلفوا في شيء من ذلك ، وقصة مسجد الضرار مشهورة في كتب التفسير وكتب التاريخ ، وما تقدّم هو موجز لما ذكره بعض المفسرين وبعض المؤرخين من خبر هذا المسجد وخبر المنافقين الذين قاموا ببنائه ، وما انتهى إليه أمر هذا المسجد وأمر المنافقين الذين بنوه .

مسجد قباء ، قباء : بقاف مثناة مضمومة بعدها باء موحدة وآخره ألف ممدود : ضاحية معروفة في المدينة .

قال الله تعالى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة التوبة الآية رقم : ١٠٨ .

قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل في المسجد الذي عناه بقوله : ﴿ لَّمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ .

وروى بسنده عن أبي سعيد وعن ابن عمر وعن زيد وعن سعيد بن المسيب وغيرهم أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ الذي في المدينة .

وروى بسنده عن ابن عباس وعن عطية وعن ابن بريده وغيرهم أن المسجد الذي عني في الآية هو مسجد قباء .

وروى بسنده عن قتادة عن شهر بن حوشب قال : لما نزلت : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ ، قال رسول الله ﷺ ما الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ قالوا : يا رسول الله نفسل أثر الغائط .

وقال ابن كثير : وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الزراق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير ، وقاله عطية الصوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهذا صحيح .. ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي عن عمران بن أبي أنس ، عن سهل بن سعد عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال : (المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا) . تفرد به أحمد .

وقال ابن القيم : وقد سئل- يعني النبي ﷺ - عن المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال : " هو مسجدكم هذا " وأشار إلى مسجد المدينة ، وهذا لا ينفي أن يكون مسجد قباء الذي نزلت فيه الآية مؤسساً على التقوى ، بل كل منهما مؤسس على التقوى .

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً وكان عبد الله رضي الله عنه يفعله

قال ابن حجر : قباء : بضم القاف ثم موحدة ممدودة عند أكثر أهل اللغة وأنكر البكري قصره ولكن حكاه صاحب العين ، قال البكري : من العرب من يذكره فيصرفه ، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه . وفي المطالع : هو على ثلاثة أميال من المدينة ، وقال ياقوت : على ميلين على يسار قاصدي مكة ، وهو من عوالي المدينة ، وسمي باسم بئر هناك .

وقال المراغي : وروى ابن النجار بسنده إلى عويمر بن ساعدة أن النبي ﷺ قال لأهل قباء أن الله قد أحسن الثناء عليكم في كتابه العزيز : فيه رجال يحبون أن يتطهروا- الآية- ما هذا الطهور ؟ قالوا : ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا .

وقال المراغي : ولم يزل مسجد قباء على ما بناه رسول الله ﷺ إلى أن بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند بناء مسجد المدينة على هذه الحالة التي هو عليها اليوم ، فتشعب على طول الزمان فتهدم فجدده في سنة خمس وخمسين وخمسمائة الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي المنصور الأصبهاني المعروف بالجواد ، والصحيح أن قباء على ثلاثة أميال من المدينة ، وقال الباجي : على ميلين ، وقال القاضي

عياض : بنو عمرو بن عوف على ثلثي فرسخ ، قال ابن النجار : زرعت مسجد قباء فكان طوله ثمانية وستين ذراعاً يشف قليلاً ، وعرضه كذلك ، وارتفاعه في السماء عشرون وطول منارته من سطحه إلى رأسها اثنان وعشرون والمنارة على يمين المصلى وهي مربعة والله أعلم .

وقال المطري : مسجد قباء في بني عمرو بن عوف : وكان مريداً لكلثوم بن الهمد فأعطاه رسول الله ﷺ فبناه مسجداً وأسسَه وصلى فيه قبل أن يأتي المدينة ... ولم يزل مسجد قباء على ما بناه رسول الله ﷺ إلى أن بناء عمر بن عبدالعزيز رحمه الله عند بناء مسجد المدينة على هذه الحالة التي هو عليها اليوم فتشعث على طول الزمان وتهدم فجدده الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير بني زنكي ... وذلك في سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وقباء على ثلاثة أميال من المدينة ، وقال الباجي : هو على ميلين وقال القاضي عياض : بنو عمرو بن عوف على ثلثي فرسخ ، والصحيح الأول وهو مروى عن مالك رحمه الله .

- وقال ياقوت : قباء : بالضم وأصله اسم بئر هناك عرفت القرية بها وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار ، وألفه واو يمد ويقصر ، يصرف ولا يصرف ولم يحك فيه القالي سوى المدّة ، قال الخليل : هو مقصور ، قال ياقوت : فمن قصره جعله جمع قبوة وهو الضم والجمع في لغة أهل المدينة .

وقال أبو حنيفة ، رحمه الله في اشتقاق قباء : إنه مأخوذ من القبو وهو الضم والجمع ، ولم يذكر أنه جمع أو مفرد : وهي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير ، وهناك مسجد التقوى عامر قدامه رصيف وفضاء حسن وآبار ومياه عذبة ، وبها

مسجد الضرار يتطوع العوام بهدمه ، كذا قال البشاري - وذكر كثير من فضائل مسجد قباء ، وعددا ممن ينسب إليها من العلماء والمحدثين .

قال السري بن عبد الرحمن بن عتبة بن عويم بن ساعدة الأنصاري :

ولها مربع ببرقة خاخ ومصيف بالقصر قصر قباء
كفّنوني إن متّ في درع أروى واغسلوني من بئر عروة مائي
سخنة في الشتاء باردة الصيد ف سراج في الليلة الظلماء

- قلت : وقد أكثر المتقدمون من المؤرخين من ذكر قباء وتحديد موقعها وفضائل مسجدها وأطالوا في أحاديثهم في وصف ذلك ، وبما أن قباء ناحية من عوالي المدينة معروفة بهذا الاسم قديما وفي هذا العهد وأن مسجدها قد استمرّ عمرانها من عهد النبي ﷺ ، ولم تنقطع الصلاة فيه إلى هذا العهد فإنني أكتفي من أقوال المتقدمين بما تقدّم .

وكذلك فإن المؤرخين المتأخرين قد تحدّثوا عن قباء وعن مسجدها وأكثروا من الحديث في ذلك ، وسأذكر هنا بعضاً مما ذكره .

قال عبد القدوس الأنصاري : يقع مسجد قباء في الجنوب الغربي للمدينة . وشكله مربع وضلعه ٤٠ متراً وعدّة أساطينه ٢٩ ، وفيه محراب ومنبر رخامي عتيق ، كان الأشرف قايتباي أهداه للمسجد النبوي ليوضع في مكان المنبر المحترق ، وذلك في سنة ٨٨٨ هـ ، وبعد أن بعث السلطان مراد العثماني بالمنبر الحالي إلى المسجد النبوي نقل هذا المنبر إلى مسجد قباء .

ولمسجد قباء مئذنة وفيه رحبة محصّبة فيها قبة يقال إن بها مبارك ناقة النبي ﷺ ، وفي الرحبة بئر ، ويجدار المسجد القبلي في

شرقية محراب يقال له : (طاقة الكشف) وفيه يقول صاحب مرآة الحرمين : ولا أدري كشف أي شيء ؟

ومما يسترعي الانتباه من آثار هذا المسجد هذا الحجر المنقوش بالخط الكوفي القديم فإنه ينطق بعمارة المسجد من قبل أحد الأشراف عام ٤٣٥هـ وكأنه نقل في بعض تعميرات المسجد من بابه الى هذا المحراب ونصب عليه .

والقسم المسقف من المسجد قباب وعدة أروقة ستة ، وفي الرواقين اللذين بمؤخره غرفة لوضع أمتعته وفرشه ، وله دعائم خارجية في جنوبه وشماله وشرقه ، لتقوية جدرانه من هذه الجهات نظر الانخفاض ما يجاورها من الأرض .

ويبعد عن المدينة بنحو (٤٠) دقيقة بالمشي المعتدل باعتبار مبدأ السير من باب قباء . ثم تحدث عبد القدوس الأنصاري عن عمران هذا المسجد وعن الطرق المؤدية إليه من عهد النبي ﷺ إلى هذا العهد الذي انتهى بعمارته في سنة ١٣٨٨هـ في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود أثابه الله .

هذا موجز لما ذكره عبد القدوس الأنصاري في كتابه- آثار المدينة المنورة .

وقال الشنقيطي : وكان مسجد قباء يبعد ثلاثة أميال من المسجد النبوي ولكن العمران إتصل به من المدينة وأصبحت قباء حياً وسط عمران المدينة فقد انسابت المباني جنوبه وغربه بشكل عجيب ، وبغربية كانت توجد الحديقة التي فيها بئر أريس التي سقط فيها خاتم النبي ﷺ من يد عثمان رضي الله عنه ، وقد أدركت هذه البئر

وبها ماء وعليها عريش مظلّ ، ثم تحوّل مكانها ومكان النخيل من حولها إلى ساحة فسيحة لوقوف السيارات .

وفي عهد الملك فهد بن عبد العزيز أمر بتوسعة هائلة لمسجد قباء على نفقته الخاصة ، وهي من الجهة الشمالية والعمل فيها جار الآن على قدم وساق ، أعني في شهر رمضان عام ١٤٠٥ هـ .

قلت : هذا بعض ما ذكره الشنقيطي عن مسجد قباء .

قباء : كالذي قبله- وينطقه العامة بإسكان القاف مسبوقه بهزة مكسورة ، وبالقصر : ماء عد قديم يقع في ناحية حرة كشب الشرقية ، وهو ماء مشهورو فير الماء يمر به طريق حاج العراق القديم ، قال ياقوت : قباء : موضع بين مكة والبصر . وقال الهجري : الخارج من ضربة يريد مكة ، يشرب بالجديلة ثم فلجة ثم الدثينة ، ثم قباء ، ثم مران ، ثم ذات عرق ، ثم البستان ، ثم مكة .

ويلاحظ أنه ورد في عبارة الهجري ممدودا .

أمّا البكري فإنه ذكره ممدودا وأنكر على من ذكره بالقصر ، قال : قباء : بضم أوله ، ممدودا ، على وزن فعال ، من العرب من يذكره ويصرفه ومنهم من يؤنثه ولا يصرفه ، وهما موضعان : موضع في طريق مكة من البصرة ، وقباء آخر في المدينة ، قال ابن الزبيري في صرفه :

حين حكت بقباء بركها واستحرّ القتل في عبد الأشل

وقال الأصفهاني في ذكر مراحل طريق الحجّ : ترد الدثينة ، وهي قرية في طريق البصرة إلى مكة ، فترد قاعا يقال له قاع الجنوب ، ثم ترد قباء ، ثم مران ، وهو ماء وقرية غنى كبيرة ونخل .

وقال الهمداني : قباء عليه بهش ونخل وخراب ، وهو لعامر بن ربيعة ، ومرّان نخل وبهسن وحصين ، وهو بين قباء والشبيكة زائع في الحرّة .

وقال الحربي : أخبرني ابن أبي سعد عن النوفلي عن أبيه قال : قباء في الحرّة ، ومن الدثينة إلى قباء سبعة وعشرون ميلاً ، ويقباء بار قريبة الماء وماء كثير ، وعلى ثمانية أميال من قباء متعشّى يقال له بلد ، فيه آبار عذبة ، ثم مرّان .

ومن قصيدة وهب بن جرير في منازل حاج العراق ، ذكرها الحربي :
حتّى إذا مرّت على الدثينة وقد وئت ، وهنّ قد ونيته
تشكو الحفا وهنّ قد حفيته

فلم تعرّج ومضت عشاء بنا نقود أنيقا رواء
فوردت قبل الضحى قباء

فنزل القوم به عجّالا قد أقدوا وأنصبوا الأجمال
فأوردوا لم يضعوا الرّحالا

ثم مضت مصعدة في الحرّة لازمة للقصد والمجرّة
عجلاء تجري قصدها مسرّة

لا غبة بين رذايا الغب وهي إذا حركتها كالقهرّب
تهوى إذا انحطّت هويّ الكوكب

فصبّحت قبل الشروق مرّان بين حراجيج ضعاف الأركان
تعسف أجواز الفلا بالركبان

قلت : وقباء لا يزال معروفا باسمه هذا وقد استوفيت الحديث عنه في كتابي معجم (عالية نجد) في رسمه فانظره .

قباء : كالذي قبله أيضا : قال ياقوت : مدينة كبيرة من ناحية فرغانة قرب الشاش ، نسب إليها قوم من أهل العلم بكل فن ، عن ابن طاهر ، وذكر ياقوت عددا من المنسوبين إليها من العلماء .

قلت : هكذا نرى أن قباء من الأسماء المشتركة ، يسمّى به عدد من المواضع أشهرها قباء الذي في المدينة ، لشرفه وأهميته الإسلامية .

مسكن سبأ : سبأ : بسين مفتوحة وباء موحدة وآخره همزة مقصورة : بلاد في اليمن .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى : لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بيّنة وحجة واضحة ، على أنه لا ربّ لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها .

وروى ابن جرير بسنده عن قتادة في قوله ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ قال : كانت جنتان بين جبلين ، فكانت المرأة تخرج مكتلها على رأسها فتمشي بين جبلين ، فيمتلئ مكتلها وما مسّت يدها ، فلما طغوا بعث الله عليهم دابة يقال لها (جرذ) فنقب عليهم ففرقتهم ، فما بقي لهم إلا الأثل وشيء من سدر قليل .

(١) سورة سبأ الآية رقم : ١٥ .

وقال ياقوت : سبأ : بفتح أوله وثانيه وهمز آخره وقصره ، أرض باليمن مدينتها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، وسميت هذه الأرض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وكان اسم سبأ عامراً ، وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبي السبي .
ولما كان سيل العرم ، تفرق أهل هذه الأرض في البلاد وسار كل طائفة منهم إلى جهة فضربت العرب بهم المثل فقيل : ذهب القوم أيدي سبأ وأيادي سبأ أي متفرقين ، شبهوا بأهل سبأ مزقهم الله تعالى كل ممزق فأخذت كل طائفة منهم طريقا .

قلت : وقد تقدم في الحديث عن العرم وسد مأرب مزيد من الإيضاح فيه كفاية إن شاء الله .

المشعر الحرام : بميم مفتوحة بعدها شين مثلثة ساكنة ثم عين مهملة مفتوحة وآخره راء مهملة : مشعر مزدلفة .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفْضُتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ ﴾^(١) .

قال ابن جرير : المشاعر هي المعالم من قول القائل : (شعر بهذا الأمر) أي علمت ، فالمشعر هو المعلم . سمي بذلك لأن الصلاة عنده والمقام والمبيت والدعاء من معالم الحج وفروضة التي أمر الله بها عباده .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ١٩٨ .

وروى بسنده عن أبي نجيح قال : يستحب للحاج أن يصلي في منزله بالمزدلفة إن استطاع ، وذلك أن الله قال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ ﴾ . فأما ﴿ الْمَشْعَرِ ﴾ فإنه هو ما بين جبلي المزدلفة من مازمى عرفة إلى محسر وليس مأزما من المشعر .

ويسنده عن إبراهيم قال : رأى ابن عمر الناس يزدحمون على الجبيل بجمع ، فقال : أيها الناس إن جمعا كلها مشعر .

ويسنده عن قتادة قوله : ﴿ فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ قال قتادة : كان ابن عباس يقول : ما بين الجبلين مشعر .

وقال ابن كثير : والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم .

ويسنده عن سالم ، قال : قال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها .
ويسنده عن إبراهيم ، قال : رأهم ابن عمر يزدحمون على قزح ، فقال : على ما يزدحم هؤلاء ، كل ما ههنا مشعر .

وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي والربيع بن أنس والحسن وقاتدة أنهم قالوا : ما بين الجبلين .

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أين المزدلفة ؟ قال : إذا أفضت من مازمى عرفة فذلك إلى محسر : قال : وليس مأزما عرفة من المزدلفة ، ولكن مفضاهما .

قال ياقوت : جمع : ضد التفرق : هو المزدلفة ، وهو قزح ، وهو المشعر ، سمى جمعا لاجتماع الناس به ، قال ابن هرمة :

سلا القلب ، إلا من تذكر ليلة
ومجلس أبكار ، كأن عيونها
بجمع وأخرى أسعفت بالمحصب
عيون المها أنضين قدام ريرب

وقال آخر :

تمنى أن يرى ليلي ، بجمع
فلما أن رآها خولته
ليسكن قلبه مما يعاني
بعادا ، فت في عضد الأمانى
إذا سمح الزمان بها وضنت
علي ، فأى ذنب للزمان ؟

وقال ابن القيم : ومحسر : برزخ بين منى وبين مزدلفة ، لا من
هذه ، ولا من هذه ، وعرنة : برزخ بين عرفة والمشعر الحرام ، فبين كل
مشعرين برزخ وليس منهما ، فمني : من الحرم ، وهي مشعر ،
ومحسر : من الحرم ، وليس بمشعر ، ومزدلفة : حرم ومشعر ، وعرنة
ليست مشعرا ، وهي من الحل . وعرفة : حل ومشعر .

قلت : وبما أن هذه المشاعر لها شهرة إسلامية ومكانة في نفوس
المسلمين والحج يتكرر عليها كل سنة ، وبما أن علماء المسلمين قد
ألفوا عنها - تحديدها وأحكامها - كتب كثيرة قديمة وحديثة
فإنني أكتفي بهذا القدر في التعريف بالمشعر الحرام .

مصريا : بميم مكسورة بعدها صاد مهملة ساكنة ثم راء مهملة
بعدها الف : المقصود به أي مصر من الأمصار هبطوا .

قال تعالى : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ ﴾^(١) .

قال ابن جرير : اختلف القراءة في قراءة قوله : ﴿ مِصْرًا ﴾ فقراءه عامة القراءة (مصر) بتنوين (المصر) وإجرائه . وقراءه بعضهم بترك التنوين وحذف الألف منه . فأما الذين نَوَّنوه وأجروه ، فإنهم عنوا به مصرًا من الأمصار ، لأنكم في البدو ، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والضيافي ، وإنما يكون في القرى والأمصار ، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتكم من العيش . وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بالإجراء والتنوين ، كان تأويل الكلام عنده : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ ، البلدة التي تعرف بهذه الاسم ، وهي مصر التي خرجوا عنها ، غير أنه أجراها ونَوَّنَهَا اتباعاً منه خط المصحف ، لأن في المصحف ألفاً ثابتة في (مصر) فيكون سبيل قراءته ذلك بالإجراء والتنوين .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ ، أي مصرًا من الأمصار .

ويسنده عن السدي : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ ، من الأمصار .

ويسنده عن مجاهد : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ قال : مصرًا من الأمصار .

وقال : فأما القراءة ، فإنها بالألف والتنوين : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ . وهي القراءة التي لا يجوز عندي غيرها ، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين ، واتفاق قراءة القراء على ذلك ، ولم يقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه ، إلا من لا يجوز الاعتراض به على الحجة ، فيما جاءت به من القراءة مستفيضة بينها .

قال ابن كثير : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف ، وهو قراءة الجمهور بالصرف ، قال ابن عباس : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ قال مصرًا من الأمصار . وجزم في آخر

حديثه في تفسير الآية قائلًا : والحق أن المراد : مصر من الأمصار ، كما روى عن ابن عباس وغيره .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ و (مصرًا) بالتنوين منكرًا قراءة الجمهور ، وهو خط المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صرفها أراد مصرًا من الأمصار غير معين .

وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ قال : مصرًا من هذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صرفها أيضًا : أراد مصر فرعون بعينها . استدل الأولون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعدالتيه . واستدل الآخرون بما في القرآن من أن الله أورش بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائي : لخفتها .

قلت : اختلف علماء التفسير بشأن صرف (مصر) كما اختلفوا في المقصود بمصر في هذه الآية ، هل هو مصر البلد المعروف أم أنه أي مصر من الأمصار .

ورجّحوا أن المقصود في هذه الآية هو أي مصر من الأمصار ، وأن قراءة هذه الآية بالتنوين والصرف هي أصحّ القراءات .

مصر : بميم مكسورة وصاد مهملة ساكنة وآخره راء مهملة : المقصود به مصر البلد المعروف .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾^(١) .

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٢١ .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ آدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ^(١).

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى : يخبر تعالى بالطافه بيوسف عليه السلام أنه قبيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمته ، وأوصى أهله به ، وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير . حدثنا العوفي عن ابن عباس وكان اسمه فطير . وقال محمد بن إسحاق : اسمه أطفير بن رحيب وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يؤمئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، قال : واسم امرأته راعيل بنت رعايل ، وقال غيره : اسمها زليخا ، وقال محمد بن إسحاق أيضا ، عن محمد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : كان الذي باعه بمصر مالك بن ذعر بن قريب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم ، فالله أعلم .

وفي تفسير الآية الثانية قال ابن كثير : يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ، وقدمه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم لأخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم ، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضا لتلقيه ، وهو الأشبه .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ^(٢).

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٩٩ .

(٢) سورة يونس الآية رقم : ٨٧ .

قال ابن جرير : عن قتادة قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ ، قال : وذلك حين منعهم فرعون من الصلاة ، فأمرُوا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وأن يوجهوا نحو القبلة .

ويسنده عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال : قالت بنو إسرائيل لموسى : لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم ، وأمرُوا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة .

ويسنده عن مجاهد في قوله : ﴿ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ، قال : (مصر) ، الإسكندرية .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْعَثْ لِي مَلَكًا مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير ، عن قتادة قال : كانت لهم جنات وأنهار ماء . قلت : هذه الآيات الكريمة الأربع المتقدمة المقصود بها مصر البلد المعروف الذي كان يسكنه فرعون الذي أغرقه الله هو وقومه ، ولم يختلف علماء التفسير والتاريخ في خبر هذه الآيات أن المقصود به مصر بلد فرعون .

وقد فتحت بلاد مصر في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه .

قال البلاذري : قالوا : وكان عمرو بن العاص حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك ، ثم استخلف عليها ابنه حين ولى يزيد بن أبي سفيان ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبّخه ويعنّفه على افتياته عليه برأيه وأمره بالرجوع إلى موضعه إلى أن وافه كتابه دون مصر ، فورد الكتاب عليه وهو بالعريش .

وقيل أيضا أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخص إلى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية ، وكان الذي أتاه شريك بن عبدة ، فأعطاه ألف دينار فأبى شريك قبولها ، فسأله أن يرد ذلك ولا يخبر به عمر .

قالوا : وكان مسير عمرو إلى مصر في سنة تسع عشرة فنزل العريش ثم أتى الفرما وبها قوم مستعدون للقتال ، فحاربهم وهزمهم وحوى عسكرهم ، ومضى قدما إلى الفسطاط ، فنزل جنان الريحان وقد خندق أهل الفسطاط وكان اسم المدينة اليونة ، فسمّاها المسلمون فسطاطا لأنهم قالوا : هذا فسطاط القوم ومجمعهم ، وقوم يقولون أن عمرا ضرب بها فسطاطا فسميت بذلك .

قالوا : ولم يلبث عمرو بن العاص وهو محاصر أهل الفسطاط أن ورد عليه الزبير بن العوام بن خويلد في عشرة آلاف ، ويقال في اثني عشر ألفا فيهم خارجة بن حذافة العدوي وعمير بن وهب الجمحي وكان الزبير قد همّ بالغزو وأراد إتيان أنطاكية فقال له عمر يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر ، فقال : لا حاجة لي فيها ، ولكني

أخرج مجاهدا وللمسلمين معاونا ، فإن وجدت عمرا قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به ، وإن وجدته في جهاد كنت معه ، فسار على ذلك .

وقالوا : وكان الزبير يقاتل من وجه وعمرو بن العاص من وجه ثم إن الزبير أتى بسلم فصعد عليه حتى أوفى على الحصن . وهو مجرد سيفه فكبر وكبر المسلمون وأتبعوه ، ففتح الحصن عنوة واستباح المسلمون ما فيه وأقرّ عمرو أهله على أنهم ذمة ، ووضع عليهم الجزية في رقابهم والخراج في أرضهم وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجازه ، واختط الزبير بمصر وابتنى دارا معروفة وبها نزل عبد الله بن الزبير حين غزا إفريقية مع ابن أبي سرح ، وسلم الزبير باق في مصر .

قال : وبعث الزبير بن العوام إلى مصر فقبل له : إن بها الطعن والطاعون ، فقال : إنما جئنا للطعن والطاعون ، قال : فوضعوا السلاطين فيصعدوا عليها .

قال : ودخل عمرو بن العاص مصر ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة وكان عمر بن الخطاب قد أشفق لما أخبر به من أمرها فأرسل الزبير بن العوام في اثني عشر ألفا ، فشهد الزبير فتح مصر واختط بها .

قال : ولما فتحوا مصر بغير عهد قام الزبير فقال : اقسمها يا عمرو ، فأبى ، فقال الزبير : والله لنقسمنّها كما قسم رسول الله ﷺ خير ، فكتب عمرو إلى عمر في ذلك فكتب إليه عمر : أقرّها حتى يغزو منها حبل الحبل .

وقد اشتبه على الناس أمر مصر فقال قوم : فتحت عنوة ، وقال آخرون : فتحت صلحا ، وقال عبيد الله بن عمرو : إن أبي قدمها

فقاتله أهل اليوننة ففتحها قهرا وأدخلها المسلمين وكان الزبير أول من علا حصنها ، فقال صاحبها لأبي إنه قد بلغنا عملكم بالشام ، ووضعكم الجزية على النصارى واليهود ، وإقراركم الأرض في أيدي أهلها يعمرونها ويؤدّون خراجها فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أردّ عليكم من قتلنا وسبينا وإجلأنا قال : فاستشار أبي المسلمين ، فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك إلا نفرا منهم سألوه أن يقسم الأرض بينهم ، فوضع على كل حالم دينارين جزية ، إلا أن يكون فقيرا ، وألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خلّ رزقا للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم وأحصى المسلمون فالزم أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف ويرنسا أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو عدل جبة الصوف ثوبا قبطيا وكتب عليهم بذلك كتابا ، وشرط لهم إذا وفوا بذلك ألا تباع نساؤهم وأبنائهم ولا يسبوا وأن تقرّ أموالهم وكنوزهم بأيديهم فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه وصارت الأرض أرض خراج ، إلا أنه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظنّ بعض الناس أنها فتحت صلحا .

ولما فرغ ملك اليوننة من أمر نفسه ومن معه في مدينته صالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح اليوننة ، فرضوا به وقالوا : هؤلاء الممتنعون قد رضوا وقنعوا بهذا فنحن به أقنع ، لأننا فرش لا منعة لنا ، ووضع الخراج على أرض مصر ، فجعل على كل جريب ديناراً وثلاثة أراذب طعاما وعلى رأس كل حالم دينارين وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال : وصالح المقوقس عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد ويقرّ من أراد الإقامة من الروم على أمر سمّاه وأن يفرض على

القبط دينارين فبلغ ذلك ملك الروم فتسخطه وبعث الجيوش فأغلقوا باب الإسكندرية .

قال : ولما فتح عمرو الفسطاط وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس ، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط ووجه خارجه بن حذافة العدوي إلى الضيوم والأشمونين واخميم والبشرودات ، وقرى الصعيد ، ففعل مثل ذلك ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وينا وبوصير ، ففعل مثل ذلك فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر ، فصارت أرضها أرض خراج .

وفتح عمرو بن العاص مصر سنة عشرين ، ومعه الزبير بن العوام فلما فتحها صالحه أهل البلد على وظيفة وظفها عليهم وهي ديناران على كل رجل وأخرج النساء والصبيان من ذلك ، فبلغ خراج مصر في ولايته ألفي ألف دينار ، فكان بعد ذلك يبلغ أربعة آلاف ألف دينار .

ولما افتتح عمرو بن العاص مصر أقام بها ، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الإسكندرية ، فكتب إليه يأمره بذلك ، فسار إليها في سنة إحدى وعشرين واستخلف على مصر خارجه بن حذافة بن غانم ، وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له وقالوا : نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية ، فلقبهم بالكربون فهزمهم وقتل منهم مقتله عظيمة ، وكان فيهم من أهل سخا وبلهيت ، والخيس ، وسلطيس ، وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم ، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدّين لقتاله ، إلا أن القبط في ذلك يحبون المودعة ، فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة ، فأبى عمرو ذلك ، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات وجوههن إلى داخله وأقام الرجال بالسلاح مقبلين وجوههم إلى

المسلمين ليرهبهم بذلك ، فأرسل إليه عمرو : أنا قد رأينا ما صنعت ، وما بالكثرة غلبنا من غلبنا ، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان ، فقال المقوقس لأصحابه : قد صدق هؤلاء القوم ، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية ، فنحن أولى بالإذعان ، فأغلظوا له القول وأبو إلا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وحصروهم ثلاثة أشهر ، ثم إن عمرا فتحها بالسيف ، وغنم فيها واستبقى أهلها ولم يسب وجعله ذمة كاهل اليونة ، فكتب إلى عمر بالفتح مع معاوية بن حديج الكندي ثم السكوني وبعث إليه معه بالخمسة .

ويقال : إن المقوقس صالح عمرا على ثلاثة عشر ألف دينار ، على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم بها من أحب المقام ، وعلى أن يفرض على كل حالم من القبط دينارين فكتب لهم بذلك كتابا ، ثم إن عمرو بن العاص استخلف على الإسكندرية عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي في رابطة من المسلمين وانصرف إلى القسطنطية ، وكتب الروم إلى قسطنطين بن هرقل وهو كان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلعة من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية فبعث رجلا من أصحابه يقال له منويل في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة ، فدخل الإسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين إلا من لطف للهرب فنجوا ، وذلك في سنة خمس وعشرين ، وبلغ عمرا الخبر فسار إليهم في خمسة عشر ألفا ، فوجد مقاتلوهم قد خرجوا يعيثون فيما يلي الإسكندرية من قرى مصر ، فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون متترسون ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم إن أولئك الكفرة ولوا منهزمين ، فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الإسكندرية فتحصنوا بها ونصبوا العرادات فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ، ونصب المجانيق ، فأخرب جدرها ، وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ، وهرب بعض

رومها إلى الروم وقتل عدو الله منويل ، وهدم عمرو والمسلمون جدار الإسكندرية ، وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك .

وقال بعض الرواة : إن هذه الغزاة كانت في سنة ثلاث وعشرين وروى بعضهم أنهم نقضوا في سنة ثلاث وعشرين وسنة خمس وعشرين والله أعلم .

قلت : وبهذا الفتح الإسلامي أصبح مصر قطرا إسلاميا عربيا ، وكانت له شهرة سياسية وثقافية واقتصادية وما زالت شهرته ومكانته قائمة إلى هذا العهد ، وقد ألف في تاريخه مؤلفات خاصة به قديما وحديثا ، ولما لهذا القطر الإسلامي العربي من شهرة ولما لتاريخه من مصادر شاملة فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنه .

مكة : بميم مفتوحة وكاف مشددة مفتوحة وآخرها هاء : المقصود به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لرسوله ﷺ ، والذين بايعوا بيعة الرضوان : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ يعني أن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم ، فبعث رسول الله ﷺ فأتى بهم أسرى ، فخلّى عنهم رسول الله ﷺ ، ومنّ عليهم ولم يقتلهم فقال الله للمؤمنين : وهو الذي كف أيدي هؤلاء المشركين عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن أظفركم عليهم .

وروى بسنده عن عبد الله بن مغفل ، أن رسول الله ﷺ كان جالسا في أصل شجرة بالحديبية ، وعلى ظهره غصن من أغصان الشجرة فرفعتها عن ظهره ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه وسهيل بن عمرو ، وهو صاحب المشركين ، فقال رسول الله ﷺ لعلي : (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) ، فأمسك سهيل بيده فقال : ما نعرف الرحمن ، اكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال رسول الله ﷺ : (اكتب باسمك اللهم) فكتب فقال : (هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة) ، فأمسك سهيل بيده ، فقال : لقد ظلمناك إن كنت رسولا ، اكتب في قضيتنا ما نعرف قال : (اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وأنا رسول الله) فخرج علينا ثلاثون عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : (هل خرجتم في أمان أحد) قال : فخلّى عنهم ، قال : فأنزل الله ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ 》 .

وروى البخاري بسنده عن أبي شريح أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة أئذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال إن مكة حرّمها الله ولم يحرمها الناس فلا تحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخّص لقتال رسول الله ﷺ فيه فقولوا إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب .

قال ياقوت : قال ابن الأنباري : سميت مكة لأنها ممكّ الجبارين أي تذهب نخوتهم ، ويقال : إنها سميت مكة لازدحام الناس بها من قولهم : قد امتك الفصيل ضرع أمّه إذا مصّه مصّاً شديداً .

وسميت بكة لازدحام الناس بها .
قال أبو عبيدة وأنشد :

إذا الشريب أخذته أكّة فخلّله حتى يبكّ بكة

ويقال : مكة اسم المدينة ، وبكة اسم البيت .
وقال آخرون : مكة هي بكة والميم بدل من الباء كما قالوا : ما
هذا بضربة لازب ولازم .

وقال أبو القاسم : هذا الذي ذكره أبو بكر في مكة .
وقال الشرقي بن القطامي : إنما سميت مكة لأن العرب في
الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكّ
فيه أي نصفر صفير الماء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون
بأيديهم إذا طافوا بها ، والمكّاء بتشديد الكاف - طائر يأوى الرياض ،
قال أعرابي : ورد الحضر فرأى مكّاء يصيح فحنّ إلى بلاده فقال :

ألا أيّها المكّاء مالك ههنا ألاء ولا شيخ فأين تبيض
فأصعد إلى أرض المكاكي واجتنب قرى الشام لا تصبح وأنت مريض
والمكّاء ، بتخفيف الكاف والمدّ : الصّفير فكأنهم كانوا يحكون
صوت المكّاء ، ولو كان الصفير هو الغرض لم يكن مخففاً .

وقال قوم : سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في
هبطه بمنزلة المكوك ، والمكوك عربي أو معرب قد تكلمت به العرب ،
وجاء في أشعار الفصحاء .

قال الأعشى :

والمكاكي والصّحاف من الفضّة والضمّامرات تحت الرّحال

قال : وأما قولهم : سميت مكة لازدحامهم فيها من قولهم : قد امتك الفصيل ما في ضرع أمه إذا مصّه مصّا شديدا فغلط في التأويل لا يشبه مص الفصيل الناقة بازدحام الناس ، وإنما هما قولان :

يقال : سميت مكة لازدحام الناس فيها ، ويقال أيضا : سميت مكة لأنها عبّدت الناس فيها فيأتونها من جميع الأطراف من قولهم : امتك الفصيل أخلاف الناقة إذا جذب جميع ما فيها جذبا فلم يبق فيها شيئا ، وهذا قول أهل اللغة .

وقال آخرون : سميت مكة لأنه لا يفجر فيها أحد إلا بكّت عنقه ، فكان يصبح وقد التوت عنقه .

وقال الشرقي : روى أن بكة اسم القرية ومكة مغزى بذى طوى لا يراه أحد ممن مرّ من أهل الشام والعراق واليمن والبصرة ، وإنما هي أبيات في أسفل ذي طوى .

وقال آخرون : بكة موضع البيت ، وما حول البيت مكة ، قال : وهذا خمسة أقوال في مكة غير ما ذكره ابن الأنباري :

قال : وقال عبيد الله الفقير إليه : ووجدت أنا أنها سميت مكة من مكّ الثدي ، أي مصّه ، لقلة مائها لأنهم كانوا يمتكون الماء أي يستخرجونه .

وقيل : إنها تمكّ الذنوب كما يمكّ الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئا .

وقيل : سميت مكة لأنها تمكّ من ظلم أي تنقصه ، وينشد قول بعضهم :

يا مكة الفاجر مكّى مكّا ولا تمكّي مذحجا وعكّا

وروى عن مغيرة بن إبراهيم قال : بكة موضع البيت ، وموضع القرية مكة .

وعن يحيى بن أبى أنيسة قال : بكة موضع البيت ، ومكة هو الحرم كله .

وقال زيد بن أسلم : بكة الكعبة والمسجد ، ومكة ذو طوى وهز بطن الوادي الذي ذكره الله تعالى في سورة الفتح ، ولها أسماء غير ذلك وهي :

مكة وبكة ، والنساسة وأم رحم وأم القرى ومعاد والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها ، وسمي البيت العتيق لأنه عتق من الجابرة .

والرأس لأنها مثل رأس الإنسان ، والحرم وصلاح والبلد الأمين والعرش والقادس لأنها تقدس من الذنوب أي تطهر ، والمقدسة والناسية والباسة ، بالباء الموحدة لأنها تبس أي تحطم الملحدين ، وقيل تخرجهم ، وكوثى باسم بقعة كانت منزل بني عبد الدار ، والمذهب في قول بشر بن أبى خازم :

وما ضمّ جياذ المصلّى ومذهب

وسماها الله تعالى أم القرى ، فقال : ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

وسماها الله تعالى البلد الأمين ، في قوله تعالى في سورة : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۚ وَطُورِ سِينِينَ ۚ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۚ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۚ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ۚ ﴾ .

وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ .

وقال تعالى أيضا على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ .

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة وقف على الحزورة قال : (أني لا أعلم أنك أحب البلاد إلي وأنت أحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن المشركين اخرجوني منك ما خرجت) .

قلت : لأهمية مكة بالنسبة للمسلمين ، فإنه قد كتب في تاريخها مؤلفات كثيرة تتحدث عن تاريخها من كل جوانبه ، من أشهرها كتاب (أخبار مكة للأزرقي) ، وكتاب (أخبار مكة للفاكهي) ، وكتاب (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي) ، وغيرها من المؤلفات .

وبما أن مكة لها شهرة إسلامية وتاريخية وحضارية تغني عن الحديث عنها فإنني أكتفي بهذا القدر ، ولا يتسع مقامنا هذا لذكر كل ما هو هام من أخبار بيت الله الحرام .

مناة : بميم مفتوحة بعدها نون موحدة وبعد النون ألف وتاء مربوطة : آلهة تعبد في الجاهلية في المشلل بين مكة والمدينة .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير ، عن قتادة : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ ﴾ قال : أما مناة فكانت بقديد ، آلهة كانوا يعبدونها ، يعني اللات والعزى ومناة .

(١) سورة النجم الآية رقم : ١٩ - ٢٠ .

وروى بسنده عن ابن زيد ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى ﴾ قال : مناة بيت كانت بالمشلل يعبده بنو كعب .

وقال ابن كثير : وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها بالحج إلى الكعبة .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى ﴾ ، قيل : سمّي بذلك لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه . وبذلك سميت منى لكثرة ما يراق فيها من الدماء .

وفي الصحاح : ومناة اسم صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهي لغة ، والنسبة إليها منوى .

وروى البخاري بسنده عن عروة قال : سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها : رأيت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فوالله ما على أحد جناح أن يطوف بالصفاء والمروة ، قالت بئس ما قلت يا ابن أختي إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل .

قال ابن حجر : المشلل : بضم أوله وفتح المعجمة ولا مين الأولى مفتوحة مثقلة : هي الثنية المشرفة على قديد ، زاد سفيان عن الزهري : المشلل من قديد ، أخرجه مسلم وأصله للمصنّف ... وكانت مناة ببطن قديد أي مقابله وقديد بقاف مصغر قرية جامعة بين مكة والمدينة كثيرة الماء قاله أبو عبيد الله البكري .

وقال الحربي : المشلل قبل قديد بثلاثة أميال- يعني لمن أتى من المدينة- وهي التي كانت عندها مناة الطاغية في الجاهلية ، وقبل قديد مسجد النبي ﷺ ، ويقال : كانت عند بيت أم معبد .

قال ياقوت : المشلل : بالضم ثم الفتح ، وفتح اللام أيضا ، والشل الطرد : وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر ، قال السرجي :

ألا قل لمن أسمى بمكة قاطنا ومن جاء من عمق ونقب المشلل

قال البكري : المشلل : بضم أوله وفتح ثانيه ، وفتح اللام وتشديدها ، وهي ثنية مشرفة على قديد ، وقال مزرد :

تدبّ مع الرّكبان لا يسبقونها وحلّت بجنبي عزور والمشلل

قال يعقوب : عزور واد قريب من المدينة ، والمشلل : جبل وراء على موطن الطريق . قال نصيب :

صفا سرب الحبل الدميث المحلل ففرش الجبيل بعدنا فالمشلل
فذو سلم فالسفح إلا منازلنا به من مغانيها حديث ومحول
وقال عمر بن أبي ربيعة :

هاجني منها على النأي دمنة لها بقديد دون نصف المشلل

قال الواقدي : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث السرايا ، فبعث خالد بن الوليد إلى العزى ، وبعث إلى ذي الكفين- صنم عمرو بن حممة- الطفيل بن عمرو الدومي فجعل يحرقه بالنار ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا
أنا حششت النار في فؤادكا

وبعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل فهدمه .
قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ، ومن دان
بدينهم من أهل يثرب ، على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد .

قلت : يفهم من أقوال العلماء المتقدمة أن المشلل قريب من
قديد ولم يختلفوا في ذلك وقديد بلدة مازالت معروفة دائرة ،
والمشلل كذلك مازال معروفا باسمه ، وهو غير بعيد من قديد .

وقد وصفه عاتق البلادي وصفا جغرافيا وحدد المسافة بينه وبين
قديد من خلال زيارته لهذه المواضع ، قال : المشلل : وتعرف حرّة المشلل
اليوم بالقديدية ، نسبة إلى قديد الوادي المعروف ، تراها على يمينك
وأنت تتجاوز القضية ، ذاهبا إلى المدينة ، مستطيلة من المشرق إلى المغرب
مع انحراف إلى الجنوب ، وثنية المشلل بأسفل هذه الحرّة يمر طريق مكة
إلى المدينة اليوم على مرأى فيها يدعه يمينه لازالت جادتها ماثلة للعيان
، تهبط جنوبا على خيمتي أم معبد وبها أكمة كثيرة حجارة المرو .

قلت : وقد ذكر الحربي أن بين المشلل وقديد ثلاثة أميال ، وقد
اتفقت أقوال العلماء على أن صنم مناة كان في المشلل كما اتفقوا
على تحديد موقع المشلل على الطريق بين مكة والمدينة .

وببعد المشلل وقديد عن مكة شمالا مائة وخمسة وعشرين ميلاً
تقريباً .



نسر : بنون موحدة مفتوحة وسين مهملة ساكنة وآخره راء
مهملة : صنم لذى الكلاع من حمير .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبرا عن إخبار نوح عن قومه ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ كان هؤلاء نفر من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان (ودّ) لهذا الحي من كلب بدومة الجندل ، وكان (سواع) لهذيل برياط ، وكان (يغوث) لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان (يعوق) لهمدان ببلخ ، وكان نسر لذى كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدونها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

قال ياقوت : نسر : أحد الأصنام الخمسة التي كان يعبدها قوم نوح ، عليه السلام ، وصارت إلى عمرو بن لحي ودعا القوم إلى عبادتها فكان فيمن أجابه حمير فأعطاهم نسرا ودفعه إلى رجل من ذي رعين يقال له معدي كرب فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخ ، فعبدته حمير ومن والاها فلم تزل تعبد حتى هودهم ذو نواس ، وقال الأخطل :

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

أما دمء مائرات تخالها على قلة العزى وبالنسر عندنا
وما سبّح الرحمن في كل بيعة أبي الأبيلىن المسيح ابن مريما
لقد ذاق منّا عامريوم لعلع حساما إذا ما هزّ بالكفّ صمما

قال ياقوت : نسر : بالفتح ثم السكون . موضع في شعر
الحطيئة من نواحي المدينة ذكرها الزبير في كتاب العقيق وأشد
لأبي وجرة السعدي :

بأجماد العقيق إلى مراخ فنعف سويقة فنعاف نسر

قلت : وقد استوفيت الحديث عن هذه الأصنام الخمسة مفصلاً
في رسم (سواع) بما يغني عن الإعادة .

النهر : بنون موحدة مفتوحة وهاء مفتوحة وآخره راء مهملة :
قيل نهر بين الأردن وفلسطين ، وقيل هو نهر فلسطين .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ
فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ : إن الله
مختبركم ليعلم كيف طاعتكم له . و (النهر) الذي أخبرهم طالت
أن الله مبتليهم به ، قيل : هو نهر بين الأردن وفلسطين .

ويسنده عن الربيع قال : ذكر لنا ، والله أعلم ، أنه نهر بين
الأردن وفلسطين . ويسنده عن قتادة : قال : ذكر لنا أنه نهر بين
الأردن وفلسطين .

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٢٤٩ .

وبسنده عن ابن عباس قال : نهر بين فلسطين والأردن ، نهر عذب الماء طيبة .

وقال آخرون : بل هو نهر فلسطين .

وبسنده عن ابن عباس ، قال : النهر الذي ابتلي به بنوا إسرائيل نهر فلسطين . وبسنده عن السدي : هو نهر فلسطين .

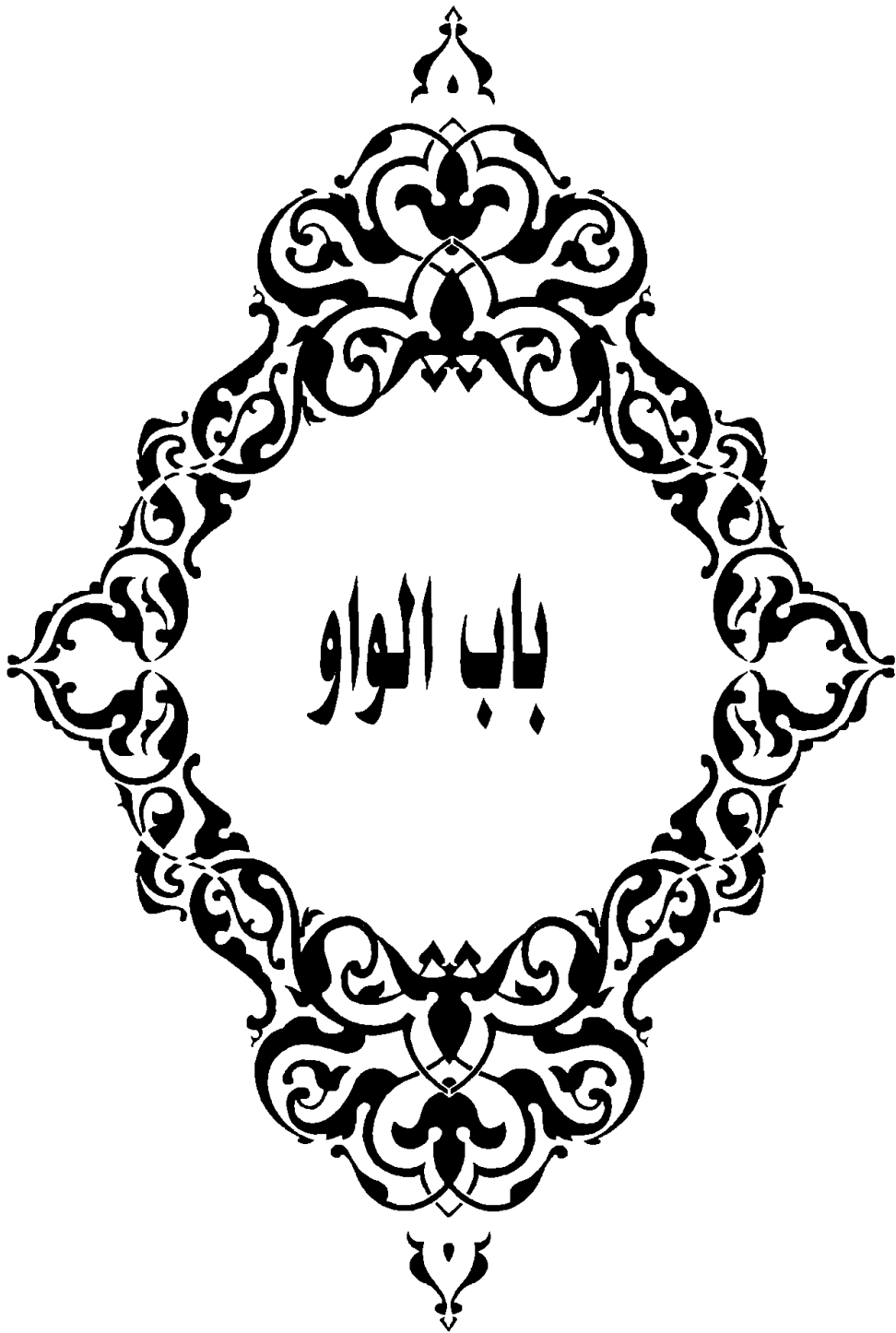
وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ، ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً ، فآله أعلم ، أنه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ ﴾ أي مختبركم بنهر ، قال ابن عباس وغيره : هو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ، ﴿ فَمَنْ شَرَبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ ، أي فلا بأس عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ قال ابن جريج : قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روى ، ومن شرب منه لم يرو . وكذا رواه السدي عن أبي مالك ، عن ابن عباس ، وكذا قال قتادة وابن شوزب .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾

معناه خرج بهم . قال وهب ابن منبه : إن الله مبتليكم بنهر . وكان عدد الجنود في قول السدي ثمانين ألفاً . وقال وهب لم يتخلف عنه إلا ذو عذر من صغر أو كبر أو مرض . والابتلاء الاختبار . والنهر الذي ابتلاهم الله به هو نهر بين الأردن وفلسطين . ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم ، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه مطيع فيما عدا ذلك ، ومن غلبته شهوته في الماء وعصى الأمر فهو في العصيان في الشدائد أخرى .

فروى أنهم أتوا النهر وقد نالهم عطش وهو في غاية العذوبة والحسن ، فلذلك رخص للمطيعين في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال . وبين أن الغرفة كافة ضرر العطش عند الحزمة الصابرين على شظف العيش الذين همهم في غير الرفاهية .

قلت : وفيما تقدم من أقوال المفسرين نرى أنهم اختلفوا في النهر الذي ابتلى الله به قوم طالوت فقال بعضهم: إنه نهر فلسطين وقال الآخرون: إنه نهر بين الأردن وفلسطين يعني نهر الشريعة المشهور ، وعلى كلا القولين فإن هذا النهر الذي ابتلوا به لا يخرج عن حدود بلاد الشام .



واد : بواو مفتوحة بعدها ألف ودال مهملة : المقصود به مكة .

قال الله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾^(١).

قال ابن جرير : قال إبراهيم خليل الرحمن هذا القول حين أسكن إسماعيل وأمه هاجر فيما ذكر مكة .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : إن أول من سعى بين الصفا والمروة لأم إسماعيل ، وإن أول من أحدث نساء العرب جرّ الذبول لمن أم إسماعيل ، قال : ولما فرّت من سارة أرخت من ذيلها لتعفى اثرها ، فجاء إبراهيم ومعها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت ، فوضعهما ثم رجع ، فأتبعته فقالت : إلى أي شيء تكلنا ؟ إلى طعام تكلنا ؟ إلى شراب تكلنا ؟ فجعل لا يردّ عليها شيئاً ، فقالت : آ الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا . قال : فرجعت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادي فدعا فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

قال : ومع الإنسانية شنة فيها ماء ، فنض الماء فعطشت وانقطع لبنها فعطش الصبي فنظرت أيّ الجبال أدنى من الأرض فصعدت بالصفاء فتسمعت هل تسمع صوتاً ، أو ترى أنيساً ؟ فلم تسمع فأنحدرت ، فلما أتت على الوادي سمعت وما تريد السعي ، كالإنسان المجهود الذي

(١) سورة إبراهيم الآية رقم : ٣٧ .

يسعى وما يريد السعي ، فنظرت أي الجبال أدنى من الأرض فصعدت المروة فتسمعت هل تسمع صوتا ، أو ترى أنيسا ؟ فسمعت صوتا ، فقالت كالإنسان الذي يكذب سمعه : صه ، حتى استيقنت ، فقالت : قد أسمعتني صوتك فأغثني فقد هلكت وهلك من معي ؟ فجاء الملك بها حتى انتهى بها إلى موضع زمزم ، فضرب بقدمه ففارت عينا ، فعجلت الإنسانية فجعلت في شنتها ، فقال رسول الله ﷺ : (رحم الله أم إسمه عدل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عينا معينا) .

وقال لها الملك : لا تخافي الظمأ على أهل هذا البلد ، فإنما هي عين لشرب ضيفان الله ، وقال : إن أبا هذا الغلام سيجئ فيبينان لله بيتا هذا موضعه ، قال : ومرت رفقة من جرهم تريد الشام ، فأروا الطير على الجبل ، فقالوا : إن هذا الطير لعائف على ماء ، فهل علمتم بهذا الوادي من ماء ؟ فقالوا : لا ، فأشرفوا فإذا هم بالإنسانية ، فأتوها فطلبوا إليها أن ينزلوا معها فأذنت لهم ، قال : وأتى عليها ما يأتي على هؤلاء النساء من الموت فماتت ، وتزوج إسماعيل امرأة منهم .

وروى بسنده عن ابن عباس أيضا : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ قال : أسكن إسماعيل وأمه مكة .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ .

روى البخاري عن ابن عباس : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل : اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد .

وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قضى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل ، فقالت يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آ الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ - الآية ثم أكمل القرطبي الحديث بطوله كما هو عند ابن جرير .

وقال الشوكاني : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ أي لا زرع فيه وهو وادي مكة ، ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ أي الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره وقيل إنه محرم على الجابرة وقيل : محرم من تنتهك حرمة أو يستخف به .

قلت : فيما تقدم اتفق المفسرون على أن الوادي الذي أسكن فيه إبراهيم ذريته هو وادي مكة ، وأنه أسكنهم مكانا من الوادي قريبا من بيت الله الحرام .

الواد : كالذي قبله : واد في الشام عند الطور .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ^(١) .
وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة طه الآية رقم : ١٢ .

(٢) سورة القصص الآية رقم : ٣٠ .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ^(١).

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره فلما أتى النار موسى ، ناداه ربه : ﴿ يَمُوسَى ﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ

وروى بسنده عن وهب بن منبه قال : خرج موسى نحوها يعني النار فإذا هي في شجر من العليق ، وبعض أهل الكتاب يقول في عوسجة ، فلما دنا استأخرت منه . فلما رأى استئخارها رجع عنها ، فلما سمع الصوت استأنس وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَمُوسَى ﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿ فخلعها فألقاها .

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله أمر الله موسى بخلع نعليه ، فقال بعضهم : أمره بذلك لأنهما كانتا من جلد حمار ميت فكره أن يطأ بهما الوادي المقدس ، وأراد أن يمسه من بركة الوادي .

وروى بسنده عن عكرمة ، في قوله ﴿ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ ﴾ : كانتا من جلد حمار ميت .

وروى بسنده عن قتادة مثله .

وروى بسنده عن الحسن : كانتا يعني نعلى موسى من بقر ، ولكن إنما أراد الله أن يباشر بقدميه بركة الأرض وكان قد قدس مرتين .

قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : أمره الله تعالى بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي ، إذ كان وادياً مقدساً .

وانما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب لأن لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعهما من أجل أنهما من جلد حمار ولا لنجاستهما .

وروى بسنده عن مجاهد : قوله : ﴿ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ قال ابن عمرو في حديثه عند الطور . وقال الحارث في حديثه ﴿ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ عند الطور عن يمين موسى .

وبسنده عن مجاهد : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ قال شق الوادي عن يمين موسى عند الطور .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ المقدس : المطهر والقدس : الطهارة والأرض المقدسة أي المطهرة ، سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين .

وطوى : اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطوي ، وقال الجوهرى : طوى : اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، ويصرف ولا يصرف .

قال ابن كثير : قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج وكل ما لتلك النار في اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد ، فوقف متعجباً

وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وكان موسى في واد اسمه (طوى) فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربّه بالواد المقدّس طوى ، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيّما في تلك الليلة المباركة

قلت : هذا خلاصة ما قاله المفسّرون في التعريف بالواد المقدّس طوى .

الواد : أيضاً كالذي قبله : يراد به وادي ثمود ، (وادي القرى) .

قال الله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾^(١).

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : بعث من أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه مالا بالواد بمال له بخيبر .

قال ابن جرير : وقوله : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يقول : وثمود الذين خرقوا الصخر ودخلوه ، فاتخذوه بيوتا ، كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾^(٢) والعرب تقول : جاب فلان الفلاة يجوبها جوبا : إذا دخلها وقطعها ، ومنه قول نابغة :

أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى دجى الليل جواب الفلاة عميم

يعني بقوله : يجوب : يدخل ويقطع .

(١) سورة الفجر الآية رقم : ٩ .

(٢) سورة الحجر الآية رقم : ٨٢ .

وروى بسنده عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يقول : فخرقوها .

وروى بسنده عن مجاهد ، في قوله : ﴿ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ قال : جابوا الجبال ، فجعلوها بيوتا .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ : جابوها ونحتوها بيوتا .

وروى بسنده عن قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، قال : أصحاب الوادي .

وقال الشوكاني : وقوله تعالى : ﴿ بِالْوَادِ ﴾ متعلق بجابوا او بمحذوف على أنه حال من الصخر ، وهو وادي القرى .

وقال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي ، قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها ، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد ، ومنه يقال : مجتابي النمار إذا خرقوها واجتأب الثوب إذا فتحه ومنه الجيب أيضا ، وقال الله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ وأنشد ابن جرير وابن أبي حاتم ههنا قول الشاعر :

ألا كل شيء ما خلا الله بائد كما باد حي من شنيق ومارد
همو ضربوا في كل صماء صعدة بأيد شداد أيادات السواعد

وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادي القرى .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .

ثمود : هم قوم صالح ، و ﴿ جَابُوا ﴾ : قطعوا ، ومنه : فلان يجوب

البلاد ، أي يقطعها ، وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب ، أي قطع ، قال الشاعر ، وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة ، فكتب له بستان وسقا يأخذها بالكوفة ، فقال :

راحت رواحا قلوصى وهي حامدة	أل الزبير ولم تعدل بهم أحدا
راحت بستان وسقا في حقيبتها	ما حملت حملها الأدنى ولا السدا
ما إن رأيت قلوصا قبلها حملت	ستان وسقا ولا جابت به بلدا

أي قطعت ، قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصور والرخام : ثمود ، فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة ألف ، كلها من الحجارة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ ، وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور ، وينقبون الجبال ، ويجعلونها بيوتا لأنفسهم (بالوادي) أي بوادي القرى .

وقال ابن حجر في شرح حديث عبد الله بن عمر :

ونص الحديث (بعث من أمير المؤمنين عثمان مالا بالوادي بمال له بخيبر فلما تباعنا رجعت على عقبى حتى خرجت من بيته خشية أن يرادني البيع وكانت السنة أن المتبايعين بالخيار حتى يتفرقا ، قال عبد الله فلما وجب بيعي وبيعه رأيت أنني قد غبنته بأنني سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال ، وساقني إلى المدينة بثلاث ليال) .

الوادي : يعني وادي القرى ، وقوله : (سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال) أي زدت المسافة التي بينه وبين أرضه التي صارت إليه على المسافة التي كانت بينه وبين (أرضه التي باعها بثلاث ليال) . وقوله : (وساقني إلى المدينة بثلاث ليال) يعني أنه نقص المسافة التي بيني وبين أرضي التي أخذ بها عن المسافة التي كانت وبين أرضي التي بعثها بثلاث ليال ، وإنما قال إلى المدينة لأنهما جميعاً كانا بها ، فرأى ابن عمر الغبطة في القرب من المدينة .

قلت : وبهذا يتبين مقدار المسافة بين المدينة وبين وادي القرى وهي مسيرة ست ليال إلى أقرب مكان فيه ويتبين أن المسافة بين المدينة وبين خيبر مسيرة ثلاث ليال .

وقد اتفق المفسرون على أن (الواد) الذي ورد ذكره في سورة (الفجر) أنه وادي القرى .

وفي رسم (الحجر) مزيد من الإيضاح عن هذا الوادي ، وكذلك في رسم (وادي القرى) في معجم أمكنة صحيح البخاري دراسة وافية عن هذا الوادي .

ودّ : بواو مفتوحة ودال مهملة مشددة : صنم بقبيلة كلب بدومة الجندل .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ ^(١) .

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

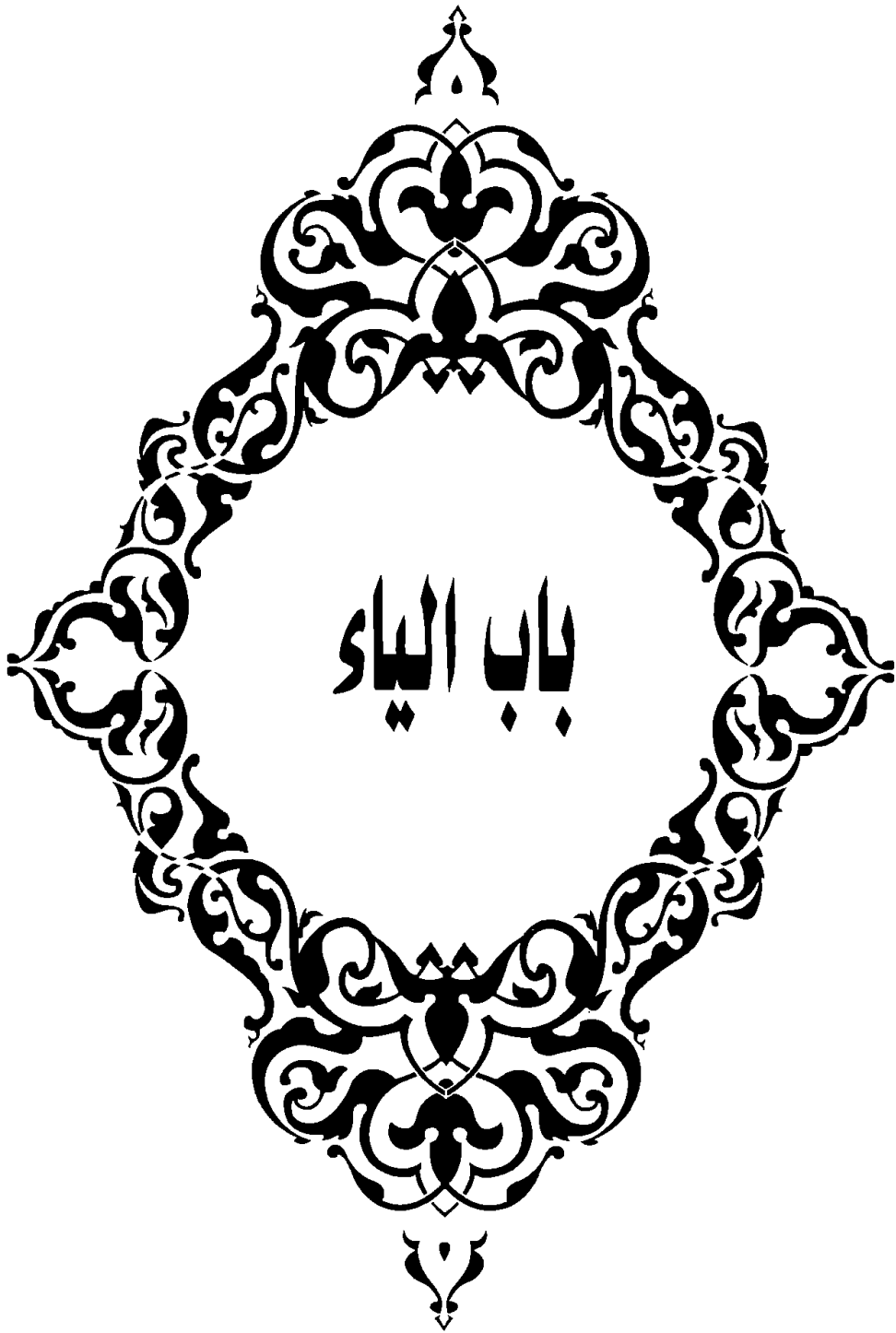
قال ابن جرير : يقول تعالى مخبرا عن أخبار نوح عن قومه ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ كان هؤلاء نضرا من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان ودّ لهذا الحي من كلب بدومة الجندل ، وكان سواع لهذيل برياط ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذي كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

وقال ياقوت : ودّ : صنم كان لقوم نوح ، عليه السلام ، وكان لقريش أيضا صنم اسمه ودّ ويقولون أدّ أيضا ، قال ابن حبيب : ودّ كان لبني وبرة وكان بدومة الجندل وكانت سدانته لبني الفرافصة ابن الأحوص الكلبين ، قال الشاعر :

حَيَّاكَ وَدٌّ وَإِنَّا لَا يَحِلُّ لَهُ لهُوَ النِّسَاءُ وَإِن الدِّينَ قَدْ عَزَمَا

قلت : وقد استوفيت الحديث عن هذه الأصنام الخمسة مفصّلا في رسم (سواع) بما يغني عن الإعادة .



يثرب : بياء مثناة مفتوحة وثاء مثلثة ساكنة وراء مهملة
مكسورة وآخره باء موحدة : اسم من أسماء المدينة المنورة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا
مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ ^(١) .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قدم
رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم وقد وهمهم
حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرمّلوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا
ما بين الركنين .

قال ابن القيم : ولما قدم النبي ﷺ المدينة ، واسمها يثرب لا تعرف
بغير هذا الاسم ، غيره بطيبة لما زال عنها ما في لفظ يثرب من التشريب
بما في معنى طيبة من الطيب ، استحققت هذا الاسم ، وزدادت به طيبا
آخر ، فأثر طيبها في استحقاق الاسم ، وزادها طيباً إلى طيبها .

روى ابن شبة بسنده عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : أنهم كانوا
يقولون : (المدينة) و (يثرب) ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله سماها طابة .

وروى بسنده عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن قال ، قال
النبي ﷺ : من قال للمدينة يثرب فليقل : أستغفر الله - ثلاثا ، هي
طابة ، هي طابة ، هي طابة .

وروى بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال ، قال رسول
الله ﷺ : من قال للمدينة يثرب ، فليستغفر الله ، هي طابة ثلاث مرات .

(١) سورة الأحزاب الآية رقم : ١٣ .

وروى بسنده عن أبي أيوب : أن رسول الله ﷺ نهى أن يقال للمدينة يثرب .

وقال ابن النجار : وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال : (هي المدينة يثرب) ، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : (يثرب اسم أرض) ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها .

وقال ابن زبالة : كانت يثرب أم قرى المدينة وهي ما بين طرف (قناة) إلى طرف (الجرف) وما بين المال الذي يقال له البرناوي إلى زبالة .

قال المراغي : كراهية بعض العلماء تسمية المدينة يثرب : وقد ذكره بعض العلماء تسميتها يثرب لقوله ﷺ يقولون يثرب وهي المدينة ، ولما في مسند أحمد عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله هي طابة هي طابة .

وتسميتها في القرآن يثرب حكاية عن قول غير المؤمنين حتى قال عيسى بن دينار : ومن سماها يثرب ، كتبت عليه خطيئة ، وسبب الكراهة إما لكونه مأخوذاً من الثرب وهو الفساد ، أو من التثريب وهو المؤاخذة بالذنب ، وكان عليه السلام يحب الاسم الحسن ولهذا سماها ﷺ : طابة وطيبة ، لما في اسم طيبة من الطيب وهو موجود في المدينة ، حتى ذكروا أنه يوجد أبداً في رائحة هوائها وتربتها أو سائر أمورها ، أو لموافقتها من قوله تعالى : ﴿ بَرِّحْ طِيبَةً ﴾ أو لطهارتها من الكفر لقوله تعالى : ﴿ أَلَطِّبْتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ والطيب والطاب لغتان .

وكانت يثرب منازل بني حارثة بن الحارث : بطن من الأوس ، وكانت قبل نزول الأوس والخزرج أم قرى المدينة وبها كان معظم اليهود .

وفي حديث أبي ذرٍّ من قول النبي ﷺ لعليٍّ إني قد أمرت أن أسير إلى بلدة بين المسجدين يقال لها يثرب وما أراك إلا صاحبي ، إشعار بعدم كراهة تسميتها به ، ويقويه ما في الصحيحين هي المدينة يثرب والله أعلم ، لكن ما حكى أن في بني حارثة نزل قوله تعالى في يوم الأحزاب : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ يؤكد ما تقدم .

وقال ياقوت : يثرب : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وكسر الراء ، وباء موحدة ، قال أبو القاسم الزجاجي : يثرب مدينة رسول الله ﷺ سميت بذلك لأن أول من سكنها عند التفرق يثرب بن قانية بن مهلائيل بن ارم بن عبيل بن عوض بن ارم بن سام بن نوح ، عليه السلام ، فلما نزلها رسول الله ﷺ ، سماها طيبة وطابة كراهية للتثريب ، وسميت مدينة الرسول لنزوله بها ، قال : لو تكلف متكلف أن يقول في يثرب إنه يفعل من قولهم لا تثريب عليكم أي لا تعبير ولا عيب كما قال الله تعالى : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ ﴾ ، قال المفسرون وأهل اللغة : معناه لا تغيير عليكم بما صنعتم ، ويقال : أصل التثريب الإفساد ، ويقال : ثرب علينا فلان ، وفي الحديث : إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثرب ، أي لا يعير بالزنا ، ثم اختلفوا فقل إن يثرب للناحية التي منها مدينة الرسول ﷺ ، وقال آخرون : بل يثرب ناحية من مدينة النبي ﷺ ، ولما حملت نائلة بنت الفرافصة إلى عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، من الكوفة قالت تخاطب أخاها :

أحقاً تراه اليوم يا ضبّ أنني	مصاحبة نحو المدينة أركبا ؟
لقد كان في فتیان حصن بن ضمضم	لك الويل ما يجري الخباء والمعجبا
قضى الله حقاً أن تموتي غريبة	بيثرب لا تلقين أمّا ولا أبا

قال ابن عباس ، رضي الله عنهما : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثاً إنما هي طيبة ، وقال النبي ﷺ ، لما هاجر : اللهم إنك أخرجتني من أحب أرضك إليّ فأسكنني أحب أرضك إليك ، فأسكنه المدينة .

قلت : فيما تقدّم يتبيّن أن للمدينة عدداً من الأسماء عرفت بها بعد هجرة النبي ﷺ إليها ، وأن اسمها القديم التي كانت تعرف به قبل نزول النبي ﷺ فيها هو يثرب ، كما يتّضح مما تقدّم كراهية بعض العلماء لتسمية المدينة يثرب بعد أن سماها النبي ﷺ طيبة .

ولما لهذه المدينة الطيبة من الشهرة الإسلامية والتاريخية فإنني أكتفى بهذا القدر من الحديث عن اسمها يثرب ، وفي رسم المدينة - وفي رسم طابة مزيد من الإيضاح والتفصيل عن أسماء المدينة المنورة .

يعوق : بياء مثناة مفتوحة وعين مهملة مضمومة بعدها واو ساكنة وآخره قاف مثناة ، صنم لهماذان ببلخع .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبراً عن إخبار نوح عن قومه ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ كان هؤلاء نضراً من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان ودّ لهذا الحي من كلب بدومة الجندل ، وكانت سواع لهذيل برياط ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذي كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

وقال ياقوت : يعوق : اسم صنم كان لهمدان وخولان وكان في أرحب ، ويعوق من الأصنام الخمسة التي كانت لقوم نوح ، عليه السلام ، وأخذها عمرو بن لحيّ من ساحل جدّة ، كما ذكرناه في ودّ ، وأعطاها لمن أجابه إلى عبادتها فأجابته إلى عبادتها همدان فدفع إلى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف بن همدان يعوق فكان بقرية يقال لها خيوان تعبد همدان ومن والاه من أرض اليمن .

قلت : وقد استوفيت الحديث عن هذه الأصنام الخمسة مفصّلاً في رسم (سواع) بما يغني عن الإعادة .

يغوث : بياء مثناة مفتوحة وغين معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة وآخره ثاء مثلثة : صنم لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾^(١) .

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبرا عن إخبار نوح عن قومه ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ كان هؤلاء نضراً من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان ودّ لهذا الحي من كلب بدومة الجندل ، وكانت سواع لهذيل برياط ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذي كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

وقال ياقوت : يعوق : صنم من أصنام قوم نوح الخمسة المذكورة في القرآن أخذها عمرو بن لحي من ساحل جدة وفرّقها فيمن أجابه من العرب إلى عبادتها ، كما ذكرناه في ودّ ، فكان ممن أجابه إلى عبادتها مذحج فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي يغوث وكان بأكمة باليمن يقال لها مذحج يعبده مذحج ومن والاه ولم يزل في هذا البطن من مراد أنعم وأعلى إلى أن اجتمعت أشراف مراد وقالوا : ما بال إلها لا يكون عند أعزائنا وأشرافنا وذوي العدد منا : وأرادوا أن ينتزعوه من أعلى وأنعم ويضعوه في أشرافهم ، فبلغ ذلك من أمرهم إلى أعلى وأنعم فحمله يغوث وهربوا به حتى وضعوه في بني الحارث ووافق ذلك مراداً أعداء الحارث بن كعب وكانت مراد من أشدّ العرب فأنفذوا إلى بني الحارث يلتمسون ردّ يغوث إليهم ويطالبونهم بدمائهم عليهم فجمعت بنو الحارث واستنجدت قبائل همدان وكانت بينهم وقعة الرزم في اليوم الذي أوقع النبي ﷺ ، بقريش ببدر فهزمت بنو الحارث مراد هزيمة قبيحة وبقي يغوث في بني الحارث .

قلت : وقد استوفيت الحديث عن هذه الأصنام الخمسة مفصلاً
في رسم (سواع) بما يغني عن الإعادة

اليَمِّم : بياء مثناة مفتوحة بعدها ميم : المقصود باليَمِّم في
هاتين الآيتين نهر النيل المعروف في مصر .

قال الله تعالى : ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ
فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ
عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ ^(٢) .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ : النيل ،
يقول تعالى : فاقذفه في اليم يلقه اليم بالساحل .

ويسنده عن ابن إسحاق ، قال : لما ولدت موسى أمه أرضعته ،
حتى إذا أمر فرعون بقتل الولدان من سنته تلك عمدت إليه ، فصنعت
به ما أمرها الله تعالى ، جعلته في تابوت صغير ، ومهدت له فيه ، ثم
عمدت إلى النيل فقذفته فيه ، وأصبح فرعون في مجلس له كان يجلسه
على شفير النيل كل غداة ، فبينما هو جالس ، إذ مرّ النيل بالتابوت
فقذف به وأساة ابنة مزاحم امرأته جالسة إلى جنبه ، ففتح التابوت فإذا
فيه صبي في مهد . فألقى الله عليه محبته ، وعطف عليه نفسه ، وعنى
جلّ ثناؤه بقوله : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ فرعون هو العدو ،
كان لله ولموسى .

(١) سورة طة الآية رقم : ٣٩ .

(٢) سورة القصص الآية رقم : ٧ .

وقال ابن كثير : هذا تذكير من الله لموسى بنعمه عليه ، فقد كان من أمر أمّه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، لأنه كان قد ولد في السنة التي كانوا يقتلون فيها الغلمان ، فاتخذت له تابوتا ، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل ، وتمسكه إلى منزلها بحبل ، فذهبت مرة لتربط الحبل فانظلت منها ، وذهب به البحر ، فحصل لها من الغيم والهم ما ذكره الله عنها في قوله : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ أي قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربّي إلا على فراش فرعون ، ويغذي بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴿ أي عند عدوك جعلته يحبك ، قال سلمة بن كهيل : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ قال : حببتك إلى عبادي ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ قال أبو عمران الجوني : تربّي بعين الله ، وقال قتادة : تغذّي على عيني . وقال معمر بن المثنى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ بحيث أرى ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف ، غذاؤه عندهم غذاء الملك فتلک الصنعة .

وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ يقول تعالى ذكره : فجمعنا فرعون وجنوده من القبط ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ يقول : فألقيناهم جميعهم في البحر فغرقناهم فيه ، وذكر أن ذلك بحر من وراء مصر .

ويسنده عن قتادة : ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ قال : كان اليم بحراً يقال له اساف من وراء مصر غرقهم الله فيه .

قلت : وقد تقدّم في رسم (البحر) أن فرعون وقومه كان هلاكهم في بحر القلزم الذي أغرقهم الله فيه جميعاً .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ يقول : ثم لنذريته في البحر تذريه ، يقال فيه : نسف فلان الطعام بالمنسف إذا ذراه فطير عنه قشوره وترا به باليد أو الريح .

ويسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ يقول لنذريته في البحر .

ويسنده عن ابن عباس أيضا ، قال : ذراه في اليم واليم البحر .

ويسنده عن السدي ، قال : ذراه في اليم .

ويسنده عن قتادة : في اليم ، قال : في البحر .

(١) سورة طة الآية رقم : ٩٧ .

قلت : مما تقدّم من أقوال المفسّرين يتبيّن أن المقصود في (اليَم) الذي كانت أم موسى تلقي فيه ابنها هو نهر النيل المعروف في مصر .

أما المقصود به في الآية التي ذكر الله فيها أنه نبذ فرعون وجنوده في اليَم ، فيتبين أن المقصود باليم في هذه الآية البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه .

وكذلك فإن اليم المقصود في الآية الكريمة التي نسف فيها الإله الذي اتخذ السّامريّ في بني إسرائيل بحر من البحار القريبة من مصر .

وجاء في القرآن الكريم التعبير (باليم) عن البحر كذلك عن النهر ، وهو لغة فيهما ، قال في لسان العرب عن الليث : اليَمّ البحر الذي لا يدرك قعره ولا شطّاه ، وعن الرّجاج : اليَمّ البحر ، وزعم بعضهم أنها لغة سريانية فعربته العرب .

ويقع اسم اليَمّ على ما كان مأوّه ملحا زعاقا ، وعلى النهر الكبير العذب الماء ، وأمرت أم موسى حين ولدته وخافت عليه فرعون أن تجعله في تابوت ثم تقدّفه في اليَمّ ، وهو نهر النيل بمصر .



بيان بمراجع البحث

١	القرآن الكريم	
٢	تفسير القرآن العظيم	مطبعة الاستقامة بالقاهرة- الطبعة الثالثة / ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م المؤلف / اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .
٣	الجامع لأحكام القرآن	دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة / ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م المؤلف / محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .
٤	جامع البيان في تأويل القرآن	منشورات دار الكتب العلمية- بيروت المؤلف / محمد بن جرير الطبري .
٥	فتح القدير	منشورات المكتبة العصرية- بيروت المؤلف / محمد بن علي الشوكاني .
٦	صحيح البخاري	المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر استانبول- تركيا . المؤلف / محمد بن اسماعيل إبراهيم بن المغيرة البخاري .
٧	فتح الباري بشرح صحيح البخاري	توزيع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . المؤلف / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . حققة وصححه / عبد العزيز بن عبد الله بن باز .
٨	المناسك وأماكن طرق الحج	منشورات دار اليمامة سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م . المؤلف / إبراهيم بن أسحاق بن إبراهيم الحربي . تحقيق / حمد الجاسر .
٩	مرآة الحرمين	الطبعة الأولى- مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م . المؤلف / إبراهيم رفعت باشا .
١٠	تحقيق النصرة تلخيص معالم دار الهجر	منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة الطبعة الثانية- بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م . المؤلف / أبو الفخر المراغي . تحقيق / محمد عبد الجواد الأصمعي

١١	أطلس حافظ الطبعة السابعة عشر - ١٩٦٠ م عمل / أحمد حافظ .
١٢	عمدة الأخبار في مدينة المخـتار
١٣	القاموس الأسامي مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م المؤلف / أحمد عطية الله
١٤	فتوح البلدان مطبعة لجنة البيان العربي المؤلف / أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري
١٥	مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية
١٦	إدارة الآثار والمتاحف وزارة المعارف - المملكة العربية السعودية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
١٧	البداية والنهاية مطبعة كردستان العلمية بمصر ١٣٤٨ هـ . المؤلف / اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي بن كثير .
١٨	تقويم البلدان دار صادر - بيروت - طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية ١٨٥٠ مسيحية . المؤلف / إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفدا .
١٩	صفة جزيرة العرب منشورات دار اليمامة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م . المؤلف / الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني . تحقيق / محمد بن علي الأكويع الحوالي
٢٠	بلاد العرب الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م . المؤلف / الحسن بن عبد الله الأصفهاني . تحقيق / حمد بن محمد الجاسر .
٢١	معجم شمال المملكة منشورات دار اليمامة - الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م . المؤلف / حمد بن محمد الجاسر
٢٢	معجم المنطقة الشـرقية منشورات دار اليمامة - الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م . المؤلف / حمد بن محمد الجاسر

٢٣	في شمال غرب الجزيرة منشورات دار اليمامة - الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م المؤلف / حمد بن محمد الجاسر
٢٤	في سرة غامد وزهران منشورات دار اليمامة ١٣٩١ - ١٩٧١ م المؤلف / حمد الجاسر
٢٥	أطلس العالم منشورات دار مكتبة لبنان بيروت
٢٦	آثار البلاد وأخبار العـــبـــاد المؤلف / زكريا بن محمد بن محمود القزويني
٢٧	معجم عالية نجد منشورات دار اليمامة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م المؤلف / سعد بن عبد الله بن جنيدل
٢٨	معجم الأماكن الواردة في المعلقات العشـــــــــــــــــر إدارة الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م . المؤلف / سعد بن عبد الله بن جنيدل
٢٩	بلاد الجوف أو دومة الجــــــــــــــــندل الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م المؤلف / سعد بن عبد الله بن جنيدل
٣٠	أرض الأنبياء الطبعة الأولى ١٩٦٢ م . المؤلف / سنت جون فيلبى . تعريب / عمر الديراوي .
٣١	تاريخ حضرموت السيا مطبعة مصطفى البابى وأولاده بمصر . الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م . المؤلف / صلاح البكر .
٣٢	معجم معالم الحجاز الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م . المؤلف / عاتق بن غيث البلادي .
٣٣	على طريق الهجرة دار مكتبة للنشر والتوزيع . المؤلف / عاتق بن غيث البلادي .
٣٤	الروض الأنف المؤلف / عبد الرحمن السهيلي . المحقق / عبد الرحمن الوكيل .
٣٥	أثار المدينة المنورة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة . الطبعة الثالثة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م . المؤلف / عبد القدوس الأنصاري .

٣٦	بين التاريخ والآثار المؤلف / عبد القدوس الأنصاري الطبعة الأولى- بيروت ١٩٦٩ م .
٣٧	معجم ما استعجم مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م المؤلف / عبد الله بن عبد العزيز البكري - لسي تحقيق / مصطفى السفا
٣٨	عنوان المجد في تاريخ نجد طبعة وزارة المعارف- الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ المؤلف / عثمان بن عبد الله بن بشر .
٣٩	أسماء جبال تهامة وسكانها مطبعة أمين عبد الرحمن بالقاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ المؤلف / عرام بن الأصبغ السلمي تحقيق / عبد السلام محمد هارون
٤٠	الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى الطبعة الثانية عبد المنعم ماجد- على البنا
٤١	الكامل في التاريخ طبعة دار صادر ودار بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م المؤلف / علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير .
٤٢	وفاء الوفاء لأخبار دار المصطفى مطبعة السعادة بمصر- الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م المؤلف / علي بن أحمد السهموري تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد
٤٣	مروج الذهب دار الأندلس- بيروت الطبعة الأولى المؤلف / علي بن الحسين بن علي السعودي
٤٤	الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين مؤسسة علوم القرآن- بيروت المؤلف / علي محمد الأمين الشنقيطي
٤٥	تاريخ المدينة المنورة المؤلف / عمر بن شبه النميري البصري تحقيق / فهم محمد شلتوت
٤٦	النهاية في غريب الحديث والآثار دار احياء الكتب العربية- عيسى البابلي الحلبي وشركاء- الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م المؤلف / المبارك بن محمد الجزري بن الأثير تحقيق/ طاهر أحمد الزواوي ومحمود محمد الطناحي

٤٧	رحلة بطوطة دار صادر- دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٥هـ - ١٩٦٤م المؤلف / محمد بن غبراهيم اللواتي ابن بطوطة
٤٨	زاد المعاد في هدى خير الطبعة الخامسة عشر ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م مكتبة الرسالة ، مكتبة المنار الاسلاميه المؤلف / محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ابن القيم تحقيق / شعيب الأرنؤوط- عبد القادر الأرنؤوط
٤٩	رحلة ابن جبير دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م المؤلف / محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلس
٥٠	شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام دار احياء العربية ١٩٥٦م المؤلف / محمد بن أحمد بن علي الفاسي تحقيق / لجنة من كبار العلماء والأدباء .
٥١	التعريف بما أنست الهجرة من معالم الهجرة المكتبة العلمية- المدينة المنورة طبعة بيروت- ١٤٠٢هـ المؤلف / محمد بن أحمد المطرى
٥٢	أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه الطبعة الثانية- مطبعة دار خضر بيروت- ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م المؤلف / محمد بن أسحاق بن العباس الفاكهي تحقيق / عبد الملك بن عبد الله بن دهيش
٥٣	الطبقات الكبرى لابن سعد دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م المؤلف / محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى
٥٤	أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار مطابع دار الثقافة- مكة المكرمة الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م المؤلف / محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى تحقيق / رشدي الصالح ملحق
٥٥	صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م المؤلف / محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي
٥٦	السيرة النبوية مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م المؤلف / محمد بن عبد الملك بن هشام الحميري تحقيق / مصطفى السفا وزملائه

٥٧	كتاب المغازي للواقدي طبعة عالم الكتب الطبعة الثالثة بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م المؤلف / محمد بن عمر بن واقد تحقيق / مارسدن جونس
٥٨	تاريخ الدورة العلية العثمانية دار الجيل - بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م المؤلف / محمد فريد بك المحامي
٥٩	الروض المعطار في خبر الأقطار مطابع هيد الأبرغ بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٤ م المؤلف / محمد بن محمد الحميري تحقيق / احسان عباس
٦٠	الدرة الثمينة في تاريخ المدية دار احياء الكتب العربية ١٩٥٦ م المؤلف / محمد بن محمود بن النجار
٦١	تاج العروس من جواهر القاموس المطبعة الخيرية في مصر الطبعة الأولى ١٣٠٦ هـ المؤلف / محمد مرتضى الحسيني الزبيدي
٦٢	الفانم المطابقة في معالم طابسه منشورات دار اليمامة الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م المؤلف / محمد بن يعقوب الفيروز آبادي تحقيق / حمد الجاسر
٦٣	التعليقات والنوادر الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م المؤلف / هارون بن زكريا الهجري دراسة واختيارات / حمد الجاسر
٦٤	أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع منشورات دار اليمامة الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م المؤلف / هارون بن زكريا الهجري بقلم / حمد الجاسر
٦٥	المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الجزء الثامن ١٩٨٨ م المؤلف / ويم رافن ويان يوست ويتكام
٦٦	معجم البلدان دار صادر ، ودار بيروت للطباعة بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م المؤلف / باقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادى



فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥
□ باب الهمزة □	
الأحقاف	١٠
الأخدود	١٣
أدنى الأرض (بلاد الشام)	١٥
الأرض (مصر)	١٨
الأرض (مصر والشام)	١٩
أرضاً لم تطؤوها	٢٢
أرض التية (شبة جزيرة سيناء)	٢٣
الأرض المباركة (بلاد الشام)	٢٨
الأرض المقدسة (فلسطين وما حولها)	٣١
أرض فرعون وقومه (مصر)	٣٤
أرم ذات العمار	٣٦
أم القرى	٤٢
الأيكة (بلاد مدين)	٤٤
□ باب الباء □	
الباب (باب الحطة من بيت المقدس)	٥٠
الباب (باب الجبارين)	٥٢
الباب (الذي استبق عليه يوسف وأمرأة العزيز)	٥٣
الباب (أحد أبواب مصر)	٥٧
بابل	٥٨
البحر (بحر القلزم)	٦٣
البحر (بحر القلزم)	٦٨
بدر	٧٠
بطن مكة (موضع قرب مكة)	٧٨
بعل (صنم في بعلبك)	٨٢
بكة (مكة)	٨٦

الموضوع	رقم الصفحة
البلد (مكة البلد الحرام)	٩١
البيت (البيت الحرام بمكة)	٩٧
الست العتيق (الكعبة المشرفة)	٩٨

باب الحيم

١٠٢ الجبل (جبل الطور)

١٠٥ الجودي (جبل في العراق)

□ باب الماء □

١١٢	 الحجر (الذي كان موسى يضربه)
١١٥	 الحجر (منازل ثمود)
١٢٧	 الحجرات (بيوت نساء النبي)
١٣٥	 حرم (مكة البلد الحرام)
١٣٧	 حنين (موضع شرق مكة)

□ باب الدال □

ديار بنى النضير (في البويرة في المدينة) ١٥٤

❑ باب الرء ❑

١٦٠	ريوة (موضع في دمشق)
١٦٣	الرس (مختلف فيه)
١٧٢	الرقيم (قيل واد وقيل قرية)

□ باب العين □

السدين (سد يأجوج ومأجوج) ١٨٢
سواء (صنم لهديل) ١٨٧

❏ باب الثَّيْن ❏

الشجرة (كانت بأرض الحديبية) ١٩٦

□ باب الصاد □

٢٠٢ الصخرة (صخرة موسى وفتاه)
٢٠٤ الصفا (مشعر في المسعى في مكة)

٢٠٧ صياصى (لبنى قريظة في المدينة)

□ باب الطاء □

٢١٤ الطور (جبل في العالم)

٢١٩ طوى (واد في بلاد الشام)

□ باب العين □

٢٢٤ العدو (عدوة وادى بدر)

٢٢٦ عرفات (عرفة)

٢٢٩ العرم : السد (سد مأرب)

٢٣٣ العزى (صنم بين مكة والطائف)

□ باب الفين □

٢٤٠ غار ثور (جبل بأسفل مكة)

٢٤٤ الغربي (المكان الذي قضى الله فيه لموسى)

٢٤٥ غيابة الجب (بئر وضع فيها يوسف)

□ باب القاف □

٢٥٠ القرية (بيت المقدس)

٢٥٢ القرية (بيت المقدس)

٢٥٥ القرية (مكة)

٢٥٧ قرية (قرية شعيب)

٢٥٨ قرية أيلة أو إيلياء أو غيرها)

٢٦١ القرية (نينوى في الموصل)

٢٦٤ القرية (قرية قوم لوط) (سدوم)

٢٧١ القرية (مصر)

٢٧٤ القرية (مكة المكرمة)

٢٧٧ قرية (أيلة أو باجروان)

٢٧٩ قرية (أي قرية)

٢٨٠ القرية (أنطاكية)

٢٨٥ قرية (مكة المكرمة)

٢٨٦ القرى (مكة وما حولها)

الموضوع	رقم الصفحة
القرى (قرى عاد وثمرود)	٢٩١
القرى المباركة (بلاد الشام)	٢٩٢
القرى (عاد وثمرود وقوم لوط)	٢٩٥
القرى (قريظة والنضير وخيبر)	٢٩٨
القريتان (مكة والطائف)	٢٩٩

□ باب الكاف □

الكهف (كهف الفتية)	٣٠٦

□ باب اللام □

اللت (صنم لثقيف بالطائف)	٣٠٨

□ باب الميم □

المؤتفكة (قرى قوم لوط)	٣١٤
مبوا صدق (بيت المقدس)	٣١٦
مجمع البحرين (مختلف فيه)	٣١٩
مدين (قوم شعيب)	٣٢٣
المدينة (مدينة الرسول)	٣٢٩
المدينة (مدينة صالح)	٣٤١
المدينة (مدينة منف في مصر)	٣٤٢
المدينة (أنطاكية في مصر)	٣٤٤
المدينة (سدوم)	٣٤٥
المروة (مشعر في المسعى في مكة)	٣٤٦
المسجد الأقصى (بيت المقدس)	٣٤٨
المسجد الحرام (الذي في مكة)	٣٥٢
مسجد الضرار : الضرار (في المدينة)	٣٥٥
مسجد قباء : قباء (في المدينة)	٣٦٠
مسكن سبأ : سبأ (في اليمن)	٣٦٨
المشعر الحرام (مشعر مزدلفة)	٣٦٩
مصر (أي مصر من الأمصار)	٣٧١
مصر (البلد المعروف)	٣٧٣

رقم الصفحة

الموضوع

- ٣٨١ مكة (البلد الحرام)
- ٣٨٦ مناة (صنم بين مكة والمدينة)

□ باب النون □

- ٣٩٢ نسر (لذى كلاع من حمير)
- ٣٩٣ النهر (نهر الأردن وفلسطين)

□ باب الواو □

- ٣٩٨ واد (وادی مكة)
- ٤٠٠ الواد (واد في الشام)
- ٤٠٣ الواد (وادی القرى)
- ٤٠٦ ود (صنم في دومة الجندل)

□ باب الياء □

- ٤١٠ يثرب (المدينة)
- ٤١٣ يعوق (صنم لهمدان ببلخ)
- ٤١٤ يغوث (صنم في الجرف من سبأ)
- ٤١٦ اليم (نهر النيل)
- ٤٢١ بيان مراجع البحث
- ٤٢٩ فهرس الموضوعات